حافلة حيفا..

البعد الخامس

حافلة أشبه ما تكون برواية

التدقيق اللغوي: إيمان إدريس
emanidress@yahoo.com

حافلة حيفا..

البعد الخامس

حافلة أشبه ما تكون برواية

إبراهيم إدريس

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1436 هـ – 2015 م

ردمك 978-614-01-1660-3

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

ناحت ومصور منحوتة الغلاف: **/alawneh.official**

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

"إلاّ أن في الروايات نوعاً من أنواعِ العبودية؛ إذ إنـــك تجـــد نفسك مضطراً لإنهاء ما بدأتَ طوعاً لا كراهيةً، سائراً في طريقٍ رسمها لك كاتبٌ ما، لا مهرب لك من معرفة مصير ما خطّـــه ذاك القلم لأحد أبطاله، والذي بات أحد أهم الشخصيات في خيالك، لا قدرة لك على مسح دموع الحزن ولا المشاركة في صناعة دموع الفرح، درعك العجز ورمحك الأمل، هذان همـــا كل ما تمتلك من الأسلحة النفسية لتواجه بهمـــا نـــزوات ذاك الكاتب الغامض".

مقتطفات من الورد

إبراهيم إدريس

تنويه

يقال إن التوقيت الحقيقي لصيف هذه الرواية يعود لما قبل خريفها، لا لما بعد ربيعها كما هي الحال الآن في الكتاب. ويقال أيضاً إن الكاتب توقف عن الكتابة عقب انتهائه من صيفه المذكور إثر فجيعته بما آلت إليه الأمور معه في نهايته. لذا عندما وجد نفسه قد تابع من جديد وأكمل وأنهى، قرر إرجاء صيفه لنهاية كتابه آملاً بذلك إرجاء ما فجعه عن قرّائه في محاولة بائسة منه لحمايتهم على قدر استطاعته.

ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا

أرجو من كل من أراد مرافقة هذه الحافلة المواصلة بها لآخر محطاتها، وآخر محطاتها في آخر أروقة الرواية كما يزعم سائقها، فلا تغترّوا بما سيصادفكم من الزائف منها أثناء ترحالكم معنا.

ما حافلتي هذه إلاّ أحاديثٌ من النفس شَبَكتُ عليها من أحداث الحياة فسيّرتها بالحبر على طرقٍ مرصوفة من الورق، ومن ثم أَسقطت فصول السنة الأربعة بتسلسلٍ هانئ عليها.

ركنت حافلتي "حافلة حيفا" على رصيف الخيال بعد أن انطلقت من محطة الواقع، لطالما كان قلمي يحلم بالوجود على مقربة منها ليدوّنها. دعوت ركابها بضعةً من القلب وبضعةً من العقل وبضعةً من المنفى وبضعةً من الطموح وبضعةً من الأمل، أجلستهم بعضهم بجانب بعض على مقاعدها وتحادثنا، تبادلوا المقاعد وأكملنا المحادثات، شكّلوا لي قصصاً ثنائية الأقطاب ورسموا رواية واحدةً لي وللقارئ المستمع.

نعم الحافلات عامة إلاّ أنّ قصص ركابها خاصة، خاصةٌ جداً!

سرنا في طريقنا نحو القدر لمحطةٍ ظننتها الختام ووصلنا، حدث خلل ما! نزلت منها ونزل الركاب ودّعت بعضهم للأبد، وعاد بعضهم للحافلة، انتظرت خارجاً وانتظروا داخلاً ويقال إننا تابعنا المسير بعدها.. لم أعد أذكر شيئاً.

وإني أعلم مسبقاً كما عَلمِ ذاك الداغستاني ودوّن في بلاده فقال:

"سيقول بعض المحررين والنقاد: هذا الذي كتبته ليس رواية ولا قصة ولا أقصوصة، بل نحن لا نعرف ما يمكن أن يكون! أما أنا فلا أصرّ على إعطاء هوية لما أكتب. اعتمدوا الاسم الذي تختارونه لما سوف يخط قلمي. لست أكتب لكي أوافق واحداً من القوانين الكنسية التي وضعتموها ولكني كتبت لألبّي نداء قلبي، والقلب لا يعرف قانوناً، أو على الأصح إن للقلب قوانينه التي لا تناسب الناس جميعاً".

رسول حمزاتوف.. بلدي

الفهرس

المقدمة 15

تمهيد 17

إهداء خاص 25

إهداء عام..... 27

إهداء خاص ثانٍ 31

فكرة الفصول الأربعة 33

آية..... 36

دعاء..... 37

الفصل الأول: الخريف 39

النافذة الأولى: يحيى وفداء..... 41

النافذة الثانية: يحيى ومقتطفات مما مضى من الحياة 61

النافذة الثالثة: فداء ومقتطفات مما مضى من الحياة..... 71

النافذة الرابعة: العم موسى ويحيى..... 87

الفصل الثاني: الشتاء..... 107

النافذة الأولى: حافلة حيفا..... 109

النافذة الثانية: البعد الخامس 125

الفصل الثالث: الربيع..... 139

النافذة الأولى: ياسمين ويحيى ومقتطفات من الحياة..... 141

النافذة الثانية: نهاية الواقع 159

النافذة الثالثة: بداية الحلم..... 173

الفصل الرابع: الصيف..... 189

النافذة الأولى: موسى وشرعية البقاء بالقرب 191

النافذة الثانية: فداء وأول أيام الشام..... 211

النافذة الثالثة: أيوب وأول أيام الشام..... 231

النافذة الرابعة: أول أيام الصيف..... 251

النافذة الخامسة: آخر أيام الصيف..... 271

كلمة أخيرة..... 293

المقدمة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

لم أجد أجملَ من فاتحةِ "فاتحةِ الكتابِ" لهذا الكتاب.

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ولا عجبَ أنها أول ما نطق به البشر

تمهيد

كان يطمح لدراسة الإخراج السينمائي في كلية الإعلام، إلاّ أن الظروف أوصلت طموحة لمنصّة الهندسة، لعله ينطلق من هناك لفضاء الإبداع.

صدقاً لا أدري كيف لمسارات الإبداع أن تنجم عن مكّوكٍ صُنع في أروقة قناعات المجتمع، متغذياً على وقود حاجيات الوطن التي باتت منذ زمن مسدودة في أوجه الكثيرين من ممتهني البطالة ولاعبي دور الفراغ!

رغم أنفه ورغبةً في رفع أنف أبيه دخل كلية الهندسة، لم يرغب بأحد فصولها قط! إلاّ أنّ القدر اختار عنه أحدها والذي كان فصل الإنشائية، وبالمناسبة هي ليست المعمارية ذاتها. كانت أرض الأردنِ الأم الحاضنة لسنوات هندسته هذه، أرض الأردن التي احتوته طفلاً ومراهقاً وطالب علم، ودعونا نقول "متسول عمل" نوعاً ما.

أمضى فترة محكوميته كاملةً خلف أسوار جامعته والتي كانت قرابة الخمسة أعوام، لم يستطع بحسن قدرته على جباية الدرجات العلمية أحسن جبايةٍ الحصولَ على تسريحٍ مبكرٍ من ظُلمة واقعه الجاثمةِ فوق صدر ما لديه من الطموحات.

كان أداؤه للأعمال الحسابية الشاقّة الذي قيّم بدرجة "جيد جداً"، كفيلاً بأن يحلم أبواه بوظيفة الأحلام، إلاّ أنه فاجأ الجميع مفاجأة

مفجعة، فبعد تخرجه في الهندسة هذه بلقب "المهندس" بعامين، اختار أن يخرج من قيود المجتمع بلقب "الحر"، فانطلق من جديد في دروب كلية الفنون بلقب "الأبله، الجريء، المجنون". وكان أن التقاها هناك. هي كانت تدرس هندسة الكيمياء برغبة من والدها، إلاّ أنّ قلبها كان يرغب في دراسة علم الاجتماع في كلية الآداب والتقته هناك.

"هناك" المتفق عليها من كليهما كانت في إحدى الموادّ الحرة "مادة التربية الوطنية"، في الجامعة السورية دمشق.

هو مغرور بعض الشيء وهي طيّبة كثيراً، كان يكبرها بنحو سبعة أعوام، متشائمة بقدر ما كان متفائلاً. تحب الياسمين ويحب شقائق النعمان، كان يكره اللون الأسود تماماً كما كانت تكره الأبيض. بالمناسبة كانت الإشارة للموت هي السبب في كرههما للألوان المتضادّة هذه.

اقترنت حياته بصديقيه عصام وبراء، بينما بنت ذكرياتها وخططت لمستقبلها مع صديقتها الوحيدة رنا ذات الحسب والنسب، وتذكروا إنها رنا الصديقة ذات لمسات العطف والحنان.

عذراً منكم أيها القرّاء غفلت عن تعريفكم بهما: إنهما أيوب وفداء، أيوب ذاك الشاب الطويل وفداء تلك القصيرة بالنسبة له، إلا أنّ لطولها درجة الامتياز ما بين أطوال الفتيات. كان يميل للامتلاء كما كانت تميل للنحافة؛ أسمر وبيضاء، كريم ومسرفة، هادئ ومتسرعة، طموح وعملية، ذو شعر أسود قصير وهي ترتدي الحجاب، عيناها واسعتان كما قلبه وعيناه صغيرتان كما أنفها.

أيوب جوزائيّ الطباع وفداء قوسيّة الهوى، دائماً ما كان أيوب يتغنى بجوزائيته، فالجوزائية بنظره هي الطبيعة الأكثر هوائية من طبائع

الهوى، عنوانها التقلب ونتاجها عادةً التحطم، إنه يراها أكثر الطبائع وعياً على الإطلاق، كيف لا وهي الطبيعة التي أيقنت بملء إرادتها أنّ المشاعر الدنيوية مؤقتة ومتقلبة، وأنّ شدّتها متحولة ومتغيرة، ولن يدوم أحدٌ على حاله سوى الله، فأتقنت الطبيعةُ هذا التقلب بحرية مطلقة ورضا تام في عوالم المشاعر، فها هي تنقلب بسرعة مريبة من الحب الأسطوري للمشاعر الباردة، بشكل مفاجئ نوعاً ما وأحياناً من دون تردّد، وتراها أيضاً ترتحل بلا حاجةٍ لأية مقدمات أو لأيّ سببٍ من الحزن التعيس للفرح الباذخ.

كما أنه رأى أن الجوزائية على دراية تامّة بأن النفس البشرية تئنّ من التغيرات المفروضة من الغير، وتُسرُّ بسبب كونها سيدة الموقف، إنها قادرة على أن تستبق حدثاً ما فتودع شخصاً ما، وقد تتجاهل وقائع ملموسةً وتقفز في قلب الشخص ذاته، لا تناقضاً بل جنوناً جميلاً وحسب، إلاّ أنه يعيبها عشقها حدّ الجنون وكرهها حدّ الشروع بالقتل، القتل عن سبق إصرار وترصد!

أما القوسية فكانت ترى مثله تماماً! أنها ذات الطبيعة المثلى، إذ ترى نفسها بروح فكاهية عظيمة رغم عدم اعترافها بمدى تشاؤمها، صريحة لحدّ فقدان الدبلوماسية، تتستّر بجرأتها لتخفي فضولها، تكره القيود بقدر حبّها للفلسفة، تعشق السفر واكتشاف الفرص وتحلم بالهدوء التام المطبق، يسقط قلبها في الحب سريعاً رغم تأنّي عقلها بهذا الخصوص، وتعلم بأن الجميع يراهما على خلافٍ دائم.

أيوب فلسطيني الأصل أردني المنشأ، زار بجسده بعض المدن الفلسطينية كأريحا ونابلس ورام الله في رحلاته الثلاث لمدينة جنين وكان يتمنى زيارة مدينة خليل الرحمن. سكن العاصمة عمّان، ورغم

كون أصوله تعود لمدينة حيفا لم يزرها قط ولن يسمح له الاحتلال بذلك.

كانت تحسب له ميزة أنه يجوب بعقله الكثير من مدن العالم، امتاز بالثقافة الواسعة وبالسرعة البديهة العالية، فكانتا أول ما يتراءى لزوّار حياته من شرفة شخصيته الرائعة. وفداء أيضاً فلسطينية الأصل أردنية المنشأ وتسكن العاصمة عمّان، *إلّا أنها سورية الطباع لبنانية الهوى، تهوى أهرام مصر وأبراج الإمارات، تحبّ جنان تونس وتعشق من الخليج الصحارى. فداء عربية بتفوق، فداء شامية بامتياز.*

ورغم غزارة هطول النصائح الأرستقراطية من مجتمعها على والديها جزمت وقطعت العهد على نفسها بالسفر إلى الشام، كانت تعلم بأن النصائح تلك ما كانت إلاّ تدخلات خبيثة بحياتها وحياة جدتها الوحيدة، ومن شدة خبثها "من تدخلات" يلقبُها الناس بالنصائح وتلقبها فداء بالنصائح الأرستقراطية!

ادرس في أوروبا أو كندا، اختر التخصص هذا أو ذاك، أنفق الأكثر، ارتحل للأبعد، ارتد الأجود، احمل الأثمن، فقط الأثمن!

لا أدري لِمَ ينقل البعض نصائحهم غير المعمول بها في حيواتهم ويُوردونها لحيوات الآخرين؟ لِمَ يعطون أنفسهم الحق بالتصدق اللفظي علينا! يغضبون إن رفضتها وينتشون طرباً إن قبلتها! عذراً منكم أيها القراء، أسألك يا صاحب الباع الطويل في مجال النصيحة الأرستقراطية أن تسأل نفسك مقاصدها من النصح هذا؟ أتدري ما الذي يعتري قلبك بعد تنفيذنا لوصاياك؟ أو تركنا إياها؟

دعنا نتفق، التفت لشؤونك. لا يحق لأحد إعطاء المشورة غير المعلومة النتائج البتّة، انصح من وحي فعلك لا من وحي حُلمك، ولا من سوء نيّتك ولا حتى من حسنها.

إذاً انتقلت فداء للدراسة الجامعية في دمشق للسكن مع جدتها صفية، وكان ذلك عقب وفاة جدها في حادث سيرٍ مؤسف في المنتصف من حزيران العام المنصرم، رغم حرارة ذاك الصيف كان يوم الحادثة ماطراً! أكاد أجزم أنها أول مرة تمطر فيها السماء في حزيران الشام وأعتقد أنها المرة الأخيرة، لا جرم أنّ السماء اتحدت ببراعة مع القدر لترسخ ذكرى ما في ذاكرة ما بقدرٍ ما، لم يكن أحد ليعلم أن من هذه الوفاة المؤلمة والخسارة القاسية ستولد الحياة، وأية حياة!

وأما صفية "الجدة"، عاشقة دمشق الأولى ذات الثلاثة وسبعين عاماً، وهي قصيرة نوعاً ما ذات عينين رماديتين واسعتين شديدتي الجمال، فحتى هذه اللحظة هما شديدتا الجمال ولكم أن تتخيلوا ذلك! ممتلئة بعض الشيء، لنظّارتها الدائرية الصغيرة ذات الإطار الأسود العريض صورة مشابهة لروحها المرحة، ذات شعر أبيض مموّج مجنون ناصع البياض مع خصلة واحدة صغيرة سوداء. واسعة الثراء، كانت وبقيت على سكنها في حي المالكي الذي يعدّ أحد أرقى أحياء العاصمة السورية دمشق.

صفية طاهية مميزة من الطراز الرفيع، يتذوق المرء من طعامها الهناء. إنها صفية التي كلما دعاها أحدهم قائلاً: يا صفية، قالت: "صفيّة القلب تارةً وصفيّة القلب تارةً أخرى، ذاتُ قلبٍ قائدٍ للجسد مسيّرٍ للطموح، مؤمن متيم عابد، متماشٍ والواقع، خالص من كل

عيبٍ واردٍ وغير وارد، اختاره الله لروحها كتابع، تكاد رقّته تخطف الأبصار!.

ألم أقل لكم إنها صفيّةُ من قبل؟ صفيّة القلب تارةً وصفيّة القلب تارةً أخرى؟ طوبى لمن سكن قلبها".

كيف لا تنشده دوماً وهو أول ما خطه لها زوجها المحب المخلص عوني ابن الشام رحمه الله! كان عوني أحد أهم تجار القماش في البلاد، وعُرف بأنه كثير الخير معطاء.

سمت مكحولة العينين تمشي ... كمشية ظبية تبغي العناقا
رمتني نظرةً من طرف عين ... كسهم قدّ من قوس فصابا
أصابتني برعشة هزت فؤادي ... فلم يبقَ لعيني عقال
تميل إلى اليمين فتقتفيها ... وتسبقها إذا مالت شمالا
لعمري لست أدري غير أنّي ... أهيم بقاتلتي أبغي ازديادا

رغم علمها بأمر سرقة زوجها هذه الأبيات من صديقه *نمر إدريس*، ما برحت تتباهى بها، فلم يكن قد بدأ زوجها بالكتابة منذ صغره كما فعل صديقه.

"أراد أن يثبت لي أنني من الأشخاص الذين يستحقون أن يفعل المرء أي شيء من أجلهم حتى ولو كان كتابة أبيات من الشعر" على حد قولها مبررةً له سرقته أبيات صديقه.

رفضت صفية كل التوسلات ونداءات الرجاء من بناتها الثلاث للانتقال للأردن، بناتها اللواتي كان القدر ينقلهنّ للعاصمة الأردنية عمّان الواحدة تلو الأخرى، راكباتٍ على مَتن قطار الزواج.

فداء الابنة البكر للابنة البكر للجدة صفية، ولفداء خال وحيد وخالتان. وكان الوحيد هذا سبباً من أسباب حادثة السير فالوفـــاة، لذا وتبعاً للظروف والمعطيات المفروضة على فداء وعليها؛ كان القرار حتمياً عليها بالدراسة الجامعية في الشام رغم كونه نابعاً أيضـــاً مـــن قلبها، ومن يدري لعل الأسباب هذه كانت لتداعب فصول الحيـــاةِ حياة الحفيدة فداء.

إهداء خاص

إلى

محمد بن عبد الله

صلى الله عليه وسلم

إهداء عام

كيف لا أهديهم كتاباً؟ كيف لا! كيف لا وقد خُلق تسلسل كلماتي من وحي حيواتهم؟ من قصص حبهم ومعاناة فراقهم؟ كيف لا وقد جئت لأوثق أمجادهم وآلامهم على أوراقي إلى الأبد؟

أنتم! يا من أَشرت لكم بالاسم أو الفعل أو الهمس أو المحادثة أو الحادثة أو الطموح أو النتاج.. لفرط تلامس قلبي بكم ولفرط اجتياحكم المرحّب به لنفسي وعقلي بتُّ أعمل من أجلكم، اعذروني فأنا خلقت من أجلكم.

إلى القدس الشريف لا الشرقية، إلى عمّان، الرياض، دمشق وعواصم العرب

إلى نمر إدريس.. أبي

إلى أمي

إلى أختي وأخي

إلى ياسمين ويحيى

إلى ذاك الذي لم يخلق بعد

إلى أصدقائي "المخلصين منهم"

إلى الفارس موسى من شاركني المقتطفات وما بعدها كما وعد، وأعهده سيكمل مشاركتي لما سأفعله بإذن الله.

إلى ذاك الفنان الشامل المبدع، ذاك الرسام النحات الموهوب، ذاك المفكر المصمم المنفّذ، ذاك الذي جعلني أقف متسائلاً منذ أيام صغري "أين أنا من هذه الحِرف الساحرة؟" إلى من قال لي بفعله المذهل: "إنّ الإنجازات العظمى تكمن هنا في هذه التُحَف"! إلى من قال لي: "إنّ العِلم مادةٌ تُكتسب، وأما الموهبة فشيء يخصّه الله لمن يشاء ويختار"، إلى من ألهمني أن أدعو الله بأن يُملّكني موهبةً واحدةً فقط! مما لدى علاونة "عبد الله" من المواهب (قريبي الصديق ناحت ومصور تحفة الغلاف والتي بدورها إحدى الأبطال الصامتين في روايتي هذه).

إلى المجتمع

إلى الجميع.

إلى

إلى كل من وضعت قلبها بوعاء طعامه وجبةً يتناولها هناك أثناء الشقاء

إلى كل من شكّت قلبها بربطة عنقه صباحاً تشتاق إليه حتى يعود والصباح

إلى كل من رسموا بقلوبهم رِفقةً من يده يتحسسوه بكل الحب والحنان

إلى تلك الأم.. تلك الزوجة.. أولئك الأبناء..

إلى من خلقوا من أجل حياة بجانب بضعٍ من حياة

بضع من حياة؟!

حياة من يبيت خارجاً لتستيقظ الأقوات داخلةً إلى أفواه أحباء ما!

حياة من يَشرُد ذهنه دائماً أو عادةً باحثاً عن كـــلام لصـــنف أدبٍ ما!

حياة من يتمرن جسده عُمُراً باحثاً عن انتصارٍ في سباق ما!

حياة كل من دفع ومن لا يزال يدفع بالوقتٍ الخالص الخـــاصّ طامعاً بإنجاز ما!

إلى كل من حمل العمل "مهما كان" على كاهله والليل وحمـــل معه تقصير الحياة مع من يشاركونه الحياة.

ولا أنسى

إلى أولئك السلبيين القدماء

إلى أولئك السلبيين الجدد

كيف لا أهديكم جميعاً وقد يكون هذا آخر ما لديّ من الكلام؟

إهداء خاص ثانٍ

لكِ أنت.. أُهديكِ أوراقاً كنتُ دفعت لأجلها من أوقاتي، بدلاً من أعمارٍ أستثمرها بالقرب منكِ.. معكِ وإليكِ، لعلّي بتكويني هذه الحكايات الورقية بهذه الجمل الأدبية أضيف من الزمن ما أهدرتُ من الحياة وحيداً لا وإياكِ.

لعلّي أرسل لكِ قصةً أو مشهداً أو فكرةً، حتى ولو كانت مجرد وريقات! لعلّي أعطيك صكاً بما شدا به قلبـــي فتحتفظي به حتى ما شاء منكِ القلب، تشتمّينني فيه ما بين اللقاء واللقاء، تستمعين إليّ فيه أثناء صمتك عند غوصك في القراءات، تستذكرين ذكرياتنا منه بين ما فيه من الكلمات.

لا أدري ما بالك أيها الحب، أراك لا تملك أيّة مقاييس دنيويـــة لقياسك، ولا شهاداتٍ لإثباتك..

مقتطفات من الورد

عذراً منكِ.. دعيني أتبرأ مما قلت آنذاك، فإني الآن أعلن أمام المـــلأ أن أوراقي هذه مقاييس حبٍ دنيوية للساعات المحذوفـــة مـــن حياتنـــا المتَقاسَمَة، يظهر فيها الحب عملةً وقتية أتداولها معك، ومن مَعه أتداولها سواك؟ معبراً فيها ببضع من الكلام والأفكار والأحداث والأسرار عمّـــا جال وما يجول وما سيجول، وما لن يجول بيننا بإذن الله من الأقدار.

قابلتني رجلاً كأي رجل، واقترنت بـــــي رؤىً وطموحـــاً، تزوجتني! وأنا من سبق أن تزوجت من كانت عندي مـــن أوقـــات الفراغ طوعاً، وأنجبت منها بفخرٍ مني بضعاً من الأوراق على هيئـــة بضعةٍ من المقتطفات.

وهبتك وَحدةً فوهبتني الإلهـــام، أســـقيتك العزلـــة فأســـقيتني الاهتمام، فرضتُ خيالي واقعاً على أرضك، ففرضته عليّ ليُقام حقيقةً على الأرض رغم كل الصعاب.

شدا التميمي

زوجتي.. إليك

فكرة الفصول الأربعة

لم يَدُر لي يوماً أن تكون رائعة الكـــاهن الأصـــهب فيفالـــدي الشهيرة المعروفة باسم "الفصول الأربعة" مضماراً لحافلتي! كم لنوتاتها الدقيقة المنتظمة البديعة من قدرة على ترحيلنا معها من فصل لفصـــلٍ آخر متّكئين فيها على بسطٍ موسيقيةٍ سحرية ذات طـــراز مخملـــي هادئ!

وكم أتوق لأن تكون لكلمات حافلتي هذه القدرة ذاتها لتنقّلنا من نافذةٍ حياتية لنافذةٍ حياتيةٍ أخرى بالنسق الموســـيقيّ المتسلســـل الهانئ نفسه، لعلنا نُلقي مَراسي أنفسنا فيها.. على متنـــها.. علـــى مقاعدها.. فنعرج من نوافذها الواسعة بِحُريـــة ونبحـــر في أفِنيـــة مضاميرها الحياتية المتشعبة، ونشاهد عن كثـــبٍ ونصـــغي بترقـــبٍ ونتشارك الألم بالبكاء والحب بالفرح مع حياة عائلة جميلةٍ من عوائل مجتمعنا العربـــي العريق التي مرت فصول القـــدر بتعاقـــبٍ علـــى مدينتها.. فحيّها.. فشارعها.. فمنزلها.. فغرفها حتى أســـرة نومهـــا ووسائدها، فنقرأ فيها من واقع الحياة ما حـــوت بحلوهـــا ومرّهـــا، بأفراحها وأتراحها، باستقرارها واضطراباتها.

أيها الأصهب: "كم استمعت لرائعتك الموسيقية من قبلُ علـــى مرّ السنين واستمتعت!". لم أكن أتوقع أن يكون الإلهام الفيفالـــديّ أول إلهام يقوم بزيارتي فور ولادة رؤيتي لروايتي هذه، لتعبر حـــافلتي

على إثر زيارته من خلال عباءة فصوله الموسيقية الحريرية الأربعة بكل رزانة وهدوء، فكيف لا وهو زائري الأول آنذاك! نعم لقد أسقطت روايتي على الفصول.

لا أغرب من ذلك الشعور الذي ينجم عن سقوط ذكرى عتيقة كنيزكٍ من فضاء الماضي البعيد على سطح الحاضر الساخن، فتزيده حرارةً من حرارة ما مضى! مُنَكَّهةً ببعض المشاعر الحميمة مضيفةً العلاقات الوطيدة بين الإلهام والمُلهَم.

ولا عجب أن تكون الرائعة من مخيلتك أنت أيها الكاهن الأسبق! فها هي تُعَبّر عن حالك من النقيض إلى النقيض، منتقلاً من حال راهب لمعلم كمان، تماماً كما نعبُر في الفصول من فصلٍ لفصلٍ آخر. وما أجمل العبور، وما أجمل الفصول، وما أجمل معزوفتك فيفاليدي أيها الأصهب!

وما أشبه صراط الحياة بسطر النوتة، نسير هنا في الحياة وتعزف هناك لنا في الآخرة، إلاّ أنّ للصراط مطبّات قدرية، ومع عبورنا المحتم عليها نتائج قد تكون أحياناً مروّعة! تنجم عنه معزوفات أبدية تنقش على صفائح غيبية، فإما أن تعزف بإيقاعات الرضا وإما أن تُسَجل بإيماءات السخط، لتعاود لاحقاً فتُبَثّ أمامنا كما تُبث كل معزوفات الأقوام البشرية.

ألا إنّ في تعاقب الفصول مدعاةً للنجاة فلنترقب، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾.

فيفالدي! صدقاً لا أدري كيف لي أن ملأتُ بحافلتي الورقية بضعةً من فضاءات فصولك الموسيقية الأربعة في قصة حياةٍ عائلية بسيطة. أسألك فيفالدي بكل رجاء وسماح أنّه كما سمحت لنغمات

النوتة أن تصطفّ على مدارج الموسيقى لتكون بدورها التعبير الماديّ للنغمة المعنوية التي أوجدتها لنا، أن تجعل من رائعتك هـــذه التعـــبير المعنويّ لحافلتي الورقية التي أوجدتها أنا.

سيكون ساذجاً من قبل الكاتب أن يجعـــل القـــارئ يعتقـــد أن شخصياته وجدت فعلاً. لا هي لم تخلق من جسد امرأة بل مـــن بضع جمل موحية أو من موقف حرج..

كائن لا تحتمل خفته

ميلان كونديرا

آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

[سورة النور: 35].

صدق الله العظيم

دعاء

عن محمد صلى الله عليه وسلم أنه دعا ربه قائلاً:

"اللَّهُم إِني أَسْتَخِيرُكَ بعِلْمِكَ، وأستقدِرُكَ بقُدْرتك، وأَسْأَلُكَ مِنْ فضْلِكَ العَظِيم، فإِنَّكَ تَقْدِرُ ولا أَقْدِرُ، وتعْلَمُ ولا أَعْلَمُ، وَأَنتَ علاَّمُ الغُيُوبِ. اللَّهُمَّ إِنْ كنْتَ تعْلَمُ أَنَّ هذا الأمرَ خَيْرٌ لي في دِيني وَمَعَاشي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فاقْدُرْهُ لي وَيَسِّرْهُ لي، ثمَّ بَارِكْ لي فِيهِ، وَإِن كُنْتَ تعْلمُ أَنَّ هذَا الأَمْرَ شرٌّ لي في دِيني وَمَعاشي وَعَاقبةِ أمري، فاصْرِفهُ عَني، وَاصْرفني عَنهُ، وَاقدُرْ لي الخَيْرَ حَيْثُ كانَ، ثُمَّ رَضِّني بِهِ".

رواه البخاري

الفصل الأول

الخريف

أيام روتينية عابرة ذابلة مهما احتوت

إنه الخريف يا سادة

يحيى وفداء

يحيى: حسناً سأخبركم عنها، أجد الكثير من المعاني المتعلقة بحياتي وبحياة والدتي منحوتةً في طيّات منحوتتي الصغيرة هذه (الموجودة في الصورة)، من فرط ما كانت تعجن وتخبز أمي لي، وعادةً ما كان يتم هذا أمامي، بات يغزوني نوع غريب من الغيرة المريبة، بتُّ أرغب بالتلاعب بالحالات والأشكال، باتت عيناي تدغدغان يديّ لأن أُشكّل من أيّ كتلة بلا قوامٍ ثابتٍ مجموعةً من الهيئات المتباينة والمتنوعة، وجدت في التشكيل والنحت قابلية أوسع وأشمل تسمح لنفسي بالتعبير، وحيوية أثرى لتجسيد تخيلاتي، والعجين كان أولى مراحل وصولي لمنحوتتي هذه.

برأيي الخاص، لأن تكون نحاتاً عظيماً ولأن تنحت أجمل المنحوتات، أنت بحاجة لخيال بمدى شاسع وصبر عظيم ودقّة متناهية وثقة عمياء بإمكانياتك واهتمام مبالغ فيه من قبلك بكافة التفاصيل.

كما أنك تحتاج للإبداع بالفكر بالقدر ذاته لما تحتاج إليه من المهارة، وستلزمك أيضاً فكرة شاملة عن نوعية الموادّ المستخدمة وكافة خصائصها، وعن الألوان وطرق مزجها، وبالتأكيد ستفيدك التكنولوجيا الحديثة المتاحة، ولا سيما بالدرجة الأهمّ عليك أن تتلقى المعرفة الكافية عن أساليب الترميم والأفكار المتعلقة فيه.

النحت لغة صامتة، هو أن تغوص في ما يبدو قبيحاً لتكشف عمّا في نفسك من جمال. أن تنحت أي بمعنى أن تُنطِق الطينة البكماء بلغة الأفكار، هي كرسم لوحة وكإخراج ثلاثيّ الأبعاد، هو ما بين بين، إنه رسم بروح الإخراج.

فداء: كنت أُكثر من العجين والخَبز ليحيى كما أكثرت من قبله لأبيه، *ما من شيء يذكر الرجل ببيته مثل رائحة خبز طازج، لا تشتري خبزكِ مطلقاً. اخبزيه بنفسك. سيكون له فعل العجائب!* ما برحت هذه العبارة مخيلتي أبداً، كان أن قرأتها في أول كتاب صادفته مع جدتي صفية بالشام، كتاب *قواعد العشق الأربعون*. ولاقتناعي بها من فكرة ولأملي بأن تفعل مفعولها مع يحيى كما فعلت مفعولها مع أيوب كنت دائماً ما أكثر من العجين والخبز له، كما أنني أحب المخبوزات أيضاً.

يحيى: كم أعشق ما تخبزه أمي لي. بدأت بالعجين وانتقلت من بعده للطين وكم أحببت اللعب بهما منذ صغري، ومع مرور الزمن بدأت أبذل المزيد من وقتي في التشكيل من الطين، ولكوني في عمر صغير في بداية قصة الطين هذه لم أجد أية ممانعة من والدتي، إلاّ أن صديق والدي براء التفت لي بنظرة مختلفة وكم أنا شاكرٌ له بها، فأدخلني في مجال استخدام الخزف.

فداء: نِعم الصديق هو براء، لم ينسَ كم كان يبذل أيوب من وقته على هواياته وكيف كان يتفكر فيها على الدوام، وكم تحدّثا عنها في القدم، وكم تابعا معاً ما أنجز كلّ منهما. ولّما كان أيوب يكثر من سؤال الله أبناءً بمواهب، ارتأى براء في نفسه أنّ الخزف قد يكون استجابةً من الله لدعاء أيوب، و"لِمَ لا" على حد قوله؟

وإني دائماً ما أتساءل لم لا نبذل نحن جميعنا على القَدْر الذي نأمل به؟ لِمَ لا نأخذ بكل الأسباب قبل أن ننتظر المنح المجّانية من الرحمن؟

يحيى: إذاً كانت البداية بمرحلة العجين ومن بعدها مرحلة الطين ومن ثم جاء وقت الخزف، لطالما شكّلت بالخزف التحف والأشكال والشخوص. كنت أعبّ من خيالي ما أشتهي ومن الذوّاقة ما يرغبون برؤيته، لإحقاق سعادتهم تارة ولتفحّص مقدرتي على النحت تارات أخرى. كنت أواصل النحت لمدة تتجاوز أحياناً الخمس ساعات في اليوم، وعلى مدار خمسة أيام متواصلة من الأسبوع، استمررت على حالي بقصد المتعة واستمرّ العم براء معي بقصد البحث عن الموهبة إلى أن جاء ذاك اليوم.

في يوم ما من أيام الصيف، كان يوم سبت كما أذكر، ما بين المغرب والعشاء، عندما أعادني العمّ عصام من النادي الذي أرافقه إليه ثلاث مرات أسبوعياً بقصد السباحة، وجدت أمي على الأرض مغشياً عليها، كان ذاك اليوم أول يوم أراها فيه بهذه الحالة، كانت بحالةٍ عاجزة، تمام العجز! كان الإرهاق ملمس وجنتها، ولون الإجهاد لون كحلها، كان جسدها يرتدي النَصَب ويتزيّن جيدها بالعناء، كانت تتعرّق اللغوب، إنها المرة الأولى التي أتنبّه فيها لمدى نحولها، نعم فهي لم تكن تأكل وقتها!

كنت صغيراً حينها أو بالأحرى لنقُل بأنني كنت قليل الخبرة في الحياة نوعاً ما، في السادسة عشرة من عمري تقريباً. ما كان مني إلاّ أن خرجت لعلّي ألحق العمّ عصام الذي أوصلني لتوّه، إلاّ أنني لم أجد له أثراً، فهاتفت العمة رنا على عجل وجاءتنا على عجل أعجل، أذكر أنني فتحت لها الباب ووجدتها بوجه مفجوعٍ أكثر مما كان في

وجهي من فجيعة، أجزم أنها تذكّرت وقتها ما حل بوالدي وخشيت أن يتكرر بحياتها المشهد المقيت ذاته.

أفاقت أمي بعد فترة ليست بوجيزة ووجدت نفسها ممدّدةً في سريرها، أجبرتها العمة رنا على تناول الطعام بكمية كبيرة، الطعام الذي كان منها أن أحضرته بعد نقلنا لأمي ووضعها على سريرها، إذ طلبت مني أن أرعى والدتي لحين عودتها، ومع عودتها تلك أحضرت لنا عشاءً لذيذاً بالنسبة لي ومؤثراً للغاية بالنسبة لأمي. عن غير قصدٍ منها، جلبت لنا التبولة والكبة المشوية والكبة المقلية وورق عنب ومجموعة من المعجنات، بالإضافة لعصير التوت. (بالرغم من عشقي الشديد لمتعة تناول الطعام لا أزال أميل للنحول أكثر من ميلي للامتلاء حتى الآن!).

فداء: إنني أذكره إنه العشاء الأول ذاته الذي أعدّته لي جدتي في الشام، يا لها من مصادفة! حتى محاولات تجاوزي لفقداني زوجي تزيد من تعلّقي وذاكرتي به! لم تطالبني رنا يومها بأن أعود كما كنت في القدم، كان كل ما طالبتني به هو أن أبقى على حالي على الأقل! قدّمت لي تنازلاً بقولها "استمري في كونك على ما أنتِ عليه الآن، أرجو ألاّ تنزلقي أكثر في التيه، فيحيى بحاجة إليك وأيوب بالتأكيد يرقب حالتك".

كم كنت أتوق لأن أجيبها بجواب بطلة رواية جنوب *الحدود غرب الشمس* لبطلها إذ أجابته: *أنت لا تفهم شيئًا: تقول إنه من الجيد أن أكون على ما أنا عليه الآن! لكنّ البقاء هكذا يستهلك كل طاقة ممكنة*. إلاّ أنني آثرت الصمت وصمتّ.

﴿... إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ...﴾ [يوسف: 86]. أنهكتني الوحدة، حتى البكاء يعجز عن التعبير عمّا في النفس أحيانـاً!

لا يُعبّر المكوث بالمحيط الخالي من البشر عن الوحدة، بل الوحدة هي الحياة بلا الحبيب من بعد وجوده فيها (مع عدم وجود أي مقدار من الأمل ولو كان ضئيلاً لعودته)، سواء أكانت هذه الحياة في جنّة الأرض أو حتى في جحيمها فالأمر بدونه سيّ.

والوحدة ليست مثيلةً للشوق كما يعتقد البعض فالشوق مؤقت مهما طال دربه، أما الوحدة (كوحدتي هذه) مختومة بختم الأبد الدنيوي. أتساءل: ما الوحدة بنظركم؟ بنظري أنا ما هي إلاّ اندثار مرافق الجسد الأقرب، فيفقد بذلك القلب ساكنه الأعزّ ويفنى للأنف بخوره الفوّاح ويتلاشى للأذن صوت مطربها الأوحد ويتوارى عن العيون مستقرّها الذي اعتادت الجريان إليه، ويضيع باندثار المرافق هذا محدّث العقل الأثمن، المحدّث الأكثر مشاركةً للعقل والأشد سطوةً عليه بحضوره.

الوحدة هي فقدان ثمينك الخاصّ للأبد، ثمينك الذي لا بديل له ولا قيمة لما يعوّض عنه، الوحدة كخسارة حرب حتى ولو كانت خسارتها من بعد الفوز في العديد من الصولات والجولات.

ومع مرور الزمن أضحت تقلبات مشاعري تتثاقل أكثر فأكثر، فبات الفرح عندي أثقل والحزن أخفّ، والرغبة أكثر تريثاً والأمل بتوانٍ أكبر، بات تبسّمي مرهقاً وبات بكائي مدعاة للملل، مللت كل شيء سوى العروج لأرض الذكريات.

فهناك فقط، في أرض الذكريات ألتقي بمن أشاء، ومن أشاء أن ألقى سواه؟ هناك أراقصه حتى يعتريني التعب وهو الذي لا يمسّه أي نصب، أضحك حتى تغالبني الدموع وهو من يضحك بالتبسّم فقط، أحادثه حتى يمل الوحدة صغيري يحيى، وهو الذي يحثّني بحديثه الصامت على العودة لأرض الواقع لرعاية ابننا "يحيى أيوب".

يحيى: منذ طفولتي وأنا أرى حالة أمي تتحول شيئاً فشيئاً، استشعرت مع مرور الزمن بأنّ أمي تلقي أرتالاً من مشاعرها على جانبيْ درب حياتها وكأنها كانت تتثاقل منها أو أنها كانت تقضّ مضجعها. كانت أقنعة سعادتها تتزايد، ووصلت بها الحال لتكون أماً بقلب مصطنع؛ لا تبكي كما لا تضحك، لا تغضب كما لا تُسرّ، تبتسم حينما تعتقد بأن الوقت ملائم وعادةً ما كانت تخطئ توقيته. وبعد حالة إعيائها تلك انفجرت غاضباً وكدت أتلفّظ بما أندم عليه! أستغفر الله، إلاّ أنني تفكرت لحظتها؛ ألن تتبدل حروف الكلمات عندما يعيش فينا اليقين المطلق بأن الكلمات التي تصدر من أفواهنا ستصل لمسامع الكريم سبحانه؟ ألن يتغير أسلوب نطقها؟ هل ستتمكن من الخروج أصلاً؟ فما كان مني إلاّ أن اتجهت للخزف وصنعت منحوتتي هذه كتفريغ عن شحنات غضبي.

فداء: كم كانت مذهلة منحوتته تلك! كم وددت لو زيّنا بها غرفة جلوسنا وبمثيلاتها! يا ليته يتمكّن من تكرار نحتها يوماً ما بكثرة. يحيى شخص موهوب أعطى الكثير للنحت وأعطاه النحت بدوره أكثر، فمع النحت أسرع النضج ليطفوَ على سطح شخصية صغيري بشكل جليّ لي وللآخرين.

حقاً إنّ الموهبة معراج للشخصية نحو النضج، فالطفل الموهوب رجلٌ مشحونٌ بطاقة لا تنضب للعمل وبرغبة جارفة للإنجاز، وتمكّنه الموهبة أيضاً من تقييم الوقت أثمن تقييم وبالطبع هذا كله مشروطٌ بالإرادة، على عكس الرجل غير المرغوب تراه طفلاً مكبلاً يسعى لإهدار وقته تارةً ولتفريغ طفولته من جديد تارات أخرى.

إلاّ أنني تمنيت من كل قلبي أن لا يقع "ما بين بين" كما وقع نسبياً والده من قبله، إذ ضاع جهده رحمه الله بين الرسم والإخراج ومحاولات الكتابة على حساب هندسته. أسأل الله أن يمسك يحيى بطرف واحد فقط وأن يكون مكتفياً به، وسأكون إلى جانبه مهما كان هذا الطرف ومهما كانت معه الظروف أو عليه.

يحيى: لفترة طويلة من الزمن لم أستطع أن أكرر منحوتتي، وحسبت أنني لن أتمكّن من ذلك يوماً، فلم تخلق المنحوتة هذه من الفكر وحده بل من القهر، ألا إنّ الولادة من القهر أشد بلاغاً وأدوم أثراً!

هل تصدقون أنّ من شدة حبي لمنحوتتي هذه أنني أشعر (حتى الآن) كما شعر الغزال الأسمر *تيري هنري* أسطورة نادي الأرسنال الإنجليزي والمنتخب الفرنسي بعد اعتزاله لعالم كرة القدم إذ قال: *عندما كنت صغيراً كنت أحلم بالفوز بكأس العالم، ثم فجأة وجدت نفسي أفوز بها، قد لا تصدق أنني حتى يومنا هذا لا أشعر بأنني احتفلت كما يجب بذلك الإنجاز العظيم.*

وأنا كذلك رغم بساطة منحوتتي وبساطة كونها كإنجاز ما بين الإنجازات لا أزال أشعر بأنني لم أحتفل بها كما يجب، كيف لا وهي ذات قيمة معنوية لامرئية تفوق ما فيها من جمال منظور بحسب وجهة نظري، ففيها وعن طريقها ولدت والدتي من جديد، هل رأيتم من قبل أماً تولد من جديد؟

منحوتتي هذه رسمة ثلاثية الأبعاد لشخصية أرستقراطية ملكية الهيئة باريسية الهوى، تعود لامرأة متكاملة، تعود لمن هي ذات رقيّ نوعيّ ولمن تمتلك نظرة ثاقبة. عزيزة النفس ذات بصيرة، أبيّة وقوامها رشيق وأناقتها بهيّة، في وقفتها تنتصب العزة ولو سمعتم صوتها

للمستم فيه الأنفة، إنها امرأة عظيمة إلاّ أنها فقدت جرّاء الظـــروف القاسية من عظمة أحاسيسها! فباتت عاجزة عن التعبير، والتعـــبير في منحوتتي الخزفية هذه يكمن رمزاً في يديها، هذه المنحوتة تعود لحالة من أنجبتني (حينها) والدنيا.

من شدة اعتزازي بمنحوتتي وبمجرد انتهائي من نحتها اتخـــذت فوراً قراراً بخبزها في فرن خزفٍ خاص. كانت هذه المرة الأولى الـــتي أخبز فيها الخزف، ونظراً لسوء حظي حينها ولقلة خبرتي انفجرت في فرن الخزف! لم يبقَ منها للأسف سوى رأســـها كقطعـــة واحـــدة وجسدها كحطام مبعثر في أرضية الفرن!

كانت معي أمي أثناء ذاك الانفجار (ويعدّ هذا الانفجار الأول الذي أشهده في حياتي) فحضنتني حينها وبكت وبكت ثم بكت. منذ زمن طويل لم تذرف هذه المرأة من دموعها أية دمعة، كـــم كانـــت شديدة البخل بماء عيونها. وبعد مرور القليل من الوقت ورغم حزني على فقداني لمنحوتتي التي لا أزال أعتزّ فيها حد الغرور وأعجب فيها بما يفوق الجنون، وجدت نفسي في قمة السعادة إذ إنّ الانفجار ذاك أفاق أمي من حالتها، وأعادها كما كانت تماماً كمـــا وصـــفتها لي العمة رنا من قبل.

أخيراً عادت فداء، عادت أمي وكانت عودتها الميمونة للحيـــاة من يومها، ومن يومها ومن شدة ابتهاجي بعودتها قطعـــت صـــلتي بالخزف نهائياً، عافته نفسي بعد تلك الحادثة مباشرةً ولم أدرِ ما كان السبب في ذلك! لعله كان الخوف من إهدار فرصة عودتها الثمينة التي لامستها أخيراً، ومنذ ذاك الحين ولمدة سنوات من عمري وأنا أتساءل في نفسي "أتراني سأعود للنحت يوماً ما"؟

لقد وجدت أمي كما قال عنها أبـــي رحمه الله إذ قال فيهـــا: "أشهد أنها من أثمن وأندر صنوف الأزهار، إذ أرى فيها نضارة تطّرد مع الزمن وعطراً لا ينجلي بتاتاً على الدوام. نعـــم تـــذبل الزهـــرة وتموت! إلاّ أنه يحدث مع زهرتي قبيل موتها أنها تستنسخ من نفســـها أكثر من نسخة، فتبيت زهرتي هي ذاتها مجموعة من الأزهار، إنـــه لا يُصنفُ عندها موتاً بل تجلياً مبتكراً ويُصنّف عندي تفشياً مشروعاً".

وكان يقول فيها أيضاً رحمه الله: "إنها زهرتي أنا، زهرة التجدد إثر العطاء، زهرةٌ وسّعت نفوذها في قلبـــي من بعد تمكّنها منه تمامـــاً كما تصنع جذور النباتات والأشجار، إنها زهرة حالمة عشت معها في عبيرها كل ما ابتدعت لنفسها من الأحلام، فحييت دنيـــاي معهـــا كالحلم على أرض الواقع وكالحقيقة في سماء أحلامها، ووهمي كـــان معها مسرّة! فكيف تكون برأيكم معها الأحلام؟".

فداء: رحمه الله، إنّ للحب نشارة كما للخشب أثناء تصـــنيعه، ويعدّ عذب الكلام أجمل ما بين نشارته. وأيوب أفضل نجاري الحب على الإطلاق، كم أحترق شوقاً عند عبور أيوب على باب خاطري، اللهم إني أدعوك كما دعاك *محمد الطنطاوي* في كتابه *من حـــديث النفس*، إذ دعاك قائلاً: *يا رب ارحمني بالنسيان، وأين مني النسيان؟*

انحصرت حياتي كلها من أجل شخص واحد من بعد أيـــوب، واحد فقط: إنه يحيى. أتعدّون الرقم واحد بالرقم القليل؟ قطعاً أنـــتم مخطئون إن ظننتم ذلك، فكل البدايات العظيمة تبدأ بالرقم هـــذا، ألم تكتفِ الفتاة الطبيعية بحبيب واحد؟ والرجل السويّ بحبيبة واحدة؟ ألم يقتنع الكاتب البارع بقارئ واحد كمعجب حقيقي بكتاباته قبيـــل استهلاله لدربه بين الكتب؟ ألم يستغنِ المطرب المشهور بمستمع واحد

كداعمٍ له قبل اندماجه بمشوار احترافه؟ وكذلك الرسام المبدع ألم يقتصر على ناظر واحد في بدايته؟ والطاهي الماهر بمتذوق واحد كأول مشجع له؟

دائماً ما يكون هذا الواحد وحيداً وهذا ما يجعل منه مميزاً للأبد، فكيف إن كان الواحد هذا من تعيش من أجله؟ قطعاً إنّ الواحد المقصود هذا عظيم.

مرت السنون علينا كلينا بحلوها ومرّها، فيها من الأحداث الصغار ومن الأحداث العظام، ورغم أيامي العظيمة مع صغيري ورغم أيامي الأخاذة مع أبيه أيوب من قبله، كان يوم تخرج يحيى في جامعته (إنها جامعة أيوب ذاتها من قبله) بالمطلق أجمل يوم من أيام حياتي. شعرت بسعادة عظيمة، صدقاً إنني وجدت يومها السعادة كما وجدها جدي من قبل رحمه الله إذ قال عنها: "السعادة بركان ثائر وتكمن لحظة ثورانه في باكورة الابتسامة".

ففي لحظة وصول صغيري لمنصّة تسليم الشهادات الجامعية شعرت بانفجار بركان السعادة في نفسي مبتدئاً بأولى مراحله، والتي هي رسم الابتسامة على محيّاي. كيف لا تكون الابتسامة باكورة السعادة؟ ألا إنّ للابتسامة الانطلاقة الأسرع ما بين كل التعابير، وهي أسرع من دموع الفرح أيضاً.

أتمّ صغيري دراسته فيها، أقصد في كلية والده نفسها بنجاحٍ ما بين المرموق والمتوسط مثل والده تماماً. ويعدّ هذا النجاح نجاحاً كافياً بنظري وبنظره وبنظر المجتمع وسوق العمل المحليّ والعربيّ، هذا بالطبع في حال اعتمد السوق على مؤهلات العاملين بدلاً من اعتماده على شؤون أخرى أعُدّها أنا شؤوناً قذرة.

لم يكن الجمال المطلق لذاك اليوم بسبب حدث التخرج بحدّ ذاته وحسب، رغم أنّ حدث التخرج بحدّ ذاته حدث هائل بالنسبة لي كما تعدّ كل الأمهات في العالم أيام تخرّج أبنائهنّ كذلك. فكيف وإن كان التخرج لوحيدي يحيى! حقاً كان حدثاً هائلاً، ولكنه كان أجمل أيام حياتي بسبب تسليمي لصغيري أولى هداياه المرسلة له من الماضي الحميم، من حيث اجتهد والده قديماً، حينما أنكر عليه الناس اجتهاده في التفكير بالمستقبل البعيد.

كم انتظرت هذا اليوم! حقاً إني لا أصدق حتى بأنني نجحت باحتفاظي بالسرّ الثقيل عن صغيري وعن الجميع أيضاً، لذا بحت له بالسرّ على الفور في مساء يوم تخرجه، كنت كمن ألقت عن كاهلها في مسابقةٍ ما ما أثقلها بعد صفّارة النهاية بلحظة واحدة وقبيل استسلامها بلحظات قليلة، قليلة جداً.

يحيى: بالرغم من البهجة الغامرة التي انتابت أمي يوم تخرجي شعرت بتوترها بعض الشيء، اعتقدت في البداية أنّ السبب في ذلك متعلق بغياب والدي عنها في يوم فرحنا المرتقب ذاك، إلاّ أنها فاجأتني مساءً بعد تناولنا العشاء اللذيذ الذي أعددناه معاً احتفالاً بالحدث قائلةً لي: "يا بنيّ لقد أراد والدك من المفاجأة أسلوباً لأبوّته، إذ كان يطمح لمفاجأتك بأغلى المفاجآت، أراد أن يعدّ لك منها من قبل ولادتك وحتى لبعد وفاته رحمه الله"، قلت لها: "رحمه الله، لم يتح له القدر الفرصة ليفعل من هذا شيئاً"، قالت: "ومن قال لك بأنّ القدر لم يتح له الفرصة؟ أقسم أيوب على أنه لن يفوّت مناسبةً تخصّك وأنه لن يهمل فرصةً لإثبات مدى حبه لك، حتى وإن لم يكن يعلم باحتمالية قدومك".

ثم قامت ودخلت غرفتها، عادت بعد لحظات قليلة معدودة ومعها صندوق والدي الخشبي الأسود، إنه الصندوق ذاته الأثمن على قلبه.

انتابتني حيرة جارفة وغموض مستحكم أحالا حالة دهشتي الأولية لشعور ضئيل لا يذكر بالمقارنة بدهشتي الأحدث، كيف لم يخطر على بالي فتح هذا الصندوق من قبل؟ كم أكره فكرة إهمال الموجود متعذراً بفرط وجوده.

فداء: سبحان الخالق، ما أبدع وجهك يا صغيري! والله إني لأجد نفسي أمام أيوب بحضرته، يرث يحيى إيماءات رأس والده ونظراته المعبّرة وتلاعبات عينيه وتراقصات حاجبيه، يتثاءب مثله تماماً وينام على شاكلته، تغمز عينه اليمنى كغمزته ويمتلك كغمّازتيه في خدّه، يمشي كمشيته ويئنّ كأنينه، ويحوز أيضاً دموعه السخيّة التي مات وهو يظن أنها كانت تنسل خفيةً عني.

رحمه الله وباركك الله، لا أدري كيف للكثيرين أن ألقوا عليّ باللوم لعدم زواجي من بعد أيوب بالرغم من تعلّقي به الذي فاق حد الالتصاق إليه؟ ألا يعلمون أنه لا يزال على قيد الحياة في قلبي يأكل من ذكرياتي ويبني في أحلامي؟

ألا يعلمون أنّ الحب الحق كالوقف تماماً، إذ يوقف به المحبّ جسده بما احتوى من قلب وعقل وما إلى ذلك؟ فأيّ حق تمتلكه النفس للتصرّف بكيانها بعد كل هذا؟ حتى الروح تراها شبكت مرساتها بمرساة روح حبيب صاحبها فلا تنفذان كلّ من الأخرى مهما حلّقتا في أثير الكون، وليس لنفسيهما عليهما بسلطان. لا حق تمتلكه النفس للتوريث هنا إطلاقاً.

إنني لا آبه قطّ لنظرة المجتمع المشفقة ولا لتحننه وتعطّفه ومواساته المبالغة فيها، أشكر إحساسه النبيل بيد أنني أعلم بأنّ مشاعره هذه ليست إلاّ مرآةً لما يعتقد أفراده بأنهم سيواجهونه إن صادفتهم أقدار مشابهة لقدري.

إنّ الإنسان قادر على المضيّ دوماً رغم كل الصعاب، فالطريق معبّدة من قبل والعبور عليها إجباري، لذا لا مفرّ من العبور أفضل العبور، وأفضل العبور يكمن بالترقي عن صواغر الأمور للحفاظ على الأهداف الأساسية من دورنا ووجودنا في الحياة، وأنا على أشد القناعة بما كتبه *ساراماغو* في روايته *العمى* إذ كتب فيها: *إن العقل يعاني الأوهام عندما يستسلم إلى الهولات التي يخلقها بنفسه لنفسه*، وأنا لم ولن أستسلم أبداً لأنني لم ولن أخلق الهولات.

بالإضافة إلى ذلك إنني موقنة بأنّ حالتي الآن بالبقاء بلا زواج من بعده هي ذاتها ستكون حالته إن كان وكُتب له البقاء رحمه الله على حساب غيابي، في حال وجود طفل. ثم كيف لي أن أستبدله بأحد؟ وأيّ أحد؟ مهما كان وإن كان لي فيه الخير العظيم وإن أقام لي في أرضنا جنة نعيم، فلا أحد يعتلي عرش أيوب من بعده أبداً.

ويجب عليّ إخباركم بأمر آخر، إنّ ما يقززني شخصياً أشد التقزز هو أن أشاهد المراهقين من العجائز في سباق مع متعدّدي الزوجات ساعين معاً لعلّ أحداً منهم يحظى بي كإضافة لدفتر عائلته، وإنه من المثير للاشمئزاز أيضاً أن أرى جسدي استناداً لحالتي كأرملة طَبَقاً في متناول عقول المرضى الميئوس من حالاتهم تارةً وللأرامل المسنّين تارةً أخرى، بداعي حاجتي لظلّهم لا أكثر!

وأعظم الكوارث بالنسبة لي تكمن في قناعة هؤلاء (ذوي العطب النوعي) بأنهم يتقرّبون مني ومن أمثالي (من ذوي الظروف الخاصة حسب اعتقادهم) إلى الله، ويطبقون من سنن نبيه صلى الله عليه وسلم! ألا يعلم ذوو العطب هؤلاء أنه صلى الله عليه وسلم تزوج وهو ابن الخامسة والعشرين زوجته خديجة رضي الله عنها، ذات الأربعين، أول زواجٍ له والوحيد طوال حياتها رحمها الله؟ ألا يعلمون بأنها كانت متزوجة قبله مرتين وهو الذي لم يسبق له الزواج بعد؟ أم إنّ علومهم الشرعية متقوقعة حول فكرة تعدد الزوجات بالشكل العام وحسب!

لن أخوض في أمر التعدد الآن، إلاّ أنني قد أعود إليه لاحقاً وسأختم كلامي هذا بأن أقول لكم بأنّ النظرة الدونية للأرامل والمطلّقات واللواتي يعتقد الرجال أنّ أمر الزواج قد فاتهنّ نظرة مُحدثة قذرة في مجتمعنا ولم تكن فيه من قبل قطّ، وأقول كنصيحة لذوي العطب النوعي: إن أردتم الزواج تزوجوا بمن يتناسبن مع حالاتكم بعيداً منا.

إنّ الزواج الحقّ مطمع للجميع ذكوراً وإناثاً، إلاّ أنّ الزواج ذا المقومات البخسة ليس طموحاً لا للرجل المحمديّ ولا للأنثى الخديجية، نعم في فطرة المرأة ميل للاتحاد بالرجل إلاّ أنها كيان مستقلّ قادر على المسير بدونه إن شاءت هي أو شاءت عنها الأقدار ذلك، على عكس الرجل السويّ فهو غير قادر على المسير بدونها إلاّ في حالات محدودة ونادرة للغاية.

والحالات التي ذكرتها لكم منذ قليل حالات مقدّرة من الله تعالى كما قدّر حال المتزوجات تماماً (وللمعلومة فقط ليست كلّ

متزوجة متزوجة)، إما ابتلاءً وعليهنّ الصبر وإما مكافئةً لهنّ وعليهنّ الشكر، وما أكثر الحالات التي تستوجب الشكر عن التي تستوجب الصبر! فلا يحق لذوي العطب النوعيّ التفكير في حالاتهنّ لسدّ ذرائع رفضهم من قبل جلّ الفتيات ذوات النفسيات والظروف السويّة.

إن أصل الزواج هو الحب والتوق لمشاركة الروح لا الحاجة فقط، وقد يقول البعض إنّ كلامي هراء، إلاّ أنني مطمئنّة بأنّ انتفاء الرقيّ الفكري عند البعض لا يعني انتفاءه بالمطلق، كونوا على ثقة أصدقائي بأنّ نشوة الحب أطهر من نشوة الجسد وأشد قوةً وجمالاً، إنها من حقائق السعادة المغيّبة عن عقول العامّة. كدت أنسى ما كنت أقصه عليكم، أين وصلت معكم؟

يحيى: هذه هي أمي، دائماً ما يأخذها الغضب فتبحر، خصوصاً عندما يتعلق موضوع حديثها بالسياسة أو المرأة، إنها سياستها التي تتبناها كامرأة، إنها تبحر لدرجة أنها تنسى منطلق حديثها وتفقد بنسيانها هذا طريق عودتها إليه.

فداء: نعم تذكرت، فتحت الصندوق الخشبي الأسود الخاصّ بأيوب وأخرجت كل ما كان فيه، كان يحتوي ثلاثة مستندات مغلّفة بأغلفة بيضاء تبدو لمن يراها ولا يعلم حقيقتها بأنها حديثة، كتب على كل منها عنوان بخط رقعة أسود عريض متقن وتاريخ بخطّ أحمر صغير.

وضعت الصندوق إلى جانبي واحتضنت المستندات ما بين أضلعي واعتصرتها كمن تعتصر جسدها من شدة البرد، ثم أعطيتها ثلاثتها ليحيى محافظةً على ترتيبها؛ الأعلى في الأعلى والأسفل في الأسفل والأوسط في مكانه كما تركها من قبل رحمه الله.

يحيى: "ما الذي يجري من حولي؟" كان هذا تساؤلي الوحيد حينها، كنت بحالة جمود شامل شمل كل ما أمتلكه من حواسّ وأعضاء جسدي، شعرت بالعجز ورغبت بالتهام الزمن التهاماً لعلّي أصل لما يسدّ ظمأ فضولي بأسرع وقت ممكن.

دفعت أمي بالمستندات الثلاثة إليّ وقالت: "يا بنيّ هذه هي حصيلة ما خطّه والدك رحمه الله، أعلم أنني أطلعتك على القليل مما خطه على هيئة وريقات منثورة في ما مضى، إلاّ أنه أوصاني بألاّ تخرج المستندات هذه للنور قبل يومنا هذا، إن كان ليومنا هذا من سبيل (إذ لم يكن يعلم أحد منا بقدومه من يوم أو حتى بقدومك) وإلاّ فلي حرية التصرف بها".

صدقاً لا أدري أعليّ أن أعدّ هذا الأمر بالمفاجأة أم لا؟ ألا إنه أعظم من ذلك بكثير، ألا تعدّ هذه المستندات حلقة وصلٍ بين أيوب الحيّ، في الماضي، وبين ابنه في المستقبل؟ شعرت بأنّ فيها من أنفاسه وبأنّ عليها من عرقه وبأنّ من بين جنباتها من أوقاته المحدودة، أحسست أكثر بمكانتي في قلبه التي تجلّت لعقله على هيئة فكرة هائلة بإرسال مرسالٍ عظيم الموكب مهما صغر راكبه، شعرت به يحادثني، يشيد بتخرجي في جامعتي بل ويثني على وجودي حامداً كلّ ما بدر ويبدر مني.

أخرجت المستند الأول من مغلّفه وبعدما قرأت عنوانه وتاريخه رفعت صفحته الأولى فوجدت مكتوباً عليها بخط اليد (إنه بالتأكيد خط يده رحمه الله): "يسلّم باليد لصديقي موسى في أسرع وقت ممكن، في أي مكان كان حتى وإن كان المكان المنشود ذاك الزمان أحد أحياء إسطنبول".

فداء: هوى قلبي كمظلية وثبت عن متن طائرة، إلاّ أن المظلّية تتميز عني بكونها ذات إرادة لاتخاذ قرار لحظة وثوبها، على عكس قلبي تماماً الذي هوى على حين غرة مني. ثم كيف للعادة التي اكتسبتها من أيوب وتعايشت معها طوال السنين البارحة أن تكون في تلك المرة ضدّي؟

اعتاد أيوب ألاّ يقرأ إهداءً ولا مقدمة، مهما كانت المقدمة جميلة أو قصيرة، ومهما كان الإهداء عاماً أو مميزاً، فاعتدت بعادته هذه وبتُّ لا أقرأ لا مقدمةً ولا إهداءً مثله رحمه الله، بيد أنه اعتاد بدوره عادتي بأن يبدأ قراءة المجلاّت والصحف من الخلف، وهذا بالطبع في الأيام الغابرة التي كانت تُقرأ فيها المجلات والصحف.

أيكون المقصود من هذا أن يفاجئني أنا أيضاً؟ ألم يكتفِ بنيّته مفاجئته ليحيى يا ترى؟ أتعلمون! لقد قرأت المستندات الثلاثة عشرات المرات من قبل، حفظت الكثير من سطورها لدرجة أنني أستطيع أن أتلو عليكم بعضها بكامل حذافيرها، وحلمت بأحداثها أيضاً، إذ إنها تعرض عليّ أحياناً كأفلامٍ بأسلوب إخراجه في أحلامي الليلية وحتى في اليقظة منها، كنت على يقين تامّ بأنني على اطّلاع شامل على كل ما خط فكره، حتى جاءت تلك اللحظة التي كشفت لي عن فقداني لتنويه واحد (حتى الآن)، وأي تنويه كان الذي فقدت! إنه من وصيته!

استمر موسى (صديق أيوب وصديق جدي من قبله ورفيق جدتي من بعد وفاة جدي) على تفقد يحيى أسبوعياً، كان يهاتفه صباح كل يوم جمعة منذ أن تمكّن صغيري من الكلام حتى فترة انتهائه من مرحلته الثانوية، واستمر متقطعاً بعدها، بالإضافة إلى أنه زارنا قرابة الاثنتي عشرة مرة كانت آخرها قبل سنتين.

كنت على علم مسبق بمقدار المعزة التي احتلّها موسى من قلب أيوب، من شدة إتيانه رحمه الله على ذكر اسمه من باب، ومن سرد الأحداث التي جمعتهما في الشام على مسمعيّ من باب، ومن قراءتي لما في المخطوطات من باب آخر، إلاّ أنني لم أتوقع البتة أن يصل شأن معزّته لدرجة أن يوصي له بشيء كهذا!

قلت لنفسي: "أين موسى الآن؟ عند صديقتي رنا الخبر اليقين"، فهاتفتها على الفور لأحصل منها على مكان إقامة موسى وعائلته في تلك الأيام، إنها بالتأكيد تمتلك الإجابة، كيف لا وهو زوج أختها الصغرى. اعتقدت بدوري أنهما عادا لدمشق حسبما وصلني من رنا قبل فترة لا أذكر مداها، أذكر أنهما انتقلا لدولتين خليجيتين على التوالي لفترةٍ تقارب العشرة أعوام وعادا للشام، وهذا ما ظننته.

إلاّ أنها صدمتني بقولها: "لا إنهما ليسا في الشام، لقد انتقل زوج أختي للعمل في تركيا في مستشفى أظن أن اسمه ميديكال بارك منذ قرابة الثمانية أشهر، وانتقلت معه عائلته أيضاً وسيعودون لدمشق حالما يتمّون السنة هناك إن شاء الله"، فسألتها بذهول عارم: "أهُم في مدينة إسطنبول؟"، أجابتني باستغراب: "نعم، هم هناك في مدينة إسطنبول والمستشفى كذلك! ألديك علم مسبق بالمستشفى التركي هذا؟ ثم.. ألن تخبريني بالأمر الذي يجول في خاطرك؟"، فقصصت عليها ما حدث معنا أنا ويحيى وصندوق أيوب الخشبي الأسود، فأبدت من الدهشة ما أصاب زوجها عصام أيضاً.

يحيى: قررنا (والدتي وأنا) أن أزور مدينة إسطنبول التركية. كان في مفاجأة والدي تلك الحافز الكافي لها لأن تسمح لي بالسفر أخيراً من بعد رفضها للعديد من محاولاتي السابقة، إلاّ أن موافقتها كانت

مشروطة بثلاثة شروط؛ أولها شرطها المعتاد لإجراء كافة أموري ألا وهو مرافقة أصدقائي لي، أيّهم استطاع إلى ذلك سبيلاً بشـــرط أن يكون عدد أفراد الفريق أربعة على الأقل.

أما شرطها الثاني فكان إتمامي قراءة المستندات الثلاثة وهذا مـــا حدث فعلاً، كنت سأقرأها بالطبع بشـــكل متعمـــق حـــتى دون أن تشترطه والدتي عليّ كشرط. وأما شرطها الثالث فكان عن إمكانية العمّ موسى لقائي في إسطنبول نظراً لما كان عليه من أعمال هنـــاك، وشرطها الأخير هذا كان الأسهل إذ رحّب بـــي العمّ أشد الترحيب عندما أعلمته برغبتي بزيارته.

كانت علاقتي مع العمّ في فترة جامعتي علاقة إلكترونية بحـــت، على عكس ما كانت معه أيام طفولتي ومدرستي إذ كانـــت هاتفيـــة وأحياناً كزيارات مفاجئة منه، إلاّ أنه كان عليّ أن أعلم مسبقاً بأنـــه كان في مدينة إسطنبول فلا يوجد مبرّر لأن أجهل أمراً عنه كمكان إقامته!

إلاّ أن التواصل معه كما مع الجميع كان صعباً عليّ في تلـــك السنة (سنة تخرجي). وستعوّض أيامنا القادمة كلّ ما فاتنا إن شـــاء الله، أعترف لكم بأنّي قد قصّرت بحق هذا العمّ في تلك الفترة ومـــا كان عليّ أن أقع في ذلك.

أما أصدقائي المقربون الموكل لهم أمر مرافقتي لتركيـــا فكـــانوا ثلاثة وأنا رابعهم، كان يقف الفريق على حد النصاب القانوني الذي حدّدته والدتي ولله الحمد. وهم جميعهم أصدقائي من مدرستي، أنس وأحمد وهما من عمري وحسان وهو بسنة واحدة أصغر منا، إلاّ أنـــه الأقرب لقلبـــي، والذي كان منه أن سبق أبناء جيله بعقله وقلبـــه،

وبدخوله معنا في نفس العام لأول مستويات المدرسة تخرجنا أربعتنا فيها معاً ومن بعدها تخرجنا معاً في الجامعة. تشاركنا الكثير الكثير، لم يجد أي منهم من المتاعب في إقناع أهله يستحق الذكر، فاتفقنا معاً واخترنا موعد الانطلاق وانطلقنا إلى تركيا.. إلى المدينة الساحرة إسطنبول.

يحيى ومقتطفات مما مضى من الحياة

يحيى: إنّ فكرة أن تولد بلا أب أو أم فكرة غير طبيعية بتاتاً، فإن كان أن حدثت معك (لا قدّر الله)، فستجد نفسك على باب مفترق طرق، فإما أن تتنزّه في طرق الحمد، وإما أن تسلك في جنبات طريق القنوط، وطريق القنوط واحدة وطرق الحمد أكثر وأثرى بركةً.

إحدى خياراتك خيار القنوط بسبب الحرمان، وبه ترفض كل ما منحه الله لك من النعم مقابل تقبّلك لنظرة المجتمع الدونية تجاهك، نظرة النقص والحاجة، وبها تمارس دور الضحية بامتياز منقطع النظير فتستهلّ القادم من مشوار حياتك بكافة أشكال التسهيلات المُتسَوّلة، نعم! فقبول نظرة الشفقة صورة من صور التسوّل، ففيها انكسار للنفس واستجداء رخيص لمشاعر الغير، وكن على ثقة بأنّ تسوّل المشاعر أشد إثارةً للاشمئزاز من تسوّل المادّة، أشد بكثير.

وخيارك الثاني؛ خيار استشعار عظمة الأب أو الأم (أيهما بقي لك)، إذ إن في فقدان الأب مدعاة للتفكر بعظمة الأم، وكذلك الأمر بالنسبة لفقدان الأم ففيه مدعاة للتفكر بعظمة الأب، ويا لهما من عظمتين! وفي هذا منحة عظيمة لم يستشعرها الكثيرون من أصحاب الابتلاء هذا.

تبعاً لظروفي المحيطة سعيت للتفوّق في شتى المجالات، من أجل أمي في المقام الأول، ولتفخر بي أمام والدي عندما تلتقيه يوماً ما، ولا سيما من أجلي ولكن بدرجةٍ أقل. فأوجدت نفسي في نطاق من التنافسية العالية لعلي أبلغ أسباب إسعادها أشد السعادة. ومع بذلي العارم في سبيل التفوق ومع تشجيع والدتي وبمرافقة توفيق الرحمن لي قبل كل شيء، وجدت التفوق حليفاً دائماً إلى جانبي، وبالطبع لا أحد يستطيع أن ينكر دور الجينات والظروف في ذلك أيضاً، إلاّ أنّ تفوقي هذا كشف لي عن أمرٍ جلل في نفسي.

إنني أعلم أنه لم يوجد من يمتلك التفوق المطلق، ولن يوجد هذا الكائن أبداً! فهذه من البديهيات في الحياة، فأمور الحياة متحوّلة واستعداداتنا لها متغيرة وميولنا مختلفة، وكما تعلمون إننا نحيا في ظروف متقلّبة، ومشيئة الله واقعة لا محالة، فأنا أريد وأنت تريد والله يفعل ما يريد. وكثيرون من يسعون للنجاح كما أسعى أنا إليه، ومن حق الجميع الوصول فالتنافس الشريف أمرٌ مباح بل ومرغوب. وهنا، في نجاح الغير بالتحديد اكتشفت بنفسي وقوعها في شرك خطير، ألا وهو شرك الغيرة!

كم كنت أحسب نفسي محباً للغير، نظراً لما كنت أشاركهم في أفراحهم بإنجازاتهم وأبادرهم المشاركة فيها وكأنها حلقة من سلسلة إنجازاتي وأفراحي، وكم كنت أحزن معهم أشدّ الحزن في أتراحهم لدرجة أنني أختتم مع آخر المشاركين فيها مشاركتي! لم يدر لي قط أن فرحتي هذه كانت تستظل بمظلة علوّ إنجازاتي على إنجازاتهم.

فوقيّة! كانت فرحتي معهم فرحة فوقيّة وكان حزني معهم حزناً فوقيًّا أيضاً، من دون أيّ إدراكٍ مسبق منّي! لا أبرر الآن لنفسي إلاّ

أنني أصف لكم حالها سابقاً بالضبط، ومع مرور الوقت ومع تكـــرّر حالات تجاوز أصدقائي لي بالإنجازات في بعـــض الأمـــور، بـــدأت أتساءل: لِمَ تنتابني الغيرة الشديدة عندما أتنبّه لتفوّق أحدٍ مـــا مـــن أصدقائي عليّ ولو كان أبسط تفوق؟ خصوصاً رغم كـــوني حقـــاً أحبهم أشدّ الحب وأتمنى لهم دائماً الخير المطلق؟ إنه أمر غريب إلاّ أنه حصل معي ويحصل مع غيري بكل تأكيد.

"يا بنيّ إن فكرة كونك على دراية تامة بنقطة ضـــعفك تعـــدّ الخطوة الأولى والأهم في سبيل خلاصك منها"، هذا ما قاله لي العـــمّ عصام (صديق والدي العزيز)، كما أذكر عندما شاركته شـــعوري بشأن غيرتي تلك، كما أنه شدد عليّ بخصـــوص فكـــرة أنّ علـــى الإنسان السويّ التخلص من صفاته السلبية فور علمه بها، بأسرع ما يستطيع إليه من سبيل، وقال لي أيضاً: "يا صغيري إيـــاك أن تكـــون كالجار المقرّب الذي قالت عنه *مستغانمي* في كتابها: *جـــارك الـــذي لعبت وتربيت معه منذ الطفولة، لو غرقت لجازف بحياته لإنقاذك من الغرق. لكنك لو نجحت في البكالوريا ورسب فيها، وســـتذهب إلى الجامعة ويبقى هو مستنداً إلى حائط الإخفاق. ذات يوم ستخرج من مسدسه الرصاصة سترديك قتيلاً مكفلاً بنجاحاتك*".

كثيراً ما كنت أشارك العمّ عصام نفسي أفكارهـــا وأســـرارها وكل ما تعلق ويتعلق بها. آه لو تدرون كم أتلذذ بالنظر إلى عينيـــه، العينين ذاتهما اللتين نظر إليهما أبـــي لفترات جميلة وطويلة من الزمن أثناء صباهما! وكم أطرب لسماع صوته، الصوت الذي أحبه أبـــي وداوم على سماعه حين شبابه! وكم أحب أن أرى بسمته التي خلـــق له والدي الكثير منها، وأن أسمع قهقهته التي أنتج له العديد منها.

وكم أعشق ويدي مصافحة يده، مصافحة اليد التي قَبَضَت بدورها مُصافحةً آلاف المرات على يد أبي التي أفتقد حرارتها افتقاداً جماً، والتي ضاع مني ملمسها ومعرفة مدى الشدّة في سلامها، والتي عُدِمتُ رؤية أسلوب تراقصها على اللوحات وكيفية تمايلاتها على أسطر الورق، كم أفتقدها؟! تلك اليد التي ضلّ عني أسلوبها في مسح دموع والدتي على خدّيها اللذين لم تجد من بعده من يجيد المسح عليهما!

كم يشدّ العمّ على يديّ حين مصافحتي؟! وكيف يربّت مرة واحدة على جانب كتفي اليمنى من بعد كل مصافحة منه ويخاطبني في كل مرة بقوله: "هكذا كان السلام مع أبيك، لا يزال سلامي وأصدقاءنا كسلامه رحمه الله".

أما أمي فعبّرت لي عن رأيها الخاص بشأن المصاب الواقع في نفسي بقولها: "يا صغيري إن النّديّة في حياة الإنسان متطلب أساسي ومهمّ من متطلبات بلورة الأخوّة كما هي أساسية للتمكّن من النجاح والتفوّق، وأنا مؤمنة بما قاله *هنري ميلر* في كتابه *كابوس مكيف الهواء* إذ قال: *لا يمكن للرجال أن يكونوا إخوة ما لم يصبحوا أولاً أنداداً، أي متساوين بالمعنى الفخم للكلمة*، فبالنّدية يا بنيّ تحشد من حولك خيَر الأصدقاء وأرقاهم طموحاً وأمثلهم بذلاً في السعي، فلا يصمد بجانب الرجل الحق ذوو الأنفس اللاندّية، سيتساقطون غيرةً منك، وحقداً على أنفسهم، وجحوداً بالله".

وأضافت قائلةً: "فأمثل الأخوة تتمثل في الأخوّة ما بين جبابرة النفوس، والنفوس الجبارة هي تلك التي خُلقت لتنتصر لنفسها دون تكبّر والتي تساند غيرها دون أن تتبعه بالمنّ ولا الأذى، فأخوّة هؤلاء

كأخوّة الجبال المتمثلة بالسلاسل الجبلية التي تصمد بوجه الزمان لقرون وقرون من الزمن، يا صغيري إنّ في غيرتك جانباً إيجابياً جداً يدعوك للبذل والعطاء حال تمكّنك من كبح جماحها، وإن لم تتمكّن من ذلك فستتجلى على شخصيتك الكثير من المشاعر السلبية المنفّرة، فاسعَ للتخلص منها قدر إمكانك". كما أنها رمت لي أيضاً بأنه من المحتمل أنني أخطأت بفهم نفسي منذ البداية فأنا وعلى حسب ما كَمن فيها من حال قد لا أكون من النوع المحبّ للغير على الدوام (على الأقل حينها وليس الآن)، وما كان منها إلا أن أخرجت من أوراقها الثمينة العزيزة على نفسها ورقةً قديمة نوعاً ما وقرأت لي منها:

"إنه من الخطأ أن يقوم المرء بالحكم على نفسه بصفة ما بشكل مطلق، فلا وجود للشكل المطلق على الإطلاق نظراً لاختلاف زمان الوصف والنسبية القائمة بين قناعات البشر وظروف الموصوف ونظرة واصفه وإيديولوجية تفكيره، وإن كان يملك خياراً آخر أم لا، وعلى وصف الإنسان الارتباط بالزمن سواء أكان الزمن ماضياً أو حاضراً، ولا يوجد من يمكنه الحكم على الصفات في المستقبل سوى الله، فالغد مجهول ومجهولة حالة الروح التي ستقبع فيه.

وعلى سبيل المثال ترى الكرم والشجاعة والصدق وحتى التديّن صفات نسبية وكذلك كل الصفات، فالكرم عند قومٍ إسراف! وعند آخرين مثال للإقتار! والشجاعة تتفاوت من وصفه بالجبن عند البعض إلى حدّ التهور والجنون عند البعض الآخر! والشهادةُ الحقّ المرجوة من قبل الآخرين نوع من أنواع الصدق إلاّ أن تقديمها ذاتها بدون أيّ رجاء أمر أجلّ صدقاً.

أما بالنسبة للظروف، فالكريم مثلاً غير قادر على البتّ في أمر وجود الكرم في نفسه من عدمه بسهولة، فالكريم من يبذل بقلبه وعقله وواقع معيشته دون الندم على ما يبذله ودون القلق على ما سيجرّه عليه بذله، سواء أكان يملك الكثير أم لا.

وليس الشجاع من يقطع الوعود ويمضي المواثيق والعهود بالتضحية بالروح في سبيلٍ ما من خلف الأسوار أو القصور أو الجيوش أو حتى من خلف الدروع وحسب، بل هو من يقدر على أن يقف منتصباً وحيداً بسلاحٍ أو حتى بمجرد لسان، فينطق سيفه بالشجاعة أو يضرب بلسانه أعناق الأعداء والمنافقين والجبناء.

وكذلك الصادق، فليس الصادق من يقول الحقائق العابرة كما تتحقّق وحسب، بل الصادق من ينطق بالحقّ كما هو لكل من كان، لا يردعه خوفه ولا يحاول صدّه ما ينتابه من القلق. وكذلك التديّن، فعلى المتديّن أن يبقى على حاله في كل زمان ومكان، وأن يتابع رغم صروف الدهر كما يستمرّ على طبيعته في ظروف اللين.

لن يذوق طعم الكرم إلاّ من امتحنت جيبه بالفراغ، ولا الشجاعة إلاّ من اضطر يوماً ما وحيداً للقتال، ولا الصدق إلاّ من أيقن أنه سيواجه خطراً من مغبّة عدم قدرته على الكذب، ولا التدين إلاّ من صدّق بالعمل على إيمانه بالله في كل الأماكن والأحوال والأزمان".

وكان هذا نقلاً عن جدها عوني رحمه الله كما أخبرتني ذاك اليوم. لم أكن أعلم من قبل ذاك اليوم بأنّ لدى جدها بعضاً من الكتابات، ولم أكن أعلم بأنّ والدتي من النوع الذي يحتفظ بالذكريات إلى هذه الدرجة، درجة التقديس!

حينها، عندما وجدني العمّ عصام وكيف أنّ نفسي بدأت تدشّن طريقها صوب الانحراف نحو سفاسف الأمور (والنظرُ للآخرين من أسوء درجات الأمور المُسفّة)، عرض عليّ مرافقته لممارسة رياضة السباحة والتي يعدّها هوايته الأولى أو بالأحرى الوحيدة، أذكر أنه قال لي: "يا بنيّ على المرء الارتقاء بنفسه، وأولى درجات الارتقاء بالنفس تكمن في استثمار الوقت أمثل استثمار، فإن لم يكن الوقت لك فهو قطعاً عليك، وإن النفس تفقد وساوسها السيّئة حالما يفقد المرء أوقات فراغه. وعليك أن تختار بنفسك ما تنفق وقتك عليه. أما أنا فلن أتمكن من عرض أيّ أمر عليك سوى السباحة، فعليها أصرف القليل مما يبقى لي من وقتي".

رفضتها مباشرةً رغم عدم خوضي تجربة السباحة من قبل، بثانية رفضتها! فأبدى العم استغراباً شديداً أخجلني به، خصوصاً لكونه يعلم مسبقاً بأنني لم أذق طعمها من قبل قط، فخاطبني متسائلاً: "يا للغرابة! كيف للمرء أن يبتّ بالرفض بشكل قاطع بكامل الحزم؟ وبالمقابل أن يكون القبول لديه مدعاةً للتفكير والتردد؟". وتابع متسائلاً: "أكان منك أن جربتها من قبل؟"، قلت: "لا"، فقال: "دعني أخبرك أمراً عن والدك يا بنيّ، دائماً ما كان يسعى والدك في شتى الدروب ليستصلح لنفسه الأفضل منها، لذاته ولك أنت، نعم لك أنت! ورغم تأخر قدومك لم يفقد الأمل به قط، كان موقناً في قرارة نفسه بأن أمر قدومك أمر حتميّ، لذا احترف السباحة والرماية ومن ثم ركوب الخيل امتثالاً لأمر محمد صلى الله عليه وسلم وتمهيداً لإسقائك من احترافه لها، لم يرفض أبداً اقتراحاً دون تجربة، كان الأكثر جرأةً في ما بيننا على الدوام".

كانت تجري أحداث حوارنا هذا في حديقة منزلنا الأمامية، وعند خروجنا لنتنزه في الطريق العام تابع متسائلاً: "لِمَ رفضتها يا يحيى؟"، سكتّ حيناً من الزمن خجلاً من أن اعترف له بالسبب، صدقاً إن كان الاعتراف بالذنب فضيلة فالاعتراف بالحاجز النفسي فضيلة أشد عظمة، إذ فيه أمّهات الفضائل الأربع؛ الحكمة والعفّة والشجاعة والعدل، ففي الاعتراف هذا تفكّر بمدى سوء وجود الحاجز، وامتناعٌ وكفٌ عن حرمان ما لا يحلّ لنا أن نحرم أنفسنا منه من المباح (قولاً أو فعلاً)، وفيه تطلّع بعين الإصرار على اختراقه واجتياز كبرى العقبات فيه لتخطيها، وفيه أيضاً إنصاف للنفس للتمتع بحياة طبيعية بلا أي حرمان ذاتي غير مبرر.

أجبته بثقة حمقاء: "إنني أخشى الماء!". كان في اعترافي المباشر ذاك رسالة مبطنة مضمونها الموافقة على ما في حديث العمّ من مضمون وقبول خجول على مرافقته في دربه، لذا وجدت العمّ يمر بي في اليوم التالي ويصطحبني معه.

أذكر يومها أنّ العمّ ركن مركبته في ساحة النادي الرياضي الخلفيّة ونزلنا منها، سرنا نحو باب النادي الرئيسي وكنت أسير بجانبه جهة يساره، وقبل دخولنا لأرضية النادي وعلى قبالة بابه بالضبط أمسك كتفي اليمنى براحة يده وقال لي وهو ينظر إليّ بعين فيها من الريبة: "يا بنيّ أدعوك أن تسعى لاحترافها، فالوقت مهدورٌ من بين أيدينا شئنا أم أبينا، سواء أمارسنا فيه عملاً ما أم لم نمارس، فاستثمر الزمن واضمر العزم على ذلك، ولا تنسَ نصيب عملك هذا من النيّة الصالحة، ألا إنّ النية كفيلة بجعل استثمارك الدنيويّ استثماراً للآخرة إن صلحت".

عندما قررت الالتحاق بالعمّ والسباحة انتابتني حالة ما بين التوتر والتردد، فأنا لا أحب إقحام نفسي في أمر ما من المحتمل أن يقودني لحالة فشل، فأنا لا أعلم إن كنت موهوباً فيها أم لا! وعندما سألت العم عصام عن حاجة السباحة للموهبة أجابني: "السباحة شكل من أشكال الفنون، وجزء كبير منها يُتلقى ويمارس، وكما قال *زوسكيند* في روايته الشهيرة *العطر*: *في كل فن وفي كل حرفة الموهبة لا تساوي شيئاً، المهم في المقام الأول هو الخبرة المكتسبة عبر التواضع والجهد*".

ثم أضاف: "يا صديقي إنه صحيح أن الموهبة هي الاستعداد الفطري لدى المرء للبراعة في فن أو نحوه، إلاّ أنّ الاستعداد الفطري بحاجة بشكل أو بآخر للتجربة والممارسة في المقام الأول، وعلى تجربتك أن تستظلّ بمظلّة الصبر، ألا إنّ أعظم المواهب التي شهدها التاريخ على الإطلاق هي موهبة الإرادة، فهي معبرنا الوحيد نحو تحقيق أهدافنا مهما صغرت أو كبرت".

كما أن العمّ نصحني بمرافقة المدرب والصبر على أوامره، وليس هذا لعدم رغبته في تعليمي، إطلاقاً، بل ليجعلني أبلغ الأصل في ما أبتغي تعلمه، فالمدرب بالطبع يمتلك من العلم أحدث ما فيه، والتقنية أنجع ما فيها بطبيعة حكم عمله، "إن أردت الاستقاء من نهر ما فعليك بمنبعه"، هذا ما قاله لي العم حينها.

حصّلت من تجربتي مع العمّ عصام الكثير، إذ وجدت في الغوص في الماء سكوناً عميقاً آمناً غير مربك، فيه ثقة مطلقة بالله تدعوك لتختلي بنفسك عن الجميع، ووهبتني السباحة أيضاً قدرة عظيمة على التحكم بانفعالاتي وكظم غيظي والصبر على شتى الأمور في شتى الظروف.

فداء ومقتطفات مما مضى من الحياة

فداء: لم يكن وفاقي مع أيوب بل خلافي معه، أجمل ما أُثير في زوبعة اختيارنا لاسم مولودنا الوحيد، كان منا أن بدأنا جولات مناكفاتنا بهذا الشأن منذ أوائل أيام خطوبتنا، فكالعادة وما بين كل الثنائيات المتحدة شرعياً (وحدها هذه الثنائيات من تفكر في وجود الأطفال)، يكون ملف تحديد اسم الطفل الأول من أهم الملفات المطروحة على طاولة مفاوضاتهم، وكما اتفقنا منذ البداية أسميت صغيري الوسيم يحيى، نعم إنني بالطبع أراه وسيماً وبنظري دائماً ما سيبقى صغيراً.

بالنسبة لي كنت من قبل ولا أزال، أرى في انتقاء اسم المولود الأول حقاً رجولياً بحتاً بالرغم من كل ما يلم بجسد المرأة من تلف نوعي، وبالرغم من كل ما يجري لها من تغيير لمسار فكرها وانقلاب لأسلوب حياتها، فالرجال يمتلكون نظرة مختلفة عنا نحن معشر النساء، فنحن وسأسمح لنفسي بالتكلم عنكنّ أيتها النساء نعشق مضمون حالة الأمومة ونترقبها أكثر بكثير من الرجال الذين دائماً ما نراهم لا يهتمون بشيء سوى بقشور حياة المرأة، وكما تعلمون يعدّ الطفل عمود سنام حياتها، فتروهم كيف لا يأبهون للفكرة بالشكل الكافي، وتروهم فضوليين تجاه معرفة أجناس مواليدهم وحسب (وجنس

المولود من قشور الحدث بالنسبة لكلّيته)، ليتمكنوا من تثبيت كنياتهم أمام الملأ، وبتثبيتهم هذا ينتشون بفرض كنياتهم الخاصة على أرض الواقع.

إنهم يسعون لبعث أجمل ما في مخيّلاتهم ليقام حقيقةً في الواقع، فكم من مرة كنّى فيها الرجلَ محبّوه بكنيته التي سبق واختارها منذ زمن كأسلوب تحبّب؟ ألا ترون كم يفضي الرجال من ذكرياتهم التي تختزن كنياتهم المُتأملة؟ إنهم يفضون بها إلى الجميع، إلى آبائهم وزوجاتهم وأصدقائهم، وإلى أنفسهم قبل كل هؤلاء!

وبالإضافة لذلك تجدهم يستعيدون خيالات طفولتهم كلّها التي رسموها كرجال ومعهم أطفالٌ لهم؛ من باب التشبه بآبائهم أحياناً ومن باب التحسّر أحياناً أكثر.

إن الأبوّة بالنسبة لجلّ الرجال هي تحصيل حاصل من معادلة الزواج، وبهذا التحصيل يستدعون عقولهم لإجراء بعض الحسابات المادّية لا أكثر، كما أنكم قد ترون البعض من الرجال الذين يفضّلون قدوم مولودهم على عجل من باب التباهي! وقد يحبّذ البعض تأخيره لزيادة نصيبهم من المتع مع شريكات حيواتهم. فلا وجود لمبدأ ثابت ليحوي فكرهم بهذا الخصوص بتاتاً، وهذا رأيي وأنا على أشدّ القناعة به.

أما المرأة فترى الأمومة حالة عظيمة تماماً كما ترون أنتم عظمة الخلق، يتزلزل كيان المرأة التي تتيقن من حملها، يرتجف جسدها كما ترتعش يداها، تبكي ضاحكةً وتقهقه باكية، أقسم بالله إنها اللحظة العظمى في حياة كل من باتت حبلى.

أليست فكرة تكوين جسدٍ داخل جسدٍ فكرةً عظيمة؟ فكيف هي إذاً فكرة نفخ الروح داخل الأحشاء؟ إنني أجزم لو علمت أيّ

حبلى بتفاصيل ما يجري داخل جسدها من أحداث مادّية أو غيبيـــة لأصابها الجنون!

وما أشبه عبور شهور الحمل التسعة بعبور سيق البتراء، وســيق البتراء لمن لا يعرفه هو عن شقّ صخري يتمايل بطول ألــف ومــئتي متر، بارتفاع يصل إلى الثمانين، ولكم أن تتخيلوا ذلك! صــدقاً إنّ شعور المرتحلة في رحلة الحمل مشابه تماماً لشعور مرتحل السيق هذا، إنه معبرٌ هائل مدهش، فيه من الترقب ما فيه من الرهبة، ورغم الثقة الكبيرة الموجودة بالخالق لعبوره تجدون التوتر قابعاً للحبــالى علــى جوانبه، هو معبر ضيّقْ رغم ما فيه من تباشير للحياة، بدايتــه قلــق وخوف ونهايته دهشة وفرج وسعادة بإذن الله. آه كم هــي جريئــة تلك الحبلى التي تمضي بملء إرادتها نحو مصيرها لتضع مولودها! كــم هو مقدار جسارتها لكي توضّب أمتعتها التي قد تلزمها لمدة تتــراوح ما بين ساعة أو ساعتين، يوم أو يومين أو أكثر لتبيت خارج بيتــها، وأحياناً تكون وحيدة!

كل النساء يعتقدن بكونهنّ أميرات في محيطهنّ، إلاّ أنّ الأمهات يؤمنّ بأنهنّ أضحين ملكات رغم ما في الأمومة من عبودية أبدية تجاه مواليدهنّ، فالأمومة شعور ما يشبه التقلّد المحسوس (كاحتضان الطفل مثلاً) لقيمة غير قابلة للاستشعار الملموس، هي أن تبيــت إحــداهنّ وحيدة يوماً ما ثم تجد نفسها قابعةً داخل جسدها لتراقــب جســداً آخر، ثم تبيت خارج نفسها راقدة لحماية ذات الآخر.

أيها الرجال إنّ الأمومة ليست مجرد مسألة حمل ووضع، هــي ذاك الشعور الذي يدفع بالأم من نومها مجبرةً لتتفقّد طفلــها، هــي استيقاظها من بعد نوم قصير تمهيداً لاستيقاظه إن لم يكن شوقاً إليه،

هي مرضها بعد شفاء طفلها من شدّة خوفها عليه، الأمومة هـــي أن يهوي القلب بين الفينة والأخرى لسقوط من يجري، لســـماع مـــن يستجدي، لجوع من لم يعجبه صنف الطعام، أو خوفاً ممـــن قـــد لا يكفيه غطاؤه في فصل الشتاء. الأمومة كالدراسات العليا، تلتحق فيها الأنثى طوعاً (عادةً) لتبرز من خلالها كل إمكانياتها حتى تصل للدفينة منها، فيها تعويض لخلق حالة نجاح، أو لتوفير إمكانية لحالة تفـــوّق أفضل مما توفر لها قبل أن تبيت كأم.

كثيراً ما كنت أتفاءل حينما تمطر السماء وكذلك الأمر عندما يحين موعد طور البدر، وحتى عند حلول الأحلام التي كنت أترقبـــها أثناء شهور حملي التسعة، كنت أشعر بأنّ الله ييسّر لي من الكـــون آيات للتفاؤل. كثيراً ما تساءلت أهو ذكرٌ أم أنثى؟

تبعاً لحدسي وتبعاً لأحلام جدّته ونبوّات جده خمّنّا أنه مولـــودٌ ذكر، أما عن رغبتي الشخصية فلم تتعدّ كونه بأتمّ صحة وعلى أكمل وجوه العافية، قد قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُـــلِّ شَـــيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 82-83].

وبمناسبة ذكري لاسم سورة ياسين، سأخبركم بسرٍ صغير: لو كتب لي طفل آخر من أيوب لأسميته ياسيناً تيمّناً بالقائد الشهيد *أحمد ياسين*.

كثيراً ما تساءلت عن كيفية تقبلي للقبـــي الجديد "أم"، أنا أمّ! كيف أنه سيحصل بلا أي مجهود على صفة "ابن"؟ ومني سيحصـــل مجاناً على وصف "البكر"، ومن الظروف على لقب "الوحيد"؟ لحظة! ألا يبذل المولود من الألم ما فيه كفاية حين خروجه من جسد أمه؟

ولد يحيى بجينات عادلة فانحازت بالتساوي لكلينا (أيوب وأنا)، فكان طيباً مثلي (نعم أحب مديح نفسي!)، متفائلاً مثله، طويلاً ككلينا (بالطبع أنا أُعدّ طويلة)، أبيض بعينين واسعتين وأنف صغير مثلي، وكريماً هادئاً طموحاً مثله، وكان على حياد مع الألوان فلم يكره منها لوناً بحدّ عينه، وكان يحب كلاً من الياسمين وشقائق النعمان.

إلاّ أنه خالفنا كلينا؛ فلم يأخذ مني القوسية ولا من والده الجوزائية، كان على موعد مع الأسدية، وهو كسائر الأسود يولد مع عقدة ثابتة، عقدة الخوف من الفشل، بالطبع إنها تعدّ عقدة، خصوصاً عندما تدنو ممن يمتلكون أرواحاً أبيّة لا تمسّ أبداً بسوء، يسعون للإبداع والتألق ويكرهون التجاهل، وبالرغم من عنادهم دافئون.

كم أمنّي نفسي لو أنني أتمكن من وصف مشاعري لكم حينما رأيت وليدي للمرة الأولى! إن كانت النظرة عن طريق الأجهزة الطبيّة على النقطة التي تكوّن الجنين في الأسابيع الأولى من تكوينه ثمينة، فكيف تكون النظرة الأولى على وجه الطفل وجسده حين ولادته؟ "ألا إنها نظرة قدرية لا تتسع لشعور، ففيها يتبدد كل مجهول وتتجسد من خلالها كل الخيالات وتنسحب رغم أنفها كل الوساوس والمخاوف والشكوك"، على حسب ما كان يقوله زوجي أيوب بحسب اعتقاده.

تُحَرّر تلك النظرة شيكاً معنوياً يصرف لحاملته فقط (حاملة الجنين لفترة تسعة أشهر) مفادها أنه قد تم تعبئة رصيدكِ القلبيّ بمبالغ طائلةٍ من الحب، فتكونين من خلاله على مقدرة عظيمة لبذل الحب والعطاء بسخاء على الوجود بأكمله.

حملته في رحمي وكذلك في قلبـــي وعقلي وارتبطت به روحي، كان أول ما بدر مني تجاهه عند رؤيتي له بعد بكائي حملي لـــه بـــين بذراعيّ. ألا إنّ قلبـــي تهيّج كالنار، ودمعي تابع مسيره كالشـــلال، وذراعيّ رغم ثباتهما كانتا على الدوام بحالٍ من الاهتزاز.

ورغم أنني وافقت رغبة أيوب بالاسمِ المتفق عليه منذ البدايـــة، أخبرته بأنه يضطهد تعبـــي وإنهاك جسدي. إنني موقنة بأنه كان يعلم بأنّ رغبتي هي ذاتها رغبته ولكنه بالتأكيد لم يكن يعلم بأنني كنـــت أنتظر منه إسرافه في مراضاتي، أحببت مراضاته.

إذاً أسميناه يحيى، بالنسبة لأيوب كان اختياره للاسم هذا لإعجابـــه الشديد بالشهيد المهندس يحيى *عياش*. ذاك البطل القسّـــامي أســـطورة الجهاد والاستشهاد، الرجل ذو الألف وجه كما كان يقول عنه العـــدو الصهيوني الحاقد، كان دائماً ما ينقل عن لسان بطله وبطـــل فلســـطين وبطلنا جميعاً قوله: *بإمكان اليهود اقتلاع جسدي من فلسطين، غير أنني أريد أن أزرع في الشعب شيئًا لا يستطيعون اقتلاعه.*

من فرط تأثر أيوب به يسعى بكل جهده عن طريـــق محاولاتـــه وتجاربه المتوفرة له في الإخراج والرسم ومحاولات الكتابة المحدودة إيصال فكرة ولو كانت صغيرة عن قضية شـــعبه خاصّـــة، وقضـــايا العـــرب والمسلمين عامّة.

دائماً ما تغنى أيوب بشعر الشهيد *عبد العزيز الرنتيسي* في المهندس إذ قال:

عياش حيٌّ لا تقل عياش مات ... وهل يجف النيل أو نهر الفرات
عياش شمسٌ والشموس قليلـــة ... بشروقها تهدي الحياة إلى الحياةْ
عياش يحيا في القلوب مجـــدداً ... فيها دماء الثأر تعصف بالطغاةْ

أما بالنسبة لي ففضلت اسم يحيى لأنه انتقاه الله سبحانه وتعالى، كما أن الله منح عطاءه هذا من بعد حرمانٍ طويل لأبويه، ذاك الذي بلغ من الكبر عتياً عليه السلام، وتلك المرأة العاقر الصابرة.

كم أشتاق لأيوب! لا أدري لِمَ يطول الوقت في مجابهة الشوق! كنت أظن أن حرارة الشوق كحرارة النار تخبو مع البعد، إلاّ أنني وجدتها معه على العكس تماماً إذ تتعاظم مع تعاظم تباعد العشّاق، ونار العشق لا تموت أبداً بل قد تقتل أحياناً كثيرة من شدّتها، كيف للشوق أن يستنفد النَفَس تنهيدةً تنهيدةً، ينهك الجسد جيئةً ورواحاً، يقضّ مضاجع النوم ويؤرق العقل ويبتلي القلب!

لطالما افترى العشاق الحجج لمباغتة معشوقيهم ومحاربة غيابهم وإفساد خلواتهم عليهم، لطالما ابتكروا من الأسئلة لينهلوا منهم الأجوبة، لطالما تقصّوا الحقائق عنهم واستقرؤا لهم مستقبلهم، لطالما أعدوا لهم الأطعمة لعلهم بتزويدهم بها يجدون فرصة للقياهم، لطالما أحدثوا المبررات لمهاتفتهم وسماع أصواتهم، لطالما افتروا أحداثاً ونظروا بأنها تستحق عليهم بذل الهدايا لهم لإسعادهم، لطالما تعمدوا المرور في بساتينهم والتقاطع مع طرق بيوتهم، لطالما صفّوا عرباتهم بجانب عرباتهم، لطالما غزت عيونهم مرائب سياراتهم وأبواب منازلهم وصولاً لأجراسها، لطالما ناظروا نوافذ غرفهم وأضواءها من خلف الشجيرات تارة ومن خلف الستائر تارة أخرى.

أما في حالتي؛ حالة وجود المعشوق تحت الثرى، فحكم على أسئلتي بأن تبقى معلقةً بلا أجوبة، فكل حواراتي معه متوحّدة ووحيدة، كم دخلت خزانة ثيابه وكم نمت فيها؟ كم من مرة أشتمّ فيها زجاجات عطره في اليوم الواحد؟ حتى الفارغة منها! كم من

مرة أعاود فيها ترتيب كتبه؟ كم كنت أسعد بالإمساك بقلمه الـــذي أحب الكتابة به! وكم من مرة تصنعت فيها الرسم بفراشـــي رسمـــه على لوحاتٍ نسيجها الهواء؟ كم فتحت صندوق ذكرياتـــه وكـــم بكيت فوق محتوياته أيضاً!

أطهو له عن طريق إطعامي لابنه، وأحيا من أجله عـــن طريـــق إحقاق حلمه بصغيره. لا جرم أنْ أجمل ما في الدنيا نهايتها بـــالآخرة، فبمجرد دخولنا الدنيا لن نفنى فنحن خلقنا للأبـــد، ســـتعود لي يـــا معشوقي فمصيرك إليّ مهما طال الزمن.

أذكر أني قرأت في كتاب *علم نفس قرآني جديد* ما أعـــني أن أقوله لكم بصيغة أجمل من صيغتي إذ قال فيه كاتبه: *إذا كان الله قـــد منحنا الحياة فهو لا يمكن أن يسلبها بالموت، فلا يمكـــن أن يكـــون الموت سالباً للحياة وإنما هو انتقال بها إلى حياة أخرى بعد المـــوت ثم حياة أخرى بعد البعث ثم عروج في السماوات إلى ما لانهاية.*

كم أفتقدك يا أيوب، آه لو تستشعرون كم أنني أفتقده، أفتقـــد لمساته وهمساته، وأفتقد صوته ونظراته ودبيب قدميه، أفتقد قرقعـــة مفاتيحه وقبضته على مقبض بابـــي وبابه.

إن أعظم الفقد فقد الشريك؛ وأقصد بالفقد هنا الموت بالذات وليس ما دونه من معانٍ محتملةٍ له، وليس في هذا انتقـــاص لفقـــدان الوالدين أو الأبناء إطلاقاً، إلاّ أنّ فقده يعدّ الأعظم لأنـــه الأقـــرب جسدياً وفكرياً، جسدياً لرتبة الالتصاق، وفكرياً لمقـــام الانـــدماج، فكيف للجسد الذي استلقى واسترخى ونعس وغفا ورقد ونام بجانبنا أياماً وشهوراً وسنينَ أن يوارى تحت الثرى؟ هكذا! أن يكفن ببضعة أمتار من قماش أبيض رخيص! أن يحمل فوق الأكتاف كالشهيد! أن

يسجى أمام المصلين! كانت المرة الأولى التي دخل فيها أيوب المسجد ولم يصلِّ! وكانت الأخيرة بالطبع.

كيف للّسان الذي نطق بأسمائنا نحن المعشوقين وأنبأنا بمكانتنا وباح بحبنا وتحدث بمناقبنا وصرّح بحصريتنا في محيطه، ونبس لنا بسرّه أن يتصلب بمكانه بلا أيّ حراك؟ كيف للعينين اللتين بكتا علينا وعبستا معنا وتبسمتا وإيانا وضحكتا لنا واختفتا ذات مرة خجلاً أمامنا وجحظتا مرة أخرى غاضبةً خوفاً علينا أن يرمش التراب كجفنين لهما كمرّة أخيرة؟ كيف؟!

أحببت أيوب، نعم أحببته، ولا أدري من هو؟ ما هو! أهو ملاك سكن بجسد طيني جميل؟ أم إنسان تخلق بأخلاق ملاك كريم؟ أهو كلماتٌ حيكت كبرهان على الكمال؟ أم نسماتٌ تطايرت كإثباتٍ لوجود ما يفوق الخيال؟

إنه مشكاةٌ للجمال الكامل ومشكاةٌ للكمال الجميل، تالله قد جُمع فيه من صفات الجمال موحداً للكمال، كما جمعت الصفائح الأرضية جمال ما فيها من الجنان.

أشرق قلبي بنور حبه إشراق الشمس على الكون الفسيح، فانتفض مني كل حب انتفاضة الروح العاشقة صوب العشيق. لا أدري ما هذا الحب! ما هذا العشق! ما هذا الهوى! ما هذا الشوق! ما هذا الغرام! لا جرم أنها أوجهٌ لعملة واحدة.. عملة اختراق القلب.

ما عساني أن أقول إلاّ ما قاله تعالى في كتابه: ﴿... وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ...﴾ [البقرة: 216]، عسى أن يكون خيراً لي، عسى.

دعوني أشارككم ما كتبه جدي عن النسيان، النسيان الذي لا أجد له سبيلاً ولا أظنه سيزورني ولو حتى بعد زمن طويل، كتب جدي عنه قائلاً:

"للنسيان مواسم، ومواسم النسيان للقلب كمواسم الخريف للشجر، إذ يحدث أن يتهاوى أحدهم أو إحداهن أثناءه من جنبات قلبك كما تتساقط إحدى الأوراق عن أحد فروع شجرك في حديقتك.

وعلى مواسم النسيان أن تأتي إليك، فإن لم تأتك طوعاً استدعها أنت بقوة وألحّ عليها بالإسراع بالقدوم، استدعها إن سقط أحدهم من قلبك، إن استنفد قوتَه من حياتك فحرمته الحب وأنكرت عليه ما كان منه من العشرة معك، فأسقطته بلا رحمة منك ليرتحل من قلبك مظلوماً و"ويلٌ للظالمين"!

استدعها إن هاجَمَتْ أحدهم عاصفةٌ بشرية حاقدة فاختلعته وجذوره تاركةً أرضية قلبك وكأنّ محراثاً سادياً مرّ عليها فداسها وهو يلعنها، وأسقَطَت جثمانه على مقربة منك فبات سماداً من أجلك ليمدك ويغذيك بالألم.

استدعيها إن كان من أحدهم أن وجد دماءً جديدةً وتطفل عليها "وعادةً ما يجدون الجديد ألذ!" فارتحل حاملاً معه ما سرقه من ماضيكِ، ليبادله بحاضر آخر تاركاً في مكانه صنماً يعبّر لكِ عنه كذكرى للشجن".

رحمك الله يا جدي، كان الخطأ منا في الأولى وفي الأخيرة كان منهم، وفي الوسطى كان من الآخرين ونحن كلانا براء منهم. رغم شمولية الحالات الثلاث لم تشمل ثلاثتها حالتي التي عليّ أن أستدعي

من أجلها النسيان! حالة الرحيل بسبب الموت، أتراك نسيت أن تذكرها أم أنّ استدعاء النسيان لأجلها استدعاء محرم؟ أو لعله مرفوض أو ممنوع أو غير مجدي؟

كي لا أنسى ولكي لا يُنسى أيوب، كان مني أن حرصت أشد الحرص على أن يكون يحيى على دراية تامة بكل ما في شخصية والده من تفاصيل، وبهذا الوضع سعيت لأن أشعره بأنه لم يفت كل الأشياء الجميلة المتعلقة بوالده، بل أشعره بأنه يحظى بالقليل منها على الأقل، والقليل هذا بالنسبة له جدّ ثمين فهو كل ما يملكه عنه.

كنت موقنة بأنّ عليه أن يعلم كم بذل والده في التفكير في أساليب التربية الحديثة والقديمة، وكم بحث عنها وسعى إليها ودوّنها وكم عمل على استخلاص عصارة كل ما وقعت عليه عيناه منها، وعليه أن يعلم كم دعونا الله تعالى كلانا أن يرزقنا الطفل الصالح المعمر المخلص! وأننا لطالما تأملنا السماء أثناء دعائنا، وأننا طوال فترة زواجنا كنا على هذه الحال، إذ لم يستطع اليأس أن ينل من أملنا قط، طوال السنوات السبع! نعم عليه أن يعلم.

كم كنت أتساءل وحيدةً: أن يا ترى لِمَ كنا نتأمل السماء أثناء الدعاء؟ أتكون الجبال حدوداً تمنع دعواتنا نحن العباد من الوصول للسماء؟ أم أنّ الأشجار القابعة على الأرض قادرة على حجب منافذ السؤال المنطلق صوب الإله؟ لعلّ جواب تساؤلي يكمن بأنّ الفطرة التي خلقنا عليها تثق أكثر بالسماء كي تحمل في فضاءاتها الدعاء لله.

كم عرضت على صغيري الأفلام القصيرة التي أخرجها والده وكم سردت له من قصص لوحاته التي صوّرها بريشته، وكم قرأت له من المقتطفات التي حررها بحروفه، كم أتلذذ بسرد قصصي عن

أيوب على وحيدي (لا أزال أفعل ذلك حتى الآن)، ولكم أن تتخيلوا كيف أنه ما فتئ يهوى سماعها رغم قصّي المتكرر لها، وكيف يعرب دائماً لي عن اكتراثه واهتمامه بها وكأنها المرة الأولى التي يسمعها فيها.

أذكر أنّ صديقتي رنا سألته ذات يوم عندما كان صغيراً: "أيهما تحب أكثر كرة القدم كالعم براء أم السباحة كالعم عصام؟" وكلاهما من أصدقاء أيوب اللذين بذلا الكثير ليحيى إخلاصاً لصداقتهما مع والده، فأجابها صغيري: "أحب كرة السلة أكثر كما كان يحبها أبي".

فعاودت رنا وسألته: "وما أحب أبوك أيضاً؟" فقال: "أحب أبي التفاح الأخضر الحامض واللون الأزرق الغامق، أحب القراءة في مجال الأدب وكرهها في مجال الروايات، أحب شرب القهوة مع القليل من الحليب بدون سكر بكوبه الصلصالي الصغير، وأحب جمع التحف، أحب صندوقه الخشبي الأسود وحذاءه الجلدي البني، أحب أصدقاءه موسى وعصام وبراء، أحب سيارته الفضية وكمبيوتره الأبيض المحمول، أحب في البحر أمواجه واضطراباته ومن السماء التشكل العجيب لغيومها ومن الجبال سفوحها ومن السهول اتساعها، حلم كثيراً في القدس الشريف لا القدس الشرقية، وتمنى التنقل الدائم في حياته ما بين كل من دمشق وعمان"، وما كان من رنا وقتها إلاّ أن بكت حتى ملّها بشدة البكاء.

من أجمل القصص التي جمعتني بأيوب وأحبها لقلبي ولقلب يحيى قصة لوحته الحمراء "لوحة قبة الصخرة الدامية"، والتي رويتها أكثر من سبع مرات ليحيى حتى الآن حسبما أذكر، والتي أظن أنها

كانت بأثر بالغ على روحه وأعتقد أنه بسببها مهتمّ بالقيم الوطنيّة الآن. سأرويها لكم؛ كان الثلج يستر جسد الأرض في الفترة التي كان يرسم فيها لوحته المذكورة، وبسبب الثلوج وتراكمها وانسداد الطرق المحيطة بنا لم يتمكن من جمع لوازم لوحته التي يواجه خطر نفادها من حوله.

خرجت مساءً لأملأ وعاءً صغيراً بالثلج، كانت تلك فكرة أيوب وليست بفكرتي، إذ كان يرغب بأن نحتسي كوبين من الشاي بماء أصله من الثلج المتساقط المتراكم على أرض حديقتنا وفناء منزلنا، وهذا ما حدث بالفعل، فذهبت متسحّبةً خائفةً من البرد وملأت وعائي، وأثناء عودتي وبسبب ظلمة الليل المكسورة بوهج الثلج تعثرت وكدت أسقط، إلاّ أنني تمكّنت من أن أسند جسدي بيدي اليسرى فجرحت منها سبابتها، وعند دخولي المنزل وجدت قطرة من الدم تتوسط وعاء الثلج المملوء.

كان أيوب على يقين بأنّ الجرح سطحي فلم يهرع إليّ إلاّ أنه آثر التبسّم على التظاهر بالفزع، فابتسم وابتسم، وابتسم أعمق! لم يعجبني توقيت ابتسامته تلك رغم إعجابي بها كابتسامة مجردة من ذاك الزمن، فكل ابتساماته ساحرة، قلت له وأنا أتجه لإلقاء الثلج خارجاً: "ما بال السعادة تتراكم على شفتيك كالثلج الذي ما برح يتراكم خارجاً؟"، فقال وهو ينتفض ذعراً: "لا، لا تلقيه يا فداء"، قلت: "ما لك وله؟ أليس عندك ما هو أهمّ ليدعوك لتفزع من أجله؟ ثم إنه ملوّث بقطرة من دمي"، فما كان منه إلاّ أن اقترب مني واحتضنني وأخذ وعاء الثلج وأعدّ به كوبي شاي، وبعد انتقالنا لغرفة الجلوس وجلوسنا معاً تذوّقه وقال: "لقد أخطأت في معيار

سكّره، ففيه مغالاة"، فتذوقته من بعده إلاّ أنني وجدته بلا سكّر! ابتسم أيوب فابتسمت، فضحك، فبكيت، فقال: "ما بالك؟" فقلت: "حفظك الله لي يا أيوب".

ومن بعد انتهائه من كوبه ذاك قام إلى لوحته التي انقطع عمله فيها نظراً لاقتراب نفاد الألوان المقترحة في ذهنه لسمائها، وسألني: "أليس لون الدم أحقّ الألوان ليسكن سماء القدس نظراً لما ارتوت به أرضها؟"، لم أجبه حينها بشيء إلاّ أنني ابتسمت وجلست بجواره وحدّقت في عينيه وهو يرسم، واستعمل اللون الأحمر المتوفر لديه فولدت لوحته "لوحة قبة الصخرة الدامية". ومن يومها لم يذق أيوب طعم السكّر في شايه وبتّ أنا من بعده على ما بات عليه رحمه الله.

كانت لوحة قبة الصخرة الدامية بمثابة النافذة التي أطلّ يحيى من خلالها ليشاهد الواقع العربي المرتبك المؤلم، أطلّت به على العالم العربي بشكل عام وعلى منطقتنا بشكل أخص، منذ طفولته وهو يتساءل عن قبة الصخرة والأقصى وعن أسباب فقدانهما وأسباب استمرار ضياعهما حتى الآن رغم تعدادنا البشري الهائل ويتعجب!

يحيى عربيّ، كان يقول قول والده رحمه الله: "يمتلكون لغة واحدة! إذاً هم شعب واحد"، يحب يحيى كما يحب كل العرب أن تكون بلاد الشام واحدة وأن يكون العراق متحداً وأن يكون الخليج عربيًّا بلا تدخل فارسيّ ولا أجنبيّ، وأن يكون المغرب العربي موحداً فريداً وأن يكون حوض النيل كالنيل واحداً لواحد؛ أي حوضاً واحداً لنيل واحد، ويحبّ أن تكون جميعها مجتمعة على قلب واحد.

ويحب أيوب مثلما يحب كل أشقّائه العرب أن تكون خيرات أراضيهم لهم كلهم على حد سواء، وأن تكون الكفاءات البشرية العربية في متناول جميع الأقطار، يحب كما يحبون أن تكون الجيوش العربية متحدة ضدّ أعدائها وأن تكون شرطتها واحدة لخدمة شعوبها.

يحب كما يحبون أن تكون الجبال للجميع والوديان للجميع والبحار للجميع والصحارى للجميع والمدن للجميع والقرى للجميع والأرياف للجميع والبوادي للجميع، يحب كما يحبون أن تكون زياراتهم ما بين عواصمهم كما بين بيوتهم رسمُها رسمُ النقل وتأشيرة دخولها النية والقصد بالاتجاه فقط.

وكره يحيى كما كره العرب ما في الأعلام من ترسيخ للحدود وأحب كما أحبوا ما فيها من الإشارة للمناطق والاعتزاز بها، وكره مثلهم التمييز العرقي بكافة أشكاله وألوانه وعدّها من أحطّ أمراض المجتمع النفسيّة، وكره مثلهم ما في الرياضة العربية من تفرقة رغم ما في عناوينها وشعاراتها من إشارات للوحدة، وكره مثلهم ما في الفن العربي من تعصب فرديّ رغم ما يحمله مجمل فكره العام للاتحاد.

شبّ يحيى على رفض فكرة الحدود بين الأقطار العربية والإسلامية ورفض فكرة طلب الإثباتات الشخصية للسماح بالتنقل عبرها، وشبّ على رفضه لاتفاقية سايكس - بيكو القذرة، (للتذكير: أبرمت تلك المعاهدة عام 1916 بين فرنسا والمملكة المتحدة بمصادقة من روسيا، أبرمها كل من البريطاني مارك سايكس والفرنسي فرانسوا جورج بيكو لتحديد مناطق النفوذ في غرب آسيا) والتي لا يزال يعمل بها حتى الآن رغم اندحار الاحتلال منذ زمن طويل، وشبّ أيضاً على يقينٍ بأنّ على الفلسطينيّ أن يُعرّف بنفسه

بأنه من منطقة فلسطين لا بأنه فلسطيني، وأنّ على الأردني أن يُعرّف بنفسه بأنه من منطقة الأردن لا بأنه أردني، فكلاهما من الإخوة العرب.

آمن يحيى بأنّ القدس هي الأخت الأقرب لعمّان، وأن عمّان هي الأخت الأحنّ للقدس، استكان يحيى منذ نعومة أظفاره على فكرة أنّ فلسطين والأردن توأمان متصلتان غير متطابقتين في الشكل ومتطابقتان في الدم الدائر في جذورهما المتشعبة، حتى الشمس تشير إلى ذلك إذ إنها تشرق كل يوم من العاصمة عمّان وتغرب في القدس الشريف عاصمة فلسطين. وأخيراً آمن يحيى بما آمن به من قبله والده، بأنه مهما ارتفعت الحدود وعلت مخاطرها! لا تزال للغة العربية الجاذبية الكافية لتوحيد كل ناطقيها الشرفاء، وكل ذلك يطبّق على الأمة الإسلامية أيضاً، فالصفة الإسلامية أعم وأشمل، ففي اتحاد العرب صورة مصغرة لاتحاد الأمة الإسلامية.

العم موسى ويحيى

موسى: هاتفني يحيى وأعلمني برغبته في زيارة مدينة إسطنبول عامّة (المعروفة باسم إسلام بول سابقاً) وفي زيارتي شخصياً خاصة، أيقظت فيَّ مبادرته الرائعة تلك الكثير من ذكرياتي البراقة التي حزتها برفقة والده رحمه الله. بالطبع أيدته على فكرة الزيارة وأخبرته بأنني سأنتظره على أحرّ من الجمر (هو ومن معه بطبيعة الحال)، وأثنيت على خطوته لزيارة إسطنبول بشدة وباركتها، فمدينة إسطنبول العريقة تستحق الزيارة أشد الاستحقاق إذ تعدّ كبرى المدن التركية حالياً والوحيدة الممتدة على قارتين اثنتين في العالم وثانية كبرى مدنه من حيث عدد السكان، عاصمة الدولة العثمانية ومن قبلها البيزنطية واللاتينية والرومانية، ولا ندري عاصمة من غداً؟

كما أنني أرى أنّ لها الأولوية بالزيارة نظراً لما تحمله من سحر الشرق والغرب ومن عبق آسيا وأوروبا، ولكونها تمتاز أيضاً بتقديم كل ما يحتاجه أهل الإسلام من مرافقَ للعبادة بشكل وافر، ووجود شخص معرفة فيها يعد ثروة نوعاً ما لمحبي السياحة وروّادها.

إن الوقت لا يجري دوماً على الوتيرة نفسها، لا تزال هذه الجملة عالقةً في ذهني حتى هذه اللحظة، كان مني أن قرأتها في كتاب

حاج كومبوستيلا الذي استعرته منذ أمد طويل جداً من صديقي العم عوني أثناء مكوثي الأول في دمشق، والذي أوصاني العم بشده بقراءته، إذ "كثيراً ما يحدث بأن يغير سطرٌ ما من كتاب ما حياة إنسان، وعادةً ما يتبع السطر هذا لفظة الجلالة "الله" كتعقيب من قارئه لما خطه كاتبه إثر قراءته" على حد قول العم رحمه الله، بالتأكيد *لباولو كويلو* تفسيره الخاص المنشود من عبارة الوقت تلك إلاّ أنني سأستعيرها منه لأدلي من خلالها بما جال بخاطري حينها.

لقد وجدت مع جريان السنين وعبورها أنّ للزمن كفاءة، لا داعي للاستغراب! نعم إن للزمن كفاءة، فالزمان لا يثمّن بطوله بل يثمّن بما يحدث فيه، لا بعدّاد السنين بل بعدّاد المواقف والأحداث التي يتضمنها في طياته (ويا حبذا لو أنها تكون صالحة)، لا بما انقضى منه بل بما خلّد من خلاله، وبشكل عام تجدون كفاءة مرحلة الشباب أزخم من الناحية النوعية منها لمراحل الكهولة والشيخوخة.

ففي مرحلة الشباب يكون جلّ التنقل المحسوس والملموس، كالتنقل ما بين التقلبات النفسية (الطفولة والمراهقة وبداية الاستقرار النفسي للشاب الناضج) من جهة، ومن جهة أخرى التنقل ما بين المستويات التمهيدية للمدرسة والمراحل المدرسية والجامعية وما بعدها من التطلع لسوق العمل والانخراط فيه والبدء بالتخطيط للزواج والإقدام عليه وتخطي العقبات التي تواجهه، وقد يتبع ذلك إنجاب البنات والبنين والتمهيد لمستقبلهم أيضاً.

حتى أولئك الذين اختاروا أو اختير عنهم الانخراط بمسالك الكدّ والعمل على حساب مراحلهم التعليمية، تعدّ بداياتهم مع دروب أعمالهم أحداثاً عظيمة نادراً ما تتكرر.

وعلى الأغلب يحتوي الزمن المستهلك من قبل الشـــاب لإتمـــام المراحل العديدة التي ذكرناها بالنسبة لكهلٍ أو شـــيخٍ مـــا تكـــراراً لنموذجٍ معينٍ من الأيام، فها أنا على سبيل المثال وفي غضون نموّ يحيى من كونه الرضيع حديث الولادة مروراً بمراحل حبوه وسيره ودخوله مدرسته وخروجه منها والتحاقه بجامعته وحتى خروجه من عتبتها، لا أزال أنا كما أنا، الصديق ذاته والطبيب ذاته والـــزوج ذاتـــه والأب ذاته، لا أزال أنا الإنسان ذاته.

لذا أجد أنّ على المرء الالتزام بفكرة عظيمة معمرة طويلة الأمـــد ليستشعر بكفاءةٍ أكبر للزمن وأعم فائدة، تســـتمر معـــه في كهولتـــه وشيخوخته كما في طفولته، وعليه أن لا يكتفي بذلك بل أن يعيش من أجلها أيضاً، *فعندما نعيش لفكرة، فإنّ الحياة تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض*. بهذه العبارة عبّر كتاب *أفراح الروح* عما يشابه فكرتي المقصودة ويكملها.

يحيى: وأنا أيضاً وصلت إلى ما وصل إليه العم موسى في *أفراح الروح*، إلاّ أن طريقي في الوصول إليه كان مختلفاً تماماً، إذ إنـــني أرى وحسب وجهة نظري الشخصية بأن وجود الأحداث المرتقبة يعمـــل عمل العامل المحفز لعدّاد الزمن فيجعله يبدو وكأنه يعـــدو بتســـارع أكبر، ومع التسارع المضاف هذا يفقد الإنسان الكثير من تفاصـــيل حياته، وفي تفاصيل حياتنا (خاصةً مرحلة الطفولة والشباب) حيوات كثرٌ من ناحية الوفرة وأكثر جمالاً في حالة الاستغلال المضبوط.

فعلى سبيل المثال نجد في أيامنا طلاب العلم المجتهدين يتسابقون مع أعمارهم لإنهاء مراحل التعليم مرحلة مرحلة، سنة على إثر السنة، فاقدين طعم الحياة الحقيقية لانشغالهم بتحقيق هدف واحد فقـــط ألا

وهو الوصول للمرحلة التالية. ألا إنّ المرحلة التالية في الحقيقة هي الموت، علينا ألاّ نستعجل انقضاء الزمن، فالمراحل القادمة قادمة بسبب تقادم الزمن شئنا أم أبينا، وعليها ألاّ تكون المتجه الوحيد لأفئدتنا وعقولنا.

وكذلك الأمر تجد طلاب العلم غير المجتهدين يهدرون حيواتهم في الاختباء من متطلباتهم المرحلية، فينشغلون بالتخفّي على حساب استغلالهم للزمن المهدور. فلم لا نكون ما بين بين، طلاب علم مجتهدين مع إعطاء كل تفاصيل الحياة حقها؟

وحتى هذا لا يعدّ كافياً بنظري، فعلى المرء الالتزام بفكرة عظيمة معمرة طويلة الأمد، فيعمل بجدّ عليها مع ما عليه أن يقوم به، فتفيض بدورها على كل ما لديه من وقت فراغ وتسدّ الطريق على ما في حياته من تفاصيل غير مهمة ليستشعر بحياةٍ أكثر أهمية وإفادة، فيجد كفاءةً أكبر للزمن وأعم فائدة، تستمر في كهولته وشيخوخته كما في طفولته، فالحياة قصيرة وعلينا استغلال كل يوم فيها وكل مرحلة من مراحلها أعظم استغلال. وعلى الاستغلال هذا أن يكون لإفادة النفس والجميع ولأجلها ولأجلهم.

أما بالنسبة لرحلتنا، فقد كانت المرة الأولى التي أسافر فيها وكذلك الأمر لأصدقائي سواء أكنّا معاً أم على حدة، نزلنا أربعتنا في حي أكساراي الشهير واتخذنا من أحد فنادقه مسكناً لنا، وكان اختيار الحيّ هذا بناءً على نصيحة العم موسى نظراً لقربه من معظم المعالم الإسطنبولية الأثرية.

اتخذ كل اثنين منّا غرفة واحدة، واختارت قرعتنا الورقية قرعتي القلبية فتشاركت الغرفة مع صديقي حسان، لا أدري أجرى ذلك

عن طريق المصادفة أم أن نداءات قلبي وإيحاءات عقلي لأوراق القرعة جعلتهما يتفقان على ذلك.

وأكساراي هذا الذي سكنّاه أحد أجمل أحياء إسطنبول الأوروبية الوديعة الذي تضج مطاعمه كما شوارعه ليلاً نهاراً بالحياة، وتعجّ مساجده ودور اللهو فيه فجراً وسَحراً. في أكساراي أنتم مدعوون لمشاهدة لقاء مصلّي الفجر مع رواد الملاهي، منهم من ترقص روحه طرباً لما استمعت له من الإيمانيات، ومنهم من يرقص جسده سوءاً لما استمعت له أذنه من القاذورات.

في طرقات أكساراي الضيقة يتم لقائهم هذا كل يوم على مدار العام، لا ندري فلعلّها بضيقها تقارب ما بين أفكارهم كما تقارب ما بين أجسادهم، لعل أهل هذه يومئون لأهل تلك بشيء ما. ولا جرم أنّ إيماءات أهل الإيمان أكثر سيادةً وسلطة، لعل توبتهم تكمن هناك، في فجرك يا أكساراي.

ومن أكساراي بدأت رحلتنا التركية، فبدأنا نجوب معالم إسطنبول الكبرى والصغرى وجلّ معالم إسطنبول كبير وصغير معالمها مبهر عظيم ومتخم بالتفاصيل، مسحنا على الكثير من شوارعها وأرصفتها وأزقتها وشواطئها وموانئها، سرنا فيها شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، أبداً لم نفوّت فيها صنفاً من أصناف الطعام ولا أية وسيلة من وسائل نقلها فركبناها جميعها براً وبحراً وجواً.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، إن أوصلك القدر للمرور ما بين أكساراي وكباتاش فما عليك إلاّ أن تدع عينيك تسبحان على ضفافه وتسبّحان الله على ما تراه، أجزم أنّ طريق أكساراي كباتاش وحده من امتاز بهذا الكم الهائل من المتاحف والآثار في العالم، أكاد

أن أجزم أنكم إن رفعتم فيه تحفة لوجدتم أخرى تحتها، ولو دخلتم في أثرٍ من آثاره لوجدتم فيه آخر.

ففي الطريق هذا تمرون على جامع السليمانية وجامع السلطان أحمد وجامع آيا صوفيا (تلك الكاتدرائية الأضخم في زمانها والتي اشتراها السلطان محمد الفاتح من ماله الخاص وأوقفها لتصبح مسجداً، والتي تعد نموذجاً للعمارة البيزنطية والزخرفة العثمانية).

وفيه أيضاً قصر الباب العالي المعروف باسم "التوب كابي" (الحاوي على غرفة الأمانات المقدسة التي نقلت إليها الآثار الخاصة بنبيّ الأمة محمد صلى الله عليه وسلم من المدينة المنورة، سيفهُ وعصاهُ وضرسه وجزء من شعره بالإضافة إلى سيوف بعض الصحابة ومفاتيح الكعبة).

وهناك في الطريق تجدون أيضاً خزّان البزاليك الأرضي الذي بحثنا عنه طويلاً ووجدناه في الأسفل منا (تحت أقدامنا)، وتمرون كذلك بجسر جالاتا وبرجها الرائع ومن ثم الجامع الجديد والسوق المصري. ومن كباتاش أكملنا رحلتنا لجزر الأميرات، وعليّ أن أخبركم قبل أن أنسى أنّ في كاباتاش مسجد دولما باهتشة وقصرها الشهيرين.

قد تستغربون أنكم وبالرغم من محدودية إسطنبول الجغرافية لن تتمكنوا من الإحاطة بحدود عظمتها وقيمتها وجمالها مهما اجتهدتم، فبالإضافة لكل ذلك زرنا أماكن أخرى من هذه المدينة الساحرة كالجامع الفاتح وجامع أيوب ومسجد رستم باشا وتلة العرائس ومضيق البوسفور والقرن الذهبي، وأقربَ مدينتين تركيتين لقلبي مدينتي بورصا ويالاوا وبالأخص يالاوا نظراً لحبي لمن أخبرني عنها.

قابلنا العم موسى في اليوم الثالث من رحلتنا في منطقة تـــدعى بكاراكوي وتناولنا معاً طعام الغداء، كان الغداء مجموعة متنوعة من الكباب (إسكندر وأورفه وأضنة كباب) وطبق المانامان وبضع قطـــع من اللحم بالعجين بالإضافة للبوريك والكامبير مع شـــراب اللـــبن التركي الرائع.

وبعد تناولنا طعام الغداء رحل أصدقائي الثلاثة عنّـــا وتركونـــا وحدنا أنا والعم، وكان هذا أفضل ما يمكن أن يفعلوه من أجلي، فأنا ورغماً عني لا بإرادتي شعرت بالغيرة الشديدة من مشاركتهم لي هذا العمّ بالتحديد (خصوصاً في تلك الزيارة)، هم أو غيرهم على حـــد سواء، لم أُرد أن يشاركني فيه أحد، فقد كان العم (وقتها) بالنسبة لي كالجزيرة غير المأهولة منذ فترة طويلة بالسكان، الجزيرة ذاتهـــا الـــتي سكنها والدي وكان آخر سكانها، ولم أُطق أن يستكشـــفها معـــي أحد، رغم أنني علمت عنه الكثير الكثير من خلال ما خطه أبـــــي، أصررت بشدة على مرادي بأن أتابع استكشافه وحدي، فمنذ زمـــن لم أكن قد التقيته وجهاً لوجه، وأنا كبرت (حينها) عن قبل.

سحب العم منديلاً من صندوق مناديل المطعم وكتب عليه قبل خروجنا منه بضعة أرقام وكلمات، بالتأكيد كان اسمي واسمه واســـم المكان مع تاريخ ذاك اليوم الجميل، وأنا على أتم الثقة بأنْ خطـــه لا يزال كالرسم يجمّل به معانيه المنشودة، ليست معرفتي هذه من بـــاب التنجيم بل من باب اطلاعي على شخصيته عن طريق ما قرأته عنـــه من كلمات والدي.

حقاً إنه كما كتب عنه أبـــي تماماً، إلاّ أنه اختلف قليلاً عـــن وصفه في ذاك الزمن، إذ إن الآن بشعره القليل من الشعرات السوداء

تحسبها زنابق سوداء في باقةٍ من الياسمين الأبيض، "حيوي جداً وعفوي، في سلامه المودّة وفي نظراته السلام، في دعواته الكرم وفي مجالسته لن تجدوا إحساساً بالزمان، والله إني لأحسب في مرافقته مادّة لتُتَعَلَم وفي مصادقته درجات لتُرتقى، وكأن فيه ما قاله أديب وشاعر المهجر *جبران خليل جبران* عن إحياء الأيام والليالي إذ قال: *وما قيمة صديقك الذي لا تطلبه إلّا لتقضي معه ما تريد أن تقتله من وقتك؟ فاسع بالأحرى إلى الصديق الذي يحيي أيامك ولياليك، لأنّ له وحده قد أعطي أن يكمل حاجاتك، لا لفراغك ويبوستك.*

كثير التبسم، بل دائم التبسم، صاحب بسمة ساحرة، إنها المرة الأولى التي أصادف فيها مثل هذا الإنسان بهذا الشكل، إنه من الأشخاص الذين بمجرد رؤيتك لهم يبثون لقلبك ما يفيض منه من السعادة فيطلق قلبك بدوره من خلال وجهك أعمق ابتسامة. في كل مرة أنظر فيها إلى وجهه أحاول أسر ابتسامتي (وليس في محاولاتي أسرها هدفاً بإخفاء سعادتي قط، بل هي مجرد تطبيق لتجربة إمكانية مقاومة سحره الفاشلة) إلاّ أنها تجد السبيل للحرية بسهولة وتتجلى مني على الملأ.

كثيراً ما كنت أتساءل عن سر الابتسامة! أليست الابتسامة عبارة عن الانقباضات البسيطة التي تحدث في الوجه عاكسةً تجلّيَ جمالٍ أخاذٍ على المتبسم؟ فكيف يجري هذا في واقع الأمر؟ ألا إنّ فيها صورةً من صور السحر والشعوذة. حتى بياض الأسنان لم يأتِ عبثاً قط، فلا أظن أن في بياضها سوى رسالة من المتبسم للآخر بأنها ابتسامة خالية من كل نيّة أو قصد أو أمر، بيضاء لا تطمح لشيء ولا

تسعى لشيء، ليست سوى دعوة للإبحار في البياض ونسيان الـــزمن الحاضر الملوث دائماً بالمصالح والنفاق.

ميز الله الابتسامة الصادقة باللون الأبيض لون الســـلام ومـــن السهولة الكشف عنها، إذ عادةً ما يكون الجواب من تلقيها ابتسامة لاإرادية من الطرف المقابل"(*).

بعد خروجنا من المطعم توجهنا ناحية الميناء وركبنا في قـــارب متوسط الحجم أبيض اللون حديث نوعاً ما، وأقلّنا في رحلة بحريّـــة ساحرة في مضيق البوسفور (المضيق الواصل ما بين البحـــر الأســـود وبحر مرمرة)، فوقفنا على حافة المركب اليســـرى وارتكزنـــا علـــى حاجزه نتأمل البر تارة والبحر تارة وخط التقائهما تـــارة والمشـــهد الكلّي تارات أخرى، كان تأملنا ذاك تـــأملاً ذا صـــمتٍ مؤقـــت، بالتأكيد كانت حالته وقتها مثل حالتي يتحدث بوافر الحـــديث مـــع نفسه منتظراً مني كما انتظرت منه بدايةً لحوارنا.

موسى: كان حدسي ينبهني ويخبرني بأن هناك أمراً ما يخفيه يحيى عني، وللمعلومة أنا أثق بحدسي أكثر بكثير مما أثق بعقلي ومما يجـــده من الحقائق، وأكثر مما أثق بقلبـــي ومما يستشعره من المشاعر، وأثناء انتظاري لأن يحدث أمر ما مصدّقاً حدسي نظـــرت أتأمـــل جمـــال إسطنبول عن سطح القارب وأبحر ذهني في البحر وتعمق.

كم وجدت أمواج البحر جميلة! كيف تقتل ببراعة رتابة المشهد الصامت للون البحر الأزرق الوحيد؟ كيف أنّ لكل درجة شدّة من درجات شدة الأمواج حالة روحيةً ترتبط فيها! ما بـــين اســـترخاء

(*) يقال أن الصفحة هذه هي الصفحة ذاتها المفقودة من كتاب مقتطفـــات من الورد 137.

واستمتاع، ما بين الشعور بالمغامرة أحياناً وبالخوف أحياناً أخـــرى، وقد تصل بك الحال للذعر أيضاً! حاول كل مـــن جمـــال جســـر البوسفور وجمال جسر السلطان محمد الفاتح المعلقين أن يقطعا علـــيّ شوط إبحار ذهني في البحر وتفاصيله، إلاّ أنهما فشلا بمَهمتهما تلك، ولكنّ الحق يقال قد كانا على وشك إطاحتي، واستمر إبحـــاري في البحر وأمواجه إلى أن سمعت صوت صفارة صاخبة من أحد المراكب العابرة، فاستيقظت من أحلام يقظتي ووجدت يحيى ينـــاظر وجهـــي محملقاً في عينيْ بغرابة.

يحيى: سألته بشكل مباغت، ورغم يقيني بانتظاره للحظة بدايـــة حوارنا نجحت بمباغتته: "لِمَ لم تسمِ ابنتك مريم؟"، وعلى وجهه مـــن أثر الدهشة سكت قليلاً.. ابتسم ثم قال: "سبقني عصـــام للتســـمية هذه، إلاّ أنها كانت ولا تزال التسمية الأقرب إلى قلبـــي".

تساءلت في نفسي: "لم ابتسم!" ثم قلت فيها: "أصاب أبـــي"، وقلت له من بعد فترة من الصمت: "أحضرت لك هدية"، قال: "لِمَ؟ وعلامَ؟ ما كان عليك أن تفعل لي ذلك، قدومك بحدّ ذاتـــه هديـــة عظيمة، وهي الأعظم مما تلقيته مؤخراً".

قلت: "لست أنا من فعل ذلك لأجلك، أنا مجرد مرسال فقط أو لنقل أنا ساعي بريد"، ابتسم ابتسامة ماكرة وأظنها تعـــود لســـبب وجدته في المستند الأول الذي أخرجته بعدها بقليل، أضاف بريبة غير مبررة: "شكراً لك، هي من عصام، أليس كذلك؟" قلت لـــه وأنـــا أبتسم كبسمته السابقة: "كلا ليست منه، إنها من والدي!".

انتصب جذع العم موسى من انحناءته على حاجز المركب واقفاً وأزال يديه عنه، أرجع رأسه للخلف قليلاً بينما كانت عيناه تتسعان

بشدة فوهُ يسدل الستار ببطء عما فيه، نظر إليّ نظرةً في غاية الجدّية وقال: "أنا لا أفهم ما تقوله؟ ما الذي تقصده؟". أنزلت ببطء شديد متعمّد حقيبة ظهري التي كنت أرتديها ووضعتها على الأرض وانحنيت لفتحها وأخرجت منها المستند الأول، نهضت واقفاً وأعطيته إياه. أمسكه بكلتا يديه، استنشق رائحته بشهيق مرعب وأخرجه زفيراً عميقاً للغاية، ثم نطق بلفظة الجلالة "الله"، ورغم أنّ المستند لم يكن برائحة، اشتمّ العم فيه ما كان كافياً ليرطّب عينيه بالقليل من الدموع الثائرة الحارة الحديثة.

موسى: بدأ يحيى بتوضيح أمر تلك الهدية لي، إلاّ أنني أوقفته سريعاً ورفضت نفسي أن تسمع منه أية كلمة مما ودّ أن يخبرني بها حينها. لا، فأنا لا أحتاج لمن يوضح لي أيّ أمر يخص هذا المستند، لقد فهمت سريعاً ما أراد أن يخبرني به يحيى دون أن ينطق بشيء، كيف لا وأنا من سكنت مع والده مدة سنين؟

ودّعته متعجلاً لرغبتي بالاختلاء مع هديتي "هدية الزمن الجميل"، واتفقنا على أن نلتقي في منزلي في مساء اليوم التالي، أعطيته العنوان الذي استسهل كيفية الوصول إليه وافترقنا، لحق هو بأصدقائه بينما انطلقت أنا بسرعة للاختفاء عن الأنظار واخترت مسجد السلطان أحمد لأتوارى فيه.

لم يكن اختفائي ذاك عن أنظار البشر بل عن أنظار مظاهر الحياة الحديثة بكافة أشكالها، كم وددت أن أستظل بالتاريخ القديم وأن يحتضنني ما يقدّر نكهة وعبق الماضي. دخلت المسجد من بعد تبرعي بالقليل لصالحه (وهذه من العادات الجميلة التي يتخذها الكثيرون من زوار ومصلي المسجد الآسر ذاك، وأنا لا أقولها لكم

رياءً بل تشجيعاً لنفسي ولكم، وإن أصررتم على النظر للأمر هـذا على أنه رياء فلا بأس، أنا كما تريدون أن أكون! مرائياً!) واتكـأت على جدارٍ في جهة المسجد اليمنى وبدأت أتصـفح هـديتي بتأمـل وهدوء منقطع النظير.

اخترت مسجد السلطان أحمد لأنني أعدّه أجمـل الأمـاكن في إسطنبول وأكثرها سحراً، وهو أقربها لقلبـي، ويعرف المسجد هذا باسم المسجد الأزرق أيضاً وهو عملاق بمكان ليتسع لنحو عشـرة آلاف مصلٍ، صممه المهندس محمد آغا وتم بناؤه ما بـين الأعـوام (1609–1616م)، وترتكز قبته على ستة أعمدة كما تزينـه سـت مآذن، ويحيطه سور مرتفع من ثلاث جهات وبه خمسة أبواب، اثنان منها على صحن المسجد.

أخذت أقرأ وأقرأ، ولوهلة ظننت نفسـي في صـالة عـرض سينمائية أشاهد فيها فيلماً في عرضه الأول، كنـت أنـا مشـاهده الوحيد ومن أصحاب فكرته، إنني أحد بطليْ العرض، وأيوب بدوره مخرج الفيلم وكاتب سيناريو أحداثه والمهتم بكافة تفاصـيله وهـو بالطبع شريكي بالبطولة. وأقبل منتصف الليل وأنا ما بـين جـدران الأزرق أتكئ عليها في الداخل ومقاعد حدائقه المحيطة في الخارج أقرأ وأقرأ، وبعد منتصف الليل بقليل استسلمت للعتمة وانتقلت لمنـزلي فأنرت شموسه الكهربائية كلها لأجعل من ليلة إسطنبول الحافلة تلك نهاراً بيتياً يلفّني لعله يطيل نهاري، وأثناء نهـاري المزيـف تابعـت وأكملت المستند حتى نهايته، حتى آخر حروفه ونقاطه.

ولا أودّ أن أخبر أحداً عمّا وجدت نفسي فيه فأنـا بالـذات شهادتي بما خطه أيوب مجروحة، ومن يومها ليومنا هذا وأنا أتساءل:

"كيف تمكن من خلق مفاجأة مدوية كهذه لي؟ كيف له أن أخفى أمراً كهذا الأمر عني طوال سنين مكوثي معه وسنين رحيله عن سكني الدمشقي؟".

يحيى: في مساء اليوم التالي صليت العشاء بقرب منزل العم موسى في مسجد فاطمة خاتون، ويا له من شعور رائع وعظيم بأن تصلي أنت العربي خلف إمامٍ أعجمي يشدو صوته بأبلغ ما في العربية من الكلام (كلام القرآن)، وكم أحببت رداءه وغطاء رأسه، وكم تعجبت من مقدار إتقانه لما قرأه علينا، وأولعت بفكرة مصافحة المصلين بعضهم لبعض بعد انتهائهم من الصلاة، صافحوني وكأنني واحد منهم، بل إنني في واقع الحال واحد منهم، وهناك في ذاك المسجد بالتحديد استشعرت للمرة الأولى بكيفية توحيد ديننا لأعراقنا المختلفة تحت قبة أوسع وأشمل.

وجدت المنزل بسهولة ووقفت على بابه، مسّدت شعري بيدي اليسرى وعدلت مُصلحاً ترتيب ملابسي وموضعة حقيبة ظهري في مكانها بالشكل المضبوط وقرعت جرس منزله. فتح العم الباب لي شخصياً وكان وحيداً في المنزل حينها، إذ خرجت أسرته للقاء مفاجئ بأقرباء لهم جاؤوا لزيارة المدينة، كان في وحدته مناخ مثالي لي لأشعر بالراحة البالغة لكوني وحيداً معه مجدداً.

أدخلني العم لصالة جلوسه، وكان أول ما أثار انتباهي فيها ما وجدته من العديد من التحف الصغيرة التي تجسم الكثير من المعالم الإسلامية والعربية، إذ وجدت مجسمات للكعبة وللمسجد الأقصى ولآيا صوفيا، ولأحد الأهرام ونواعير مدينة حماه، وصخرة الروشة والبتراء، وتمثالاً أحسبه للأمير عبد القادر الجزائري، تالله كأنه يعلن

حبه واعتزازه بأوطانه كلها عن طريق تجميعه لهذه التحف وعرضها.

كما أنه ورد في ذهني التساؤل التالي: "إن كان بيته المؤقت بهذا الكم والتنوّع من القطع (إن غرفة جلوسه غرفة وطنية بامتياز)، فكيف هي الحال إذاً في بيته الشامي؟". أجلسني العم على أريكة مخملية سوداء في صدر الغرفة، وللوهلة الأولى ظننت أنه انتقاها لي نظراً لكونها مريحة للغاية كما وجدتها، وظننت أيضاً أنها قد تكون الأكثر إراحة لزوّاره مما لديه من سواها، إلاّ أنني اكتشفت لاحقاً أنه تعمد جعلي أتموضع في ذاك المكان لأواجه لوحةً فنية يدوية فريدة كانت تعتلي حائطه الرماديّ الفاتح.

بدأت الأفكار تجوب في خلدي بشأن تلك اللوحة، كيف عبر راسمها عن الكون بشكل جميل للغاية! فيها الأبعاد الثلاثة، اختصرت الحجم والمسافة وجمّدت الزمن! قلت له فاتحاً باب حواري معه: "سبحان الله، ما هذه يا عم؟ من أين لك بها؟"، قال مباشرةً وهو يبتسم وكأنه كان ينتظر مني السؤال هذا: "هي لوحة لها كل النَظَر، كمال الحُسنِ وجنون الجمال، فنّها فيه إبداع، إبداعها فيه إتقان، إتقانها فيه الحقيقة!".

موسى: كدت أبدي ضحكتي حينها، كيف لا تعتريني رغبة بالضحك وقد انقلب السحر على الساحر، أرسله والده مرسالاً للسحر ليفاجئني وإذا به هو الذي يفاجأ، إلاّ أنني بلا شك أخفيتها نظراً لما في حقيقة الأمر من حزن بالغ. انقلبت أدوارنا في تلك اللحظة، فانتصب بدوره واقفاً مُرجعاً رأسه للخلف قليلاً بينما كانت عيناه تتسعان بشدة فوُه يسدل الستار ببطء عما فيه، نظر إليّ نظرةً جدية وقال: "أهي هي، ذاتها؟"، قلت: "نعم إنها هي"، فبكى.

انهار يحيى باكياً، كان بكاؤه بكاءً صامتاً معبراً، كاللوحة تماماً صامتةً معبرةً، وبالنسبة لي أظنها المرة الثانية التي أواجه فيها دموع رجل، إنها كالمرة الأولى بالقسوة ذاتها والألم ذاته، ومن الدم ذاته أيضاً يا للعجب.

احتضنته، أو بالأحرى اعتصرته واعتصرت كل ما فيه من أثرٍ لأيوب، كم انتظرت أن أعثر على ما يبرر اعتصاري له وما فيه، كم أشتاق إليك يا أيوب وكم أشتاق لكل ما هو منك ولكل ما كان فيك!

وكم أشتاق إلى نفسي معك! كيف لك من بعد مرور العديد من السنين أن تحافظ على حضورك العظيم على هيئة ذاك المشهد المهيب، والله كأنّ حرارة فقداني لك لا تزال بين جنبات قلبي وعقلي مرتفعة، بل وترتفع أيضاً! أبكيت ابنك وأبكيتني، آه كم أفتقدك!

انسحبت من ميدان واقعة لقاء يحيى بلوحة والده وتركته واقفاً قبالتها ليتكلم معه عبرها على انفراد، سعيت لأن أنشئ له بانسحابي شريطاً عازلاً يؤمن عليه خلوته معها، كانت لوحة والده بمثابة هاتفٍ يصل بطريقة ما ما بين حاضر يحيى وماضيه، أخذ يحدّثها ويتلمّس منها إطارها وكأنه يصافحه بأنامله، وببطء شديد تحسّست سبّابته اليسرى دروب فراشي ألوانها، كان رأسه يتمايل ببطء أشدّ من بطء سبابته يمنةً ويساراً مترنحاً أمام صعوبة تلقي صوتٍ مسموعٍ منها، بدا عليه التوتر وتفشّت على وجهه مظاهر أصنّفها ما بين الاشتياق والتحسّر.

وفي أثناء ذلك ذهبت وأحضرت من مكتبتي الخشبية التركية الصغيرة المتكونة من أربعة كتب فقط كتاباً واحداً وعدت حيث

كان يحيى لا يزال واقفاً وقلت له: "يا بنيّ لقد انتقلت هذه اللوحة معي في كل تنقلاتي وأسفاري منذ أن حظيت بها حتى الآن، وها قد شاء الله لك بأن تراها معي هنا في مدينة إسطنبول وكأن المدينة هذه تنتقص لسحر آخر ليضاف إلى رصيد سحرها الباذخ!".

حافظ يحيى على صمته فواصلت كلامي: "وهذا الكتاب رافقني أيضاً، مثله كمثل اللوحة". بقي يحيى متمترساً في مكانه لفترة وجيزة من الزمن، ثم اقترب مني بتأنٍ وسألني بصوت خافت وعيناه تسقطان نورهما على غلافه كمظليين سقطا بإرادتهما من مروحية تحلّق على منسوب مرتفع: "وما هذا الكتاب؟"، أجبته: "إنه *الوادي المقدس* للأديب *محمد كامل حسين*، سمعت عنه في بداية مرحلة دراستي الجامعية وخطر لي أنّ والدك قد يحبه، فمثله كمثل ما عشق من الكتب، فابتعته من أجله وقرأه من أجلي ومن أجل نفسه".

شعرت بأن يحيى لم يتشبع بإجابة من كلامي بعد وكتصديقٍ لحدسي وشعوري سألني: "وما له وللّوحة؟"، أجبته: "على رسلك قليلاً، سأتابع لك قصة هذا الكتاب، قرأه والدك وتركه لي ودفعني لأقرأه، وقال لي: *يا صديقي اقرأ هذا الكتاب فقد وجدت فيه بداية جديدة أنهت لي سنوات انقطاع الإلهام العجاف، اقرأه ففيه من الفكر ما سددت به من ذرائعي الواهنة للتردد وأفكار الانسحاب*، وكما ترى فمن بعد قراءته له ولدت لوحته هذه ومن ثم أفضى إلى كتابة كتاب".

يحيى: فتح العم موسى الكتاب على صفحة مطوية بشكل خاص ولافت وقال لي: "هذه هي" وناولني الكتاب، وبدوري قرأت فيها ما يأتي:

وأنت تبني حياتك عملاً فوق عمل، كما تبني القصور حجـــراً فوق حجر. وقد تتشابه أعمال الناس بعضها بعضاً ثم تكون الحيـــاة مختلفات، كما تتشابه الحجارة وتكون القصور متباينة عظمة وجمالاً، وقد تكون الحجارة كلها سوية قوية، حتى إذا ارتفع البنـــاء وخيـــل إليك أنه يصلح مأوىً تتقي به غوائل الجو انهار من حولك. وأنت لا تدري كيف يتهدم بناء كل عناصره قوية متينة.

كذلك قد تكون أعمالك طيبة ناجحة، حتى إذا امتد بك العمر ورجوت أن تكون حياتك جنة تتقي بها قرّ اليأس وحمـــارّة النـــدم انقضت من حولك وأنت تنظر إليها حزيناً أسفاً. ذلك أن العناصـــر القوية لا يقوى بها البناء إلاّ أن يتم على نحو ترضاه القوانين الطبيعية. والأعمال الطيبة لا يتم بها وحدها طيب الحياة، إلاّ أن تكون الحيـــاة صادقة، والصدق هو أن تتسق الحياة وقوانين النفس البشرية. وقانون النفس البشرية الذي تفسد كل حياة لا تقوم عليه هو قانون التطهر. وإذا لم يكن قوام حياتك الطهر فلن يقوّم عوجها مـــا تكـــون قـــد حققت من أعمال طيبة.

وليس في ذلك ما يدعو إلى اليأس، فالطهر لا يفسده بعض الشر حين تعمله عرضاً أو حين تعمله مرغماً. فكما يكون من الحجارة ما هو ضعيف معوجّ ويكون البناء مع ذلك قوياً، كذلك قد ترتكب في حال الغضب أو الشدة ما لا ترضى عنه نفسك في حـــال الهـــدوء والطمأنينة، ثم تكون حياتك في آخر الأمر جميلة طيبة إذا كان قوامها الطهر.

كان هذا ما احتوته تلك الصفحة المطوية، أخبرني العم أن والـــدي شاركه هذه الصفحة ليبلغه كيف أنه عثر فيها على مفاتيح أبواب إلهامه

المغلقة، فبدأ رسم تلك اللوحة بعد قراءته لها مباشرةً وأنهاها خلال ثلاثة أيام، وأخبرني بأنهما احتفلا عقب انتهاء والدي منها بوليمة إفطار.

إلاّ أنّ العم لم يأخذ ما قاله والدي على محمل الجد إذ قال لـــه: "يا موسى أظنني سأبدأ بكتابة كتاب"، وأنا كذلك لم أكن لأصدقه، أو بالأحرى لا أثق لدرجة أن يستنبط أحدٌ ما من صـــفحةٍ واحـــدة أفكاراً وأحداثاً لكتاب، وهذا ما أشعَرَ العم بالندم من لحظة معرفتـــه بقصة المستند الأول.

كم وددت أن أطلب من العم إعطائي تلك النسخة مـــن ذاك الكتاب، *كتاب الوادي المقدس* إلاّ أنني لم أستطع، فكيف لي أن أفرّق رفقةً اجتمعت منذ سنين عديدة وفي أماكن كـــثيرة، العـــم أحـــق بالكتاب مني فهو في الأصل من ممتلكاته.

شعرت بالإرهاق والتعب الشديدين، فجلست من جديد علـــى الأريكة مسترخياً متأملاً بأن أستجمع القليل من طاقتي وهـــذا مـــا حدث، وفي الوقت الذي كنت فيه مستلقياً أحاول الاسترخاء أمسك العم بالكتاب وجلس يتصفّحه بجانبـــي.

نظرت لسقف الغرفة نظرةً خاليةً من كل شيء كنت تماماً كنـــائم بلا أحلام، شعرت بأنّ الأرض توقفت وأنّ الصمت قـــد عـــمّ كـــل الأرجاء، وفجأة ومن دون سابق إنذار انتفضت، وبلا قصد مني أفزعت العم من انتفاضتي، تناولت حقيبة ظهري وأخرجت منها المستندين الثاني والثالث، قلت في نفسي: "يا إلهي كدت أن أنساهما".

كان الثاني هو الأصغر ما بين ثلاثتهم والثالث أكبرهم، لم يبـــدِ العم أية ردة فعل تذكر، أراد أن يوفر ما لديه من ردود أفعال إلى أن يصل إلى صورة أوضح لما سيجابهه من مجهول من قبل أيوب.

أظنه أيقن بأنه من غير المجدي أن يرهق نفسه بالتفكير في عـــالم الغيبيات المتعلق بصديقه. قلت له: "وهذان يا عم لك أيضاً"، تبسّـــم العم، كان تبسّمه كالتلويح براية بيضاء مفادها أنه قد استسلم وانتهى أمره، مفادها أنه لا يمتلك من ردود الأفعال ما يتناســـب والموقـــف المبهم القادم ليرتديها.

أمسك بالمستندين اللذين مددتهما له ببرود المُرهق ووضـــعهما على طاولته الخشبية المستطيلة السوداء التي تتوسط غرفته وقـــال لي: "سأنظر إليهما لاحقاً، أفضّل أن أكون على انفراد معهما، كما أنـــني متعب الآن".

موسى: خرج أيوب تاركاً لي قسمين آخرين من أقسام هديتي، حقاً كانت أيام زيارة هذا الشاب مجددة لي ولكل حياتي، جلســـت مكان جلوسه مستولياً على المقعد المطلّ على لوحة الأجرام الكونيـــة وفتحت المستند الثاني وقرأت فيه:

الفصل الثاني

الشتاء

مشاعر متقلبة؛
ما بين أحداث قارصة وتباشير خير واعدة
إنه الشتاء يا سادة

حافلة حيفا

تجري أحداث قصتنا هذه في مدينة حيفا الفلسطينية. وحيفا لمن لا يعرفها أو لمن نسيها أو لمن نسي عروبتها مدينة كنعانية قديمة من مدن ما قبل التاريخ، تتشكل في منطقة التقاء البحر الأبيض المتوسط مع سهل الكرمل وجبله، وهي من أكبر المدن الفلسطينية، وفيها ميناء بحري يعد من أهم موانئ المنطقة.

أما اسمها "حيفا" فيرى البعض بأنه جاء من كلمة *حفا* أي بمعنى الشاطئ، ويقال كذلك بأنه قد يكون مأخوذاً من كلمة *الحيفة* أي الناحية، كما يرى البعض أن اسمها يعود للمظلة أو المحمية وهما من معاني المتعلقة بكلمة الحيفة أيضاً، وجاء ذلك الرأي لكون جبل الكرمل يحيط بها ويحميها ويظلّها. وأهمّ ما في هذا الموضوع أنه مهما اختلفت أصول تسميتها يبقى تاريخها وتاريخ شعبها معلوماً للجميع وثابتاً لديهم.

في مدينة حيفا، في مساء يوم 21 من شهر آب في قرابة الساعة العاشرة بالتحديد حسب التوقيت المحلي لمدينة حيفا المحتلة، صعد يحيى على متن حافلة نقل عامة ذات لون أخضر فيروزي تعود ملكيتها لشركة إيغد الصهيونية (وتعد شركة إيغد الصهيونية الشركة المسؤولة عن خدمة الحافلات في مدينة حيفا منذ حرب سنة 1948).

كان يحيى ينتعل حذاءً رياضياً أزرق ويرتدي بنطال جينز وقميصاً ناصع البياض، وهو اللون الذي تتشاءم منه والدته أشد التشاؤم، إلاّ أنه ارتأى في نفسه أن يرتديه لعله يشهد ما تتشاءم منه والدته هذه المرة، فمتطلبه من صعوده للحافلة هو حدوث الداعي من وراء تشاؤمها وهو ما سعى منذ وقت جاهداً إليه، وكذلك الأمر كان معه حقيبة ظهر رياضية حمراء كبيرة الحجم نوعاً ما يخفي فيها بعض ما يحتاج لإخفائه.

وجد يحيى مقاعد الحافلة ممتلئةً على بكرة أبيها باستثناء مقعدين اثنين فقط، واحد في الخلف بجانب فتاة شقراء تبدو في سن المراهقة، تقرأ بتمعنٍ في كتاب تبيّن لاحقاً له أنه باللغة الإنجليزية، هيئتها هيئة غير عربية بكل تأكيد، أما المقعد الآخر فيقع في وسط الحافلة تقريباً بجانب كهلٍ أسمر منهمك تماماً في استعماله لهاتفه النقال، يرتدي الزيّ العسكري الصهيوني وهيئته بكل تأكيد هيئة غير عربية هو الآخر.

قصد يحيى من ركوبه لهذه الحافلة الاقتراب أكثر من محطة همفراتس، وهمفراتس هذه إحدى المحطتين المركزيتين لخطوط الحافلات الموجودة في مدينة حيفا المحتلة، وأما المحطة الثانية فتدعى حيفا – حوف هكرميل، وسنعود لذكر سيرتها لاحقاً.

بعد تنقل عيني يحيى بين المقعدين تارة وبين الفتاة والكهل تارة أخرى اختار الجلوس بجانب الفتاة لدواعٍ أمنية، كما أنّ قلبه لم يطمئن لنظرات ذاك العسكري الكهل، فسار باتجاه المراهقة بحذر وجلس بجانبها دون أن يحييها، دون حتى أن يلقي ولو بنظرة واحدة عليها واضعاً حقيبة ظهره التي كان يرتديها بينهما ليخلق جواً من

الطمأنينة لقلبه القلق من احتمالية ظهور مفاجآت غير محمودة العواقب، خصوصاً لكون أية عواقب غير مقبولة بتاتاً في حال ظهورها في ذاك الوقت بالتحديد.

أخذ يحيى يتفحص الركاب الذين يتشاركون ركوب الحافلة، ولم يكن ليقصد من ذلك محاولة ربطه لنفسه معهم ليستشعر بأحوالهم وبأحوال أسرهم، وبالطبع لم يكن ليقصد مواساتهم وتقديم العزاء الاستباقي لهم، بل كان يقصد من ذلك شحن نفسه بنفسه بشكل أكبر وأعمق للإقبال نحو مبتغاه بنفسٍ مشحونةٍ لدرجاتها القصوى.

نظر يحيى في البداية ناحية يساره فشاهد امرأة مسنّة يرافقها شابٌ في مقتبل عمره، كانت على ما يبدو ثرية بينما بدا هو منهكاً صحياً، نظر أمامه فوجد رجلاً عجوزاً يتكئ بخده الأيسر على عكازته الخشبية السوداء والتي بدت ليحيى من نوع خشب الإبنوس الذي امتلك والده عكازةً مثلها لغرض الزينة لا أكثر (والإبنوس خشب أسود صلب يمكن صقله، يوجد في أماكن كثيرة، وأما في البلاد العربية فلا يوجد سوى في جنوب السودان)، كان العجوز نحيلاً وقصيراً ويرتدي بذلة رسمية تبدو من مقتنيات زمنه الغابر، وبجانبه كلب أبيض أليف كبير وعجوز هو أيضاً وهو الوحيد الذي أثار شفقة يحيى من بين كل الركاب. وشاهد بجانب العجوز من الطرف الآخر شاباً وشابةً يبدوان على علاقة عشق يرتديان ملابس طبية، طبيب وممرضة وكلاهما بهيئة غير عربية على الإطلاق، باستثناء يحيى كان جميع الركاب بهيئات غير عربية!

وعلق ببال يحيى أنه شاهد في الحافلة أثناء عبوره لها امرأة ثلاثينية تحمل في حجرها طفلاً رضيعاً تبدو من لباسها وهيئتها وتصفيف

شعرها أنها عاملة في مجال البنوك أو ما شابه ذلك، تجلس مباشرةً أمام الكهل العسكري الذي ظل على حاله مع هاتفه يجلس وحيداً على مقعده. وبهؤلاء اكتفى يحيى فأقلع عن تفحص ركاب الحافلة.

كانت الإنارة في طريق الحافلة متوفرة جيدةً جداً خصوصاً لمرافقة طور البدر لأحداث قصتنا، وأنا على أشد الثقة بأنّ طور البدر لا يرافق الأحداث عبثاً، وكذلك الأمر كانت حركة السير تميل للنشطة بشكل عام ومزدحمة بعض الشيء في بعض الأماكن بسبب أعمال حفريات بسيطة في عدة نقاط عمل.

كان يحيى على علمٍ ودراية تامّة بأنّ عليه أن ينجز مهمته قبل أن يبدأ الغد و لم يفصله عن غده إلاّ ساعتان فقط، وعليه أن يرتحل قبل انتهاء هذه المهلة، وهذه المهلة طويلة إن كان قد حسم أمر رحيله مسبقاً بشكل قطعي، فقد أتمّ وصوله للحافلة ويعدّ وصوله لها أصعب ما في الأمر من بعد اتخاذه قراره.

دائماً ما كانت والدته تسأل الله له الشهادة، أرادته أن يعيش الموقف الكريم الذي يقول فيه سبحانه ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: 34-35)، كانت تدعو عقله وقلبه ليتفكرا بأنه يا ترى كيف سيكون الشعور المرتبط بهذا الحدث؟ ألا يستحق منا الكثير من التضحيات؟

أغمض يحيى عينيه من بعد جولتهما السريعة في الحافلة، وأراح رأسه على ظهر مقعده، أراد بذلك أن يضع الأثقال التي تنهك كاهله على الأرض مؤقتاً ليستريح لبعض الوقت فيكمل لاحقاً مسيره الأخير بنشاط أكبر، فقد أنهكته الطريق التي أوصلتها للحافلة هذه أشد الإنهاك.

وحالما أغلق عينيه شاهد نفسه في حلم يقظة؛ وحيداً في الحافلة، كانت الحافلة متوقفة تماماً، فنزل منها متوجساً فاستقبله سهلٌ مكتظةٌ بشقائق النعمان الحمراء، كانت تمتد على مدى بصره في كل الاتجاهات، كان مشهد السهل الأحمر ساحراً للغاية لدرجة أنه أجبر شفتي يحيى (في الواقع لا في اليقظة) على الاستقرار على حالة من الابتسام رغم كونهما متضامنتين مسبقاً معه على البقاء على حالة الإطباق على الصمت، إلى أن سمع فجأةً صوت انفجار مدوٍ بالقرب منه.

وعلى إثر صوت الانفجار المرعب المجهول المصدر فجّرت أرض السهل على الفور ينابيع دماء وفتحت أبواب سمائه على دمع منهمر وتبدلت شقائق النعمان الحمراء تدريجاً بجثث عربيةٍ مدماة، ملامحها كلها عربية ومدماة، بدأ يتدرّج تبديل الشقائق الحمراء من بعيدٍ من الأفق حتى وصوله للقريبة منه، تبدلت كل الشقائق الحمراء لجثث عربية مدماة، باتت الجثث على مدّ البصر! هل لكم أن تتخيلوا ذلك؟ جثث على مد البصر!

للمعلومة حدث هذا المشهد حقيقاً لا خيالاً مراراً وتكراراً في أرض فلسطين! ورغم كمّ الدماء المرعب ورغم التعداد الهائل للأجساد الملقاة في كل مكان، لم تفُح من السهل سوى رائحة عطر المسك! فعبق بها أنفه.

أخذ يحيى يتجول بين الجثث مذهولاً وما زاد من ذهوله أكثر إلاّ تبدّي العديد من أحواض الشهداء أمام عينيه، كانوا كأحواض الزهور تماماً، أحواض لا تحصى هنا وهناك، في كل مكان! أحواض تُعجب أهل الإرهاب لتغيظ بها أهل الأرض وأهل الإيمان، يرافق كل

حوض منها لافتة صغيرة تخبرنا وهي البكماء عن حاصدها وجامعها وهو الذي بذل بملء عقيدته الكثير لينتقيها فيقطفها ويجمعها محتفظاً بصورة عنها لدواعي التوثيق التاريخي للإجرام لا أكثر، ولا سيما أنّ اللافتة تخبرنا أيضاً عن تاريخ قيامه بإجرامه.

في البداية شاهد يحيى حوض بلدة الشيخ العائد لسنة 1947، الذي نفذته جماعة الهاغاناة الإرهابية، وشاهد بجانبها حوض دير ياسين العائد لسنة 1948 الذي نفّذته عصابات شتيرن والأرغون والهاغاناة الإرهابية، وشاهد بجانبها حوض أبو شوشة العائد لسنة 1948 الذي نفذه لواء جعفاتي الإرهابي.

والقائمة تطول وتطول، فكان مما شاهده أيضاً حوض مدينة اللد العائد لسنة 1948، الذي نفذته وحدة كوماندوز بقيادة المجرم موشيه ديان، وحوض الطنطورة العائد لسنة 1948 الذي نفذته كتيبة 33 الإرهابية التابعة للواء الكسندروني المجرم، وبجانبها شاهد حوض قبية العائد لسنة 1953، الذي نفذته قوات إرهابية بقيادة السفاح أرييل شارون، وشاهد كذلك حوض خان يونس العائد لسنة 1956 الذي نفذته قوات الجيش الإرهابية، وشاهد حوض المسجد الأقصى العائد لسنة 1990 الذي نفذه إرهابيّو أمناء جبل الهيكل، وشاهد حوض الحرم الإبراهيمي الذي نفذه الأميركي الصهيوني جولدشتاين الذي وصفه لاحقاً المستوطنون بالقديس، وتعدّ كل هذه الباقات من المشاتل الفلسطينية! فهل عرفتم سبب استيطان وتكاثر شقائق النعمان في أرض فلسطين؟

بالإضافة لذلك عاين يحيى عن قرب حوض صبرا وشاتيلا التي تم اقتطافها من أرض الجار العزيز لبنان وهو عائد لسنة 1982، نفذته

قوات الاحتلال الإرهابية بمساندة ميليشيات مسلحة قذرة، ومن أرض لبنان أيضاً ألقى نظرة على حوض قانا العائد لسنة 1996 والذي نُفذ بدوره بأيدي قوات الاحتلال الإرهابية.

وبينما كان يحيى يتعثر بأحواض الشهداء فاجأه هاجس مريب أمره قائلاً: "غادر، غادر الآن يا يحيى، أترك هذه الأرض الدامية فهي نهائياً لم تعد لك"، التفت يحيى ناحية الصوت ثم لنفسه ثم التفت من حوله وعن جانبيه ومن خلفه، نظر للسماء وأطال النظر فيها ثم جعل مستوى نظره ينتصب أمامه، صمت وصمت، حاول النطق فإذا به يفشل، كان لسانه عاجزاً، يمر بحالة شلل!

تنهدت روحه بحزن عميق على إثر اكتشافه لحالته المفاجئة وما هي إلاّ ثوانٍ قليلةٍ طويلة حتى جاءه صوتٌ مجهولٌ وأجاب عنه قائلاً: "لا لن يغادر يحيى! *مستحيل أن أغادر فلسطين، فقد نذرت نفسي لله ثم لهذا الدين، إما نصر أو استشهاد، إنّ الحرب ضد الكيان الصهيوني يجب أن تستمر إلى أن يخرج اليهود من كل أرض فلسطين*".

ابتسم يحيى ابتسامة المنتصر وقال في نفسه: "إنه عياش، قطعاً إنه يحيى عيّاش"، تابع يحيى الالتفات من حوله ثم تابع حديثه في نفسه قائلاً: "إنني أحفظ كل ما نطق به، وهذا الكلام كلامه ولا بد أن يكون هذا الصوت هو صوته أيضاً، كم هو مرحبٌ بك وبصوتك يا عياش يا يحيى!".

أثناء ذلك شاهد من بين أحواض الجثث مجموعةً من الأحواض أضخم من التي سبق أن رآها، وعند اقترابه من أحدها وجد مكتوباً على لوحةٍ معلقةٍ عليه: "حوض انتفاضة الحجارة (الانتفاضة الفلسطينية الأولى) ويشمل الحوض 1300 زهرة يتخللها 160 شوكة قذرة"!

عاود الهاجس حديثه مع يحيى متسائلاً: "يحيى عليك بالرجوع، فمن سيهندس التفجيرات من بعدك؟ من لجيل المقاومة سواك؟"، فأجاب عنه الصوت مرة أخرى قائلاً: *"لا تنزعجوا فلست وحدي مهندس التفجيرات، فهناك عدد كبير قد أصبح كذلك، وسيقضّون مضاجع اليهود وأعوانهم بعون الله"*. ومع هذا القول الثاني تعمق إيمان يحيى ويقينه بأنّ الصوت هذا صوت عياش فهذا القول من درر كلامه رحمه الله.

وبعد ذلك بقليل وعلى يسار حوض انتفاضة الحجارة وعلى مقربة منه وجد يحيى حوضاً آخر أكبر وأحدث كتب على لوحة معلقة عليه: "حوض انتفاضة الأقصى (الانتفاضة الفلسطينية الثانية) ويشمل 4412 زهرة يتخللها 1069 شوكة قذرة"!

عاود الهاجس بثّ سمومه فقال: "ارجع لعائلتك، من لهم من بعدك، ألا تنظر لما ينتظرهم من البلاء؟"، فعاود الصوت مجيباً عنه مرة أخرى قائلاً: *"لا شك بأن العائلة تعاني، ولكن هذا ابتلاء من الله عز وجل، وهو القائل:* ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31]، *أسأل الله أن يكتبنا في الصابرين"*.

أثارت هذه الهواجس غضب يحيى واقترب صبره على النفاد، إلاّ أن الهاجس استمر بمزاولة بثه لسمومه فعاود عليه الكرّة متسائلاً: "يا لك من أنانيّ، ألا تخشى عليهم النفي؟ البقاء خارج الوطن؟"، هنا وبعد هذا التساؤل بالتحديد تمكّن يحيى من النطق أخيراً فصرخ محطماً قيود صمته قائلاً: "لا، أنا لا أخشى عليهم من أحد، إنّ في النفي من أجل الوطن المسروق صورة من صور المواطنة الصالحة المأجورة بإذن الله من الله، وما كان لله لا تُخشى عاقبته أبداً".

أضاف الهاجس متوجساً: "اللجوء للخارج؟ بـــلا مـــأوى؟"، أجاب يحيى: "لن يعزّ عليهم الحصول على خيمة وهم من لن يحتاجوا لأكثر منها حتى يحين موعد العودة، وإن عزّ الحصول على واحـــدة منها فسينصّبوا من كسرة أرضٍ وقطعة سماء واحدةً لهم".

الهاجس: "بلا أثاث؟"، أجاب يحيى: "إن أهم قطعـــة أثـــاث في خيمة اللاجئ هي يقينه اليقظ بالعودة".

الهاجس: "ألا تخشى سبات الأمة من بعدك؟"، أجـــاب يحـــيى: "بالتأكيد لا، إنّ في وجه طفل واحد من أطفال غزة (علـــى ســـبيل المثال لا الحصر) ما فيه كفاية لإيقاظ كل الأمـــة وتأليـــب قلوبهـــا وضمائرها وعقولها ضد عدوها الأقذر".

عاود الهاجس اليائس المحاولة للمرة الأخيرة معه بسؤالٍ أخـــير فقال: "يحيى إنني أدعوك للانضمام إلينا، ألا ترى أن الكـــثيرين مـــن سياسيّي البلاد معنا وفي صفّنا؟ سواء أكانوا معنا في السر المفضوح أم في العلانية الوقحة؟ ستنتصر يا يحيى معاً، سننتصر".

"لا داعي للتفكير" قال يحيى في نفسه ثم قرأ فيها قولـــه تعـــالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصـــص: 17]، ثم قال: "ليسوا بسياسيين، إنهم كتجار الـــدقيق! مـــا أشـــبه السياسيين الذين تتحدث عنهم بتجار الدقيق، كيف يحصدون ثورات شعوبهم بمناجل الخباثة، يدرسونها بفصلهم عن واقعهـــم، يعجنـــوهم بمحن الحياة المختلقَة، يخبزونهم على نيران التفرقة، ألا إنهـــم ليســـوا بطهاة، إنهم حماةٌ للغزاة...".

فجأة أفاق يحيى مذعوراً من حلم يقظته إثر حالة هلع انتابـــت الحافلة، لم تكن الحافلة فقط هلعة، بل الطريق العام كله وما يتداخل

معه من الطرق الفرعية، وتبيّن ليحيى لاحقاً أنّ شرارة الهلع انـــدلعت من جهة الغرب، غرب مدينة حيفا.

كان صوت العويل والبكاء يصدحان من كل مكان في المدينـــة المحتلة، طال شرقها بسرعة فائقة، لدرجة أنه ذيع بفرح مـــن مـــآذن المساجد المسوّاة بالأرض وقرع بابتهاج مع أجراس الكنائس المهدمة، جزم يحيى بأنّ السماء شاركت الأرض فرحتها، الشارع فزع وفـــزعٌ هو كل من وما كان فيه، باتت المدينة برمتها فزعة.

"إنه أيهم! نعم إنه هو بالتأكيد، لا بدّ من أنه تمكن من الوصول لمحطة حيفا – حوف هكرميل، وفجّر فيها نفسه"، بهذا الكلام حدّث يحيى نفسه.

لقد استمات أيهم (صديق يحيى) ليحصل على شرف تنفيذ هذه المهمة التي تمت في محطة حيفا – حوف هكرميل، خصوصاً عنـــدما اقتصر الأمر على الاختيار ما بينه وبين صديقه حسام (صديق مشترك بين يحيى وأيهم).

إلاّ أن قرار مجموعتهما المناضلة صبّ بالإجماع لمصـــلحة قيـــام أيهم بالمهمة نظراً لإلحاحه من باب ومن باب أولى نظراً لاحتيـــاجهم لمهارات حسام في بعض الأمور الأخرى التي يتقنها بشكل أكبر مـــن كل من كان في المجموعة، إنّ لحسام بصمة ساحرة فريدة لا يملكـــون مثلها في مجموعتهم، وسيفتقدونها بالتأكيد إن غاب للأبد عنهم، لذا تم إرجاء موعد انطلاقته الأخيرة لأجل غير محدد.

كان مما سعى أيهم من أجله من ضمن جملة ما سعى إليه هـــو تحقيقه لأمنية جده أحمد (جده من والدته والمعروف بأبـــي زاهـــر) التي أيقن بتحققها رحمه الله، إذ دائماً ما كان يـــدعو ربـــه ويقـــول

لحفيده: "﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: 5]، والذي نفسي بيده إنني لأثق يقيناً بأنّ الله سيرزقني ما حُرمت أنا نفسي منه فيكون من صُلبي شهيد يوماً ما، وإني أحسبك إياه يا حفيدي"، وعندما أعلمه أيهم بإرادته الصادقة للوصول إليها دأب على دعائه لله: "اللهم ارزق أيهم الشهادة في سبيلك".

كان أيهم الحفيد الأقرب لقلب الجد أحمد رغم كونه الحفيد الثالث له لا الأول، ورغم كونه من ابنته الثانية لا الكبرى، لقد كان الأقرب لقلبه لكونه أيهم لذاته، لشخصيته وأخلاقه ذاتها وذات أيهم كافية لأن يصل لتلك المقربة.

وبسبب تقارب قلبه لقلب جده، حظي أيهم بتقرب ألصق من ناحية المكان وأطول من ناحية الزمان بجدّيه بشكل يفوق ما حظي به أحفاده الآخرون، في البداية كان يتم هذا التقارب ويساند بسبب ظروف عمل أسرة أيهم، إلاّ أنه لاحقاً عندما كبر وبدأ يستقل بنفسه بات يتم تقاربهم بسبب إرادته الذاتية لذلك، لذا عاش معهما أكثر وتشارك معهما تفاصيل حياتهما المعاصرة كلّها بحلوها ومُرّها، وحلوها كثيرٌ سواء من ناحية الكم أو من ناحية درجة الحلاوة، ومُرّها حنظل وعلقم وكله يعود لسبب واحد فقط! فلا مُرّ لديهم من بعد مُرّ حادثة اختفاء زاهر.

إنه من الجليّ لنا أن نرى أثر قصة الجد أحمد مع ابنه زاهر (رحم الله الأول وأعلمنا بما حل بالثاني)، فالقصة هذه تعدّ من أقسى ما أضاف التشجيع لأيهم لدخوله في سلك النضال (إذ يعود أصل التشجيع نابعاً من عقيدته في المقام الأول والأبرز).

اعتاد بكاء الجد أن يكون حاضراً في كل ليلة على مدار أعوام طويلة قبيل نومه، محاولاً غسل الغموض الذي يكتنف حادثة اختفاء

زاهر المريبة، إذ كان يطالبه دمعه بالسقوط كل يوم كمحاولة لاستحضار زاهر من موطن اختفائه، وكانت مواساة الجدّة ببكائها هو الآخر حاضراً مع بكاء زوجها كمحاولة منها لحمايته من الانهيار.

وأما أيهم فاعتاد أن يكون هناك بلا حراك يشهد بكاء جده ويشهد جراءة ردة الفعل عليه من بكاء جدته، لم يشاركهما البكاء قط رغم رغبته المتجذرة العميقة في ذلك، وبدلاً من ذلك اختار أن يمتصّ رحيق الثأر لا الانتقام تماماً كما عبرت *إيليف شاباق* في كتابها بقولها: *أيها الثأر الجميل. إن البرء يحتاج إلى فترة طويلة، استثمار مجزٍ لكنه يستغرق وقتاً. أما الانتقام فهو عمل سريع.*

ومع مرور الليالي الباكية ارتشف أيهم الغضب ووزعه على أنحاء ألمه ليبرأ بالانتفاض، واحتسى الغيظ وأجج به حنقه، كان يتجرع بدموعهم المؤلمة العجز ليوقد به تحت ما بقي من صبره النيران.

*** يجب التنويه بأن قصة زاهر قصة حقيقية..**

سافر زاهر للولايات المتحدة الأميركية للدراسة الجامعية في الثامنة عشرة من عمره، وبعد مرور قرابة السنتين على سفره اختفى في ظل ظروف غامضة واختفى معه كل ما يتعلق به، حتى هذه اللحظة لا يعلم أحدٌ عما ألمّ به، ولا يوجد من يهتم لذلك سوى من بقي من عائلته.

إذاً أنهى أيهم مهمته، وحسب الخطة المعدّة والمتفق عليها من قبل المجموعة حان الآن وقت قيام يحيى بمهمته لإتمام العملية وهذا ما حدث بالفعل، أغمض يحيى عينيه باحثاً عن طريقة لاستجماع كل

ذرّات طاقته وتمتم في أثناء ذلك ذاكراً قوله تعالى: ﴿... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20]، ثم دعا ربه قائلاً: "اللهم قد مسّ بلادنا الضر وأنت أرحم الراحمين، اللهم إن يكن النصرُ صدرَ هذا اليوم ولّى فإن غداً لناظره قريب، اللهم عجّل الفرج للأمة، اللهم وأزل عنها همها وغمها".

ثم خطر بباله ما قالته والدته عما قرأته في كتاب *نسيان* عن الموت إذ قالت كاتبته:*إنه الحقيقة التي يصغر أمامها الجميع*، وكيف أن والدته تابعت ما كتبته الكاتبة وقالت: "أستميحك عذراً أيتها الكاتبة فإني أود أن أضيف لقولكِ هذا استثناءً صغيراً ألا وهو: "إلاّ الشهادة!".

فالموت من يكون أمامها صعلوكاً صغيراً! وإلاّ لِمَ يتمنّى الشهيد العودة للحياة ثم لها في سبيل الله مرات ومرات ومرات أخرى؟ أيها البشر ألم تسمعوا ما روي عن محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَدِدْتُ أَنِّي أُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، رواه البخاري).

وحدها الشهادة من ترفع من هامة الروح في مواجهة الموت فتزيدها كبرياءً وأنفة، وحدها من تحقن الجسد بمصل نشوة الاختراق أو الدهس أو التمزيق، فيقول من يقدم على الشهادة: "ها أنا أيها الموت فاقترب! ها أنا أيها المحتمّ فبجسدي أقدم واصطدم! كيف لا يدعون الموت وقد حظوا على صكوك غفران مكفولة من الله لخطاياهم! ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله هي الجنة".

"هيا انهض" قالها طيف الشهيد عياش الذي فاجأه بوجوده على متن الحافلة، "متى ركب الحافلة هذا الطيف؟" قالها يحيى في نفسه.

بدا الطيف مبتسماً ملوحاً بيده جالساً بهدوء بجانب الكهل العسكري في المقعد الفارغ الذي تردد يحيى باختياره عند صعوده للحافلة، كان لسان حال يد الشهيد عياش الملوحة يقول: "هلمّ إلينا يا يحيى"، ابتسم الطيف ابتسامة ثرية بالسعادة بل إنها كانت ثرية بالسعادة الأقصى وقال: *على الكريم أن يختار الميتة التي يجب أن يلقى الله بها؛ فنهاية الإنسان لا بُدَّ أن تأتي ما دام قدر الله قد نفذ.*

قال يحيى في نفسه: "إن المصير محتمّ، إلاّ أنّ الطريق المؤدية صوبه ترفع من شأنه أو تحط منه"، ما بين الخوف والشجاعة، ما بين اليأس والأمل، ما بين الشك والعزم فتح يحيى عينيه وانتصب في مكانه، قرأ في سره قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

تحرّك من مقعده واتجه صوب منتصف الحافلة وهو يقول في نفسه: "وجب التنويه بأن للدم العربي ثمناً وأن للدم المسلم أثماناً، أيها القوم الصهيوني المستحدث من العدم إن مآلكم إليه مهما طال بكم الزمن، وأطمئنكم بأنّ زمانكم سينتهي عمّا قريب! أعدكم بذلك حتى وإن استمر عهد الخيانات الحافل من أجل وجودكم.

ترونه بعيداً ونراه قريباً"، ثم رنّم بصوت منخفض بيت الشعر الذي قاله الصحابي الجليل حبيب *بن عدي* رضي الله عنه عندما قتله المشركون:

ولست أبالي حين أُقتــل مســلماً

على أيّ جنبٍ كان في الله مصرعي

وأعاده بصوتٍ أعلى وأعلى، كان شعوره بالفخر أكثر طغيانــاً على شعوره بالخوف، واكتسحت ثقته بالله على تردده المشــروع في الإقبال على العملية، أنشد بيت الشعر ثلاث مرات بنغمات مختلفــة متعاليةً مبتسماً ثم هتف بملء صوته "الله أكبر".

البعد الخامس

مصادفة غريبة

"حيث آمالك كلها خير وأحلامك كلها جميلة، لا يقع الشـــر منك ولا يقع عليك. حيث تكون الطبيعة وجسمك وعقلـــك ونفسك متوافقة توافقاً موسيقياً تكمل به السعادة الإنسانية.

حيث تريد وحين تريد لا يحدده مكان ولا زمان، لا يحدده تعريف ولا وصف بعينه، فحيثما تطهرت نفسك، وحيثما أحببت حبـــاً خالصاً، وحيثما عملت عملاً جميلاً، فثم واديك المقدس".

الوادي المقدس
محمد كامل حسين

"حيث الآمال كلها خير، والأحلام كلها جمال، حيثُ لا شرّ منكَ ولا شرّ عليك، حيث تكون الطبيعة ونفسك وروحك وجســـدك مع روحي أجزاءً مترابطة توافق موسيقى السعادة الإنسانية.

هو ذكرى لتحقيق الأحلام في المستقبل، حيث نريـــد وحينمـــا نريد لا يحددنا مكان ولا زمان، حيث أحببتك حباً خالصاً، حباً أبداً لن يموت".

مقتطفات من الورد
إبراهيم إدريس

إنه لمن الأكيد بالنسبة لي وبغضّ النظر عن الحيثيات والكيفية التي تم بها العثور على هذا التشابه سواء أكان مصادفةً أم متعمداً، مقدراً أم مختلقاً، وبغضّ النظر عمّن عثر عليه، وبغضّ النظر عن آرائكم المتعلقة به، كان هذا التشابه بدايةً لولادة رواياتي هذه "حافلة حيفا.. البعد الخامس"!

صباح حيفا في اليوم التالي..

تعليقات الجمهور:

- **سين** (مواطن نازح): إنني وبكل تأكيد أؤيد هذه الحادثة البطولية الرائعة وإنني أسأل الله تكرارها بكثافة أعلى وبعمق أكبر، وإنني أسأل نفسي وشعبي التمسك بها كخيار من الخيارات المطروحة أمامنا للمقاومة، فما هي إلاّ شكل من أشكال مقاومتنا المشروعة لدحر الاحتلال الغاصب القذر، ولا أعدّ ما حدث في الليلة الماضية إلاّ انتقاماً بسيطاً، بل بسيطاً جداً لأرواح بعض شهداء الأمة الذين قضوا على يد آلة الغدر الصهيونية القذرة.
- **شين** (مستوطن قادم من المهجر): بالطبع أنا لست مع الأعمال التخريبية الهوجاء هذه، فلم يُصِب ما حدث في الأمس من أعمال تخريبية سوى الأبرياء المدنيين العزّل! وبالنسبة لمن يعدّ هذه العملية رداً على مقتل البعض ممن قتلوا من جانبه، أقول له بأنه مخطئ تماماً، فمن قتل من جانبه قتل بالخطأ، وبالمناسبة قد قتلوا منذ زمن طويل وأعتقد أنه آن وقت نسيانهم.
- **صاد** (مواطن لاجئ): قتلوا بالخطأ! عجبي! كيف لفعل القتل أن يحدث بالخطأ؟ أليست حصيلة القتل موت؟ أليس

الموت بالحدث الذي لا يتكـــرر؟ ألا يعلـــم هـــؤلاء القـــوم المستحدثون أنّ في القتل سلبَ منحةٍ إلهيةٍ والسلب هذا جرم لا يغتفر؟ ألا يعلمون أنّ من استلّ سيفاً لا يقتل بالخطأ؟ أن مـــن أطلق مدفعاً لا يطلقه بالخطأ؟ أن من ألقـــى قنبلـــة لا يلقيهـــا بالخطأ؟ ألا إنّ الخطأ هو ما يعتري من يصف جريمـــة القتـــل النكراء بأنها واقعة بالخطأ!

وبالمناسبة لم يئن وقت نسيان شهداء شعبنا بعد، وأظنه لن يئن يوماً ما، إنّ حقنا بالثأر حق أبدي لا يطفئه الزمان ولا تبـــدده أحوال العباد وهو مقصد كل الشعب، ويكفيني أن أقول قـــول الشهيد *عمر المختار*: *لمن كسر المدفع سيفي فلن يكسر الباطل* حقي، لن يغلف النسيان يوماً ثأرنا.

- **طاء** (مستوطن قادم من المهجر): أرفض الإجـــرام والإجـــرام المضادّ، وإنني أُحمّل الطرف البادئ بالنزاع مسؤولية الأمـــر، إلاّ أنه يجب علينا الوصول لحل يرضي كلا الطرفين، وهذا ما يقوله العقل.
- **ظاء** (مواطن من السكان الأصليين): في قضية احتلال كمثـــل احتلال الصهاينة لأرضنا لن يوجد حلٌ قادر على إرضاء طرفي النزاع أبداً، وخصوصاً أنّ الطرف الأول لا يرضى بأنصـــاف الحلول ولا يملك ما يخسره بل ويسعى للعودة مهما كلّفه الأمر، وفي المقابل تجد الطرف الآخر لا يملك مكاناً ليفكر في العـــودة إليه إلاّ الشتات.

لذا أحمّل أنا أيضاً الطرف البادئ بالنزاع مسؤولية الأمـــر، ألا وهو الطرف الصهيوني ومنه أجد أنّ من حقنا استهداف كـــل

المهاجرين الصهاينة الموجودين على أرضنا المحتلة، فهجرتهم هجرة غير شرعية لدولة غير شرعية الوجود أصلاً.

- **عين** (عضو في حركة ما): إنها لشجاعة عظيمة أفضت لتقديم تضحية أعظم سعياً لإرضاء الله تعالى، رحم الله الشهيد البطل وغفر له، وألهم أهله الصبر والسلوان، ونصر أمتنا الكريمة على أعدائها.
- **غين** (تابع لمسؤول في حركة ما): إننا نهدي هذه العملية الكريمة للقائد المقدام، وإنها لبطولة عظيمة، وإننا لنقف معها جنباً إلى جنب حتى استرداد كافة أراضينا المسلوبة، رحم الله بطلنا الذي بذل روحه فداءً للوطن والقيادة، كلنا من أجل الوطن، كلنا من أجل القيادة.
- **فاء** (عميل لحكومة ما): إنها جريمة قذرة تهدف لزعزعة الأمن الذي توصلنا إليه عبر أعوام من المفاوضات المضنية مع الجانب الآخر، إننا نشجب ونستنكر هذه الحادثة ونَعِدُ بأننا سنتناول كلّ المتآمرين والمخططين والمشاركين فيها ونقدمهم للعدالة.

البعد الخامس.. المفهوم

اتفق العلماء على أن تشير الأبعاد الثلاثة المعروفة والشائعة للطول والعرض والعمق (الارتفاع)، وأضاف إليهم العالم الألماني آينشتاين عامل الزمن مشيراً إلى كونه البعد الرابع، "إن الكون الذي نعيشه ذو أربعة أبعاد وهي الطول والعرض والارتفاع والزمن"، على حد قوله.

وامتلكت حافلتنا كذلك مكاناً ثلاثيّ الأبعاد، على خط طول محدد ودائرة عرض معيّنة وضمن ارتفاع معلوم عن سطح البحر،

وامتلكت كذلك ساعة حدوثٍ ضمن يومٍ في شهرٍ في سنةٍ. ولكن! هل نكتفي بذلك؟ وهل يكتفي الطرف المقابل المعادي لنا بذلك؟ وهل يكتفي الجمهور الخارج عن دائرة الصراع بإحداثيات القصة المذكورة فقط؟

بالرغم من كوني أنا من كتب قصة الحافلة هذه وبالرغم من كوني وحدي من يحمل تفاصيل أحداثها المخفية ومراحل تنفيذها وبطائن وأسرار أبطالها، وجدت من يفسّر الحادثة بسهولة ويبرر وقوعها ويوضح مُبتغى مسبّبيها، وفي المقابل وجدت من يدينها ويستنكرها ويحدّد متآمرين مساهمين فيها!

ولكن ألا تجدون أنّ هناك أمراً ما لا يزال مبهماً في قصة حافلتنا؟ هل وجودها في مكان ثلاثي الأبعاد برفقة الزمن كفيل لتوضيح أمرها؟ أليست الأبعاد الأربعة مجردة من معرفة مسببات الحادثة ونتائجها وحقائقها والأمور المتعلقة فيها؟ ألا ترون أنّ آراء وتفسيرات وتطلعات الجمهور تعددت حول حادثة الحافلة وتناقضت بما فيه الكفاية؟ فيا ترى ما هي الحقيقة؟ ألا نحتاج لمعرفتها؟ ما هي؟

الحقيقة "البعد الخامس" لغوياً هي الشيء الثابت يقيناً، واليقين موجود وهو ما يصل إلينا من الدين غير المحرّف أو ما نصل إليه عن طريق العلم المثبت، وهي ما يحتاج إليه أي مجتمع ليتعايش على أساسه وهي ما يهدف القانون عادةً إليه. والحقيقة موجودة وما يحدث من اختلاف حولها يعود لاختلاف الإرادة الحقيقية التي ترغب بإيجادها، أو يعود لاختلاف العقول الساعية صوبها أو لاختلاف الأساليب المستخدمة للوصول إليها. إن الحقيقة ما قاله عنها *جورج أورويل* إذ قال: "في وقت الخداع العالمي يصبح قول الحقيقة عملاً ثوريًّا"، وما

قاله عنها *ماكس فريش* إذ قال: "أفضل الخدع وأسلمها هي الحقيقة البحت فلا أحد يصدقها"، وما قاله عنها *أندريه موروا* إذ قال: "الحقيقة الخالصة بمثابة السم لبعض الناس"، وأخيراً ما قاله عنها *بابلو بيكاسو* إذ قال: "كل شيء يمكنك أَنْ تتخيله هو حقيقي بالنسبة لك".

البعد الخامس.. الحافلة

الحقيقة أن الفتاة المراهقة الشقراء تدعى ليفني وهي من أصول أوكرانية، قدمت مهاجرةً مع والديها لأرض فلسطين، ونظراً لضعف تحصيلها العلمي قررت الانضمام لقوات الاحتلال الصهيونية المعروفة باسم جيش الدفاع (ويا لها من مفارقة، بأن يسمى جيش بتاريخ إجرامي كالجيش الصهيوني باسم يتضمن فعل الدفاع!) وكانت لا تزال ضمن السنة الأولى في الخدمة العسكرية الإلزامية وقت الحادثة.

وأما كتابها فكان القصة الخيالية التي تتحدث عن الأميرة الإغريقية المحاربة "زينا"، إذ كانت تحلم ليفني بأنّ تحقق أمجاداً عظيمة كأمجاد الأميرة على الأرض التي حسبت أنها باتت لها ولقومها المهاجر.

إنه من السذاجة الشديدة بمكان أن تؤمن المراهقة الشقراء بإمكانية تحقيق الأعمال البطولية الخيالية المذكورة في قصتها على ميدان الواقع، ولكنه من السذاجة أكثر أن تؤمن بأن الأرض التي تنوي القيام بالبطولة عليها باتت لها ولقومها وانتهى الأمر! هكذا وبالمجان!

الحقيقة أنّ الكهل الأسمر يدعى موفاز وهو مهاجر من أصول إيرانية، قائد لواء كبير في الجيش شارك بالكثير من العمليات

الإجرامية ضدّ الشعب الفلسطيني الأعزل من باب ومن باب آخر شارك بالقتال ضدّ بعض فصائل المقاومة المسلحة، قتل الكثيرين سواء بيديه القذرة أو بأوامر من لسانه النجس.

الحقيقة أنّ المرأة المسنة التي رافقها الشاب تدعى جولدا وهي من أصول أوكرانية أيضاً، وهي ثرية بمكان لأن تنفق جلّ ثروتها الهائلة على دعم قوات الاحتلال الصهيونية بكرم، وعلى النقيض من ذلك كان لبخلها الشديد الدور الأبرز لأن يوصلها لركوب الحافلة برفقة ابنها.

الحقيقة أن ابنها يدعى رابين وهو مدمن مخدرات من أشد طراز، بدأ يتعاطاها بعد مشاركته بإحدى المجازر الدموية المهيبة التي وقعت في حق الفلسطينيين منذ بضعة أعوام، وأرى أنه يستوجب عليّ الذكر بأنّ مشاركته بالمجزرة تلك كانت تطوعية نظراً لحداثة سنّه حينها، فلم يدفعه للتطوع إلاّ عشقه لاشتمام رائحة دماء الأبرياء، وتسببت مشاركته في إصابة بكتفه اليمنى سببت له شللاً في يده.

الحقيقة أن الرجل العجوز يدعى غوريون وهو من أصول بولندية، كان يعمل صحافياً في العلن وجاسوساً في السر، شارك في الكثير من العمليات الاستخبارية في العديد من دول العالم، وعند وصوله لسن التقاعد عاد لمدينة حيفا باحثاً عن الاستقرار.

الحقيقة أن العاشقَين الاثنين هما الطبيب بيريز المهاجر من بيلاروسيا، مع مرافقته في الحافلة الممرضة ليمور (وليمور بالإضافة للطفل الرضيع هما الوحيدان المولودان في فلسطين من ركاب الحافلة!)، كانا يعملان في مستشفى رمبام (والذي سمي رمبام نسبة للحاخام موسى بن ميمون)، وكثيراً ما كانا يرفضان المشاركة في

علاج الفلسطينين من سكان الداخل المحتل، وكثيراً ما شاركا معاً في قتل المرضى وأحياناً الجرحى بداعي الأخطاء الطبية المحتملة الحدوث!

الحقيقة أن المرأة التي كانت تحمل الطفل الرضيع تدعى كونداليزا، وهي مهاجرة من الولايات المتحدة الأميركية، قاضية في المحكمة العليا، شاركت بإصدار العديد من الأحكام المجحفة والمؤبدة على الكثيرين من الأسرى الفلسطينيين.

والحقيقة الأخيرة التي يجب عليّ قولها إنّ مصير ذاك الطفل المحاط بمجتمع مجرم كمجتمعه (إن كتبت له الحياة) واضح لا لبس فيه! على الأقل بالنسبة لي!

البعد الخامس.. الدافع

الحقيقة أنّ يحيى اتخذ من اسم والده أيوب الصبر فصبر حتى وصل لمراده وناله، وأنه اتخذ من اسم والدته فداء التضحية فأقدم بشجاعة وضحّى بروحه.

الحقيقة أنه اتخذ من هندسة والده الإنشائية (التي اتخذها لنفسه من بعده) عهداً لإنشاء الدروب نحو استرداد الوطن المسروق وبرّ بعهده (إذ تعدّ حادثة الحافلة خطوة من الخطوات الصائبة نحو البناء من أجل الأراضي المسلوبة حتى استردادها كافتها). قد تتساءلون، ألا تعد حادثة الحافلة هدماً؟ بلى، ولكن لا يهمّ فليس كل الهدم شر!

الحقيقة أنّ يحيى اتخذ من كيميائيّة والدته فكرة لأسلوب هدمه البنّاء فاستعمل من مضمونها ما لزمه ليتم أمره، والحقيقة أيضاً أن ما بين البناء والإنشاء والتحضير بالكيمياء وجب استحضار الهندسة ليتم تحديد المعطيات والتخطيط ومن ثم التوكل على الله وتنفيذ المهمة بنجاح.

الحقيقة أنه اتخذ من أول مناسبة لقاء جمعت بين والديه (مادة التربية الوطنية) منهجاً تربوياً فسار عليه حتى نهاية حياته، وهي النهاية التي كانت للوطن ووصل إليها ولله الحمد كما أراد على أتم حال.

الحقيقة أن يحيى اتخذ من جوزائية والده وعيها بأنّ المشاعر الدنيوية مؤقتة ومتقلبة، وأنّ شدّتها متحولة ومتغيرة، وأنه لن يدوم أحدٌ على حاله سوى الله، أي بمعنى آخر أنه أخذ منها فكرة أنّ عليه الإقبال على الله بأسرع ما يمكنه كيلا يتدخل الشيطان في حافلته مدخل سوء فيحاول بكل قدرته نزعها، فلا سعي أفضل من السعي لله.

الحقيقة أنه وجد نفسه يئنّ مثل جوزائية والده من التغيرات المفروضة من الغير، وأنه يسر مثلها عندما يكون سيد الموقف، لذا رفض تحكم الأعداء في حياته وحياة شعبه وقرر أن يكون سيد المبادرة والموقف فأقدم أشجع الإقدام لحافلته.

الحقيقة أنّ يحيى عشق عقيدته حد الجنون وكره المعتدي لحد الشروع لفعل القتل، عن سبق إصرار وترصد!

الحقيقة أنّ يحيى اتخذ من قوسية والدته صراحتها لحد لفظه بالقتل علانية أمام البشر، وأنه كره قيود الاستعمار والذلّ فحطمها، وأنه عشق السفر فسافر لحيفا ومن بعدها سافر سفره الأعظم.

الحقيقة أنه اتخذ من هوايات والده الكتابة والرسم والإخراج، آليات للتعبير عن توق روحه الحقيقي، فكتب بتلمسات يديه وبخطوات قدميه قصّة تضحية أرسل عبرها برسالة مضمونها أنه لا يزال هنا شعب لا يرضخ للإذعان، ما لبث فرسمها بدمه القاني مخرجاً للعالم حدثاً بطولياً يعود دور بطولته لابن فلسطين على أرضٍ

فلسطينية الأصل، وفي رواية أعمّ أخرج للعالم حدثاً بطولياً يعود دور بطولته لابن مسلم على أرضٍ إسلامية الأصل.

كما أنّ الحقيقة تتضمن أنّ يحيى اتخذ من اسمه معنى الشهادة وروحها، وأنه أخذ على عاتقه أمر جهاد الأعداء بقوة.

الحقيقة أنه اتخذ من أسديّته ولادته مع عقدة ثابتة، عقدة الخوف من الفشل، فأخذ بالأسباب على قدر استطاعته ليجنب نفسه الفشل في مهمته الأخيرة على سطح هذه البسيطة ونجح بتجنبه.

الحقيقة أنّ مثله مثل سائر الأسود يحيا بحقيقة كونهم ممن يمتلكون أرواحاً أبيّة لا تمسّ بسوء أبداً، فكان كالأسد في عرينه لم يمسّه سوء ولن يمسّه سوء بعدها.

الحقيقة أنّ يحيى أخذ من أثر السباحة على نفسه بعثوره على السكون المرعب غير المربك أثرا مهماً أثناء مسير حافلته، وأنه أخذ من أثرها أيضاً قدرةً عظيمةً على التحكم بانفعالاته وكظم غيظه وصبره قبيل لحظات تفجيره لها، الحقيقة أنه اتخذ من حبه للنحت فكرة أن ينحت من جسده آية للمقاومة وقام حقاً بنحتها أجمل نحت.

هل هذه هي كل الحقيقة حقاً؟

ولكن؟ ما هي النيّة الحقيقية التي سكنت جوف بطل الحافلة قبيل تفجيرها؟ ثم.. ألا تعدّ تلك النيّة صورة عن نيّة الكاتب الكامنة وراء سرده لكتاباته علينا؟

النهاية

كيف لمثل هذا التماثل أن يحدث (التماثل ما بين النصين المذكورين في بداية هذه النافذة)؟ هل هي سرقة كاتب لآخر في وضَحَ المكتبات؟ أم أنه نتاج تعبير شخصين مختلفين نقلاً عن نظرهما للوحة واحدة مُتخيلة من قِبلهما؟ هل هي حالة ولادة توأمية غير متطابقة المنشأ ولا الزمان من رحم الأفكار ذاتها؟ أم أن أحدهما قرأها عن الآخر واختزنها في عقله عدة أشهر إلى أن عجز قلمه فاستتر عن عجزه بها فأسالها لنا مرةً أخرى على هيئة أحبار؟

بالنسبة لي إني أؤمن تماماً بأنّ من حق الجميع إبداء آرائهم حول حادثة المصادفة المذكورة، وآمل أن تؤمنوا أنتم كذلك الأمر بأنّ من حقي أن أذكر رأيي المتعلق بها.

في يومٍ ما ومن بعد انتهائي من التحقق من مسوّدتي الأخيرة لكتابي السابق، قررت إعادة قراءتي لكتاب *الوادي المقدس* للمرة الثانية لرغبة في نفسي، وحدث أن عثرت على المصادفة الغريبة الموجودة التي تحدثت عنها، حقاً لقد كان شعوري مثيراً أشد الإثارة حينها!

كيف لا يكون مثيراً وقد شعرت لوهلة (وكانت الوهلة كافيةً لي) بأنني أسير مع مجرى الحروف من كتاب لكتاب، من كتابه القيّم لكتابي الحديث، شعرت باختراقي للمكان رغماً عن أنف الزمن الشامخ أمام الإنسان، وإني لأظنه شعور من يلقي بنفسه صوب الثقب الأسود ذاته!

بدت حادثة التشابه هذه (المماثلة للتطابق) في بادئ الأمر تثير السعادة في نفسي، ولكنها بالتدريج بدأت تثير مستويات الغرابة

عندي فارتقت بها لمستويات مرتفعة، وبأثر الغرابة المتنامية وجدت نفسي تواجه حالة صدمة، كان اضطرابي اضطراباً جماً ما بين الفرح والقلق والفخر والشك.

أصدقائي: هل صدّقتم روايتي السابقة المتعلقة بأمر المصادفة الغريبة؟ في الحقيقة لقد أضحى بالنسبة لي أمر تصديقها من عدمه غير مهم (وأعترف لكم بأنه كان مهماً قبيل أن أبدأ في كتابة هذا الكتاب)، وإنني لست هنا لأدافع عن شيء أو لأُثبت شيء، فأهمّ ما هو بالنسبة لي الآن أنّ الحقيقة الكامنة وراء حادثة المصادفة الغريبة موجودة لديّ وهي ما تبلور حولها فكرة هذا الكتاب.

ويحضرني قول الكاتب في كتابه *الشيطان يحكم: من الذي يستطيع أن يقول: لقد أدركت الحقيقة؟ من الذي يجرؤ أن يدعي أنه عرف نفسه؟ ليس من باب التواضع أن نقول الله أعلم، وإنما هي الحقيقة الوحيدة الأكيدة في الدنيا.*

بقلم أيوب

موسى: وبهذا أكون قد أتممت المستند الثاني الذي منحني إياه يحيى نقلاً عن والده، كانت رحلتي مع هذا المستند طويلة نوعاً ما عبرتها على أسطر أيوب الحبرية القديمة، ألقيت رأسي على ظهر أريكتي وأغمضت عينيّ أتفكّر فيها.

وبعد فترة من انقطاع التفكير فتحت عينيّ بسرعة من تنبّه لأمر ما قد فاته، وهذا بالفعل ما حدث لي حينها، تساءلت في صوت مسموع: "كيف لي أن نسيت قوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ، رواه

مسلم)، وها أنا قد بلغت من العمر ما قد بلغت و لم أحدث نفسي به من قبل!".

رحمك الله يا أيوب، كيف أرسلت لي من بعيد أشد ما أحتاج إليه حتى الآن، رحمك الله وبارك لنا في ابنك.

قرأت المستند الثالث بعدها، وأعدكم بأنني سأخبركم عنه لاحقاً، وأشبعكم به بما فيه الكفاية، وأما بالنسبة ليحيى فعاد لوطنه والتحق بدرب العمل، وتزوج بعد فترة فتاةً حييّة تدعى ياسمين، بارك لهما الله، وهاجر وعاد وأظنه هو من سيكمل لكم ما حدث معه.

الفصل الثالث

الربيع

أحداث مزهرة، فصل هانئ،
تطوراتها مبهجة
إنه الربيع يا سادة

ياسمين ويحيى ومقتطفات من الحياة

ياسمين: أنا ياسمين ولست ياسمينة كما يصرّ البعض بأن ينادونني رغم تنبيهي المتكرر لهم، الابنة البكر لوالديّ ولديهم من بعدي ابنة واحدة وثلاثة أبناء، مات لي أخ رضيع كان من المفترض أنه يصغرني بسنتين، كنت ولا أزال المفضلة لدى والديّ وإن حاولا إخفاء ذلك عن إخوتي، فأنا أقولها بفخر البكر ممن لديهم.

حظيت منذ طفولتي بعيشة هانئة جميلة، أعشق القراءة خصوصاً في مجال التاريخ، وأحب الشعر كثيراً وأحب قراءته وتصفحه على الأوراق لا بالصيغة الإلكترونية الحديثة، وأحب إلقاءه أيضاً، حتى وإن كان إلقائي له بلا أيّ جمهور يذكر، وأستمتع بحفظه في ذاكرتي وتخزيني له ما بين أوراق دفاتري، وأهوى الطهو وإعداد الحلويات، وأتقن البعض من الحرف المنزلية كوالدتي، إنّ والدتي بالتأكيد تتفوق عليّ بمراحل في هذا الشأن إلاّ أنني على الأقل أكتفي بتشبّهي بها.

وفي الجانب الآخر من حياتي تمكّنت من التفوق في مدرستي جيداً فأهَّلني تفوقي هذا لدخول تخصص الصيدلة في الجامعة الأردنية في عمّان، في الواقع رغبت رغبةً شديدة في دخول تخصص طب الأسنان إلاّ أنني لم أستطع بلوغه فقد تطلّب مني تفوقاً أشد رفعةً مما امتلكت حينها، *فليس كل ما يتمناه المرء يدركه*.

اسمي ياسمين كما قلت لكم، وأسماني والداي هذا الاسم على اسم زهرة الياسمين الخلابة، زهرة الياسمين الدمشقية بالذات، من فرط ما شاهدها والداي واشتمّاها في دمشق أثناء شهر عسلهما أحبّاها وأحبا أن يتذكراها بي ومن خلالي.

أرادا أن أنفتح للحياة كما تنفتح بجمال لا يقل عن جمالها وبشذاً لا يقل عن شذاها، وهذا ما شعرت به على مدار سنوات عمري معهما ومع العائلة بأجمعها إلى أن باغتتني سنّ الزواج داخلةً عليّ على عجالة عنوةً عنّي.

وحلمت كما تحلم كل الفتيات! كثيراً ما حلمت بتكوين أسرة دافئة صغيرة أكون أنا أميرتها (الوحيدة) الجميلة، المدبرة لشؤون رعاياها ولأمور قصرها، المحبة لأميرها والمعشوقة منه والمحبوبة من كافة رعيته، إلاّ أنني أخطأت حينما ظننت أن حلمي هذا يعود لزمنٍ في المستقبل البعيد وأنه سيتحقق بعد عمر طويل مديد، لم أنتبه قط إلى أنّ عدّاد السنين قد أسرى بي لميدان تحقيقه أو تفنيده لست أدري، وأن الأمر قد انتهى، لا أدري إلاّ أن قدميّ وطأتا هذا الميدان المقلق المؤرق بغتة.

إنه يحدث فجأة أن تجد الفتاة نفسها امرأة ناضجة، تنتقل من كونها الطفلة البريئة التي تحدّث الجميع وتشاركهم حياتها، لتلك المرأة المنظور لها كمطمع من المجتمع، سواء أكانت هذه النظرة من رجاله أم من ذواتهم من النساء.

وقد عبر كتاب *بيوغرافيا الجوع* عما يجول بخاطري بتعبير آخر إذ وجدت فيه: *إنّ الفتيات يطردن من ملكوتهنّ حين يبلغن الثانية عشرة من عمرهن*. ونظرات الرجال وذواتهم من النساء كافية لتستدلّ بها الفتيات على أنّ أمر طردهن قد تم بالفعل.

مخطئ من يظنّ أن الفتاة السويّة تسعد بمقابلة الرجال الذين يعتزمون الارتباط بها، بالله كيف لها أن تسعد! فمن هو هذا؟ ومن هم أهله؟ وهل يعرف الله حقاً أم لا؟ ولِمَ اختارها هي دون خلقه؟ هل هو جادّ أم لا، مناسب أم لا؟ هل هو طيب حنون، أم أنه مراوغ، مجنون؟ هل يبتغي حقاً روح المرأة أم أنه يكتفي بما دون روحها؟

حقاً مللت مسلسل الزواج، كلية الفكرة أصبحت مقيتةً بالنسبة لي، طالما أبكت مني مقلتي، فمنذ بلوغي الحادية والعشرين وحتى وصولي لمقتبل السادسة والعشرين وأنا أغرق في الوحل ذاته، وَحل مقابلة عيّنات ذكورية من المجتمع جلّها فاشلة، لن أنعتهم بغير ذلك فلم يكونوا كلهم ذاك الرجل الذي يستحقّ الذكر، ولا أنكر أنّ البعض القليل منهم يستحقّ الذكر إذ كانوا حقاً رجالاً، ولكن لكلّ منا نصيبه.

شاهدت الصغير والكبير، الغنيّ والفقير، الأبيض والأسمر، الطويل والقصير، النحيل والسمين، الملتحي ومن بلا شارب، المتعلم وغير المتعلم، المثقف وغير المطّلع، المتباهي والمتخاذل، جالست السياسي المتحزب واللامبالي المتجرد، وجدت من يملك الطموح ومن لا يؤمن بالأمل، رأيت من يعبد والديه عن طاعة ومن يتبع لهم كإمعة، من تتحكم فيه أخواته ومن يحمي من الكون أخواته، وجدت من يطمع بعشيقة جميلة ومن يطمح ليحظى بخادمة أنيقة، عاينت من يرغب في فتاة ليربيها على يديه جازماً في عقله الباطن "بكل وقاحة" فشل والديّ بتربيتهم لي مؤمناً بنجاحه هو كمربي (يا له من وقح)، ومررت بالمقابل على من يبحث عن فتاة ناضجة لتقوده في

معترك حياته (يا له من ضعيف مهزوز متواكل)، أجمل ما كان فيهم إيمان جلّهم المطلق بالظفر، أقسم لكم بأنّ أكثرهم من المجانين!

مللت فكرة التعرض للتقييم من قبل لجنة من النساء، وهن اللواتي يهدفن لرفع تقرير دقيق وشامل (وأعتبره أنا خاصاً وفاضحاً) متبعاً بتوصية خاصة عن كل ما يمكن الحديث عنه لسموّ ابنهنّ ليتخذ بدوره القرار بالخطوة التي تليها.

وكم أكره الفترة التي أجلس فيها من بعد رحيل هؤلاء النسوة أو من بعد رحيل ابنهنّ الفريد أحدّث فيها نفسي عمّا يفكرّن به وعمّا تتداوله ألسنتهن، هل وجدنني جميلة (تلك الجميلات)؟ رشيقة (تلك الرشيقات)؟ بيضاء (تلك الصهباوات)؟ زرقاء العينين (ذوات العيون الملونة)؟ مثقفة (تلك المثقفات)؟ متدينة (تلك المتدينات)؟

حتى وإن صدر الرفض مني منذ نظرتي الأولى التي أسقطها صوبه (وكثيراً ما تكون النظرة الأولى كافية للرفض بشكل قاطع)، كم أكره الاتصال الذي يخبر بعدم وجود النصيب وكم أكره أكثر أن يُترك الأمر معلقاً في السماء، في علم الغيب، إلى أن يحزن الزمن على حالتي ويعلمني بطوله لا بلسانه بأنّ هذا الباب قد أغلق من الناحية الأخرى منذ زمنٍ وانتهى أمره. فكما تعلمون لا يملك الزمن لساناً لينطق به إلاّ أنّ طوله يفي بالغرض، وما يعيب نطقه هذا إلاّ بطؤه المميت.

وبما أنّ الكثير من الرجال الذين يمرّون بأبواب المنازل ليقصدوا ما خلفها من الفتيات يصرون على وجود بعض الصفات الجسدية المعيّنة (إذ يغضون النظر عن الكثير مقابل القليل) في المرأة لتطابق آمالهم الكبيرة وشروط أمهاتهم الشديدة لإعلان موافقتهم المباركة

بالزواج، عليهم أن يعلموا أنّ من حق الفتاة أيضاً أن تتمنى ما تشاء في شريك حياتها من صفات جسدية كمدى طوله ومقدار وزنه ولون بشرته ولون عينيه وما إلى ذلك، وهذه الصفات مهمة للفتاة، إلاّ أنها قد تتغافل عنها من أجل أن تجد في الرجل من الصفات الروحية كالإنسانية والكرم والحنان وما إلى ذلك، أي بمعنى أن تجد رجلاً بالمعنى الذي يليق بكلمة رجل.

على عكس معظم الرجال الذين لا يتنازلون عن سنتيمتر واحد مفقود أو كيلوغرام واحد مسبق الوجود، يرفضون حقيقة هيئة الشعر التي تنصلح إن أرادت صاحبته بسهولة، وهم ذاتهم من ينخدعون بآخر مصطنع بسذاجة مهينة، وهؤلاء بالذات هم من يتباكون لاحقاً سوء الاختيار، ويتطاولون على الله بأنه ابتلاهم بما كتبه لهم من نصيبهم من النساء، ألا إنّ بلاءهم لا يتعدى ما احتوته رؤوسهم، ألا إنّ عمى العيون ابتلاء وعمى العقول بلاء.

وأنا على أشد القناعة بأنّه لكل طريقة تفكير لدينا ما يناسبها مما لدى الآخرين، فأنا كفتاة واثقة من وجود من يفكّر مثلي كفتى (وإن لم يوجد فلا بأس)، وواثقة أيضاً من وجود فتيات لا يفكرن مثلي أبداً ولهنّ ما يليق بهن من الفتيان، وبلا شك يعدّ الزواج ممن يخالفنا فكرياً ضرباً من ضروب الانتحار الذي علينا ألاّ نقحم أنفسنا به.

عجبي منكم أيها الرجال (المعظم لا الكل)! كيف تنعتون الفتاة التي ترفض الرجل الفقير بالمادّية؟ والغنيّ بالرعناء؟ والقبيح بالسخيفة؟ والوسيم بالمجنونة؟ وغير المتعلم بالمتكبرة؟ ثم كيف تتمنون لها بكل وقاحة البقاء وحيدة بلا زواج لتنفّسوا عن العقد التي سببها رفضها لكم؟

أيتها العقد النفسية للمعلومة أقول لكم: إنّ البقـــاء بـــلا زواج أرقى من الارتباط بأمثالكم، على المرأة الحرة الزواج من الشـــخص المناسب وإلاّ فلا، لا يوجد ما يدعو المرأة لأن تبيع مستقبلها من أجل ظلٍ فقط! ألا يسدّ ظل الحائط عن ظلّكم؟

وعجبـــي منكم أيضاً! إذ تستعجبون فكـــرة أن تُرفضـــوا أو تُعابوا، وبالمقابل ترفضون فتاة وفتاتين وعشراً وعشرين بأسباب وفي مجمل الحالات بلا أية أسباب تذكر، سوى أنكم تســـعون لتكملـــوا التجول في سوق الفتيات فلعلّ القادمة أجمل وأصغر! ولعل أهل التالية أثرى! ولعل تعليم المقبلة أفخم! اعلموا جيداً أنّ الفتاة الحرة تـــرفض كل من يعود منكم إثر انتهائه من جولته في التسوّق خالي البنصـــر، وإن حدّثت نفسها بالموافقة في عهد زيـــارتكم الأولى، فـــإن حقـــاً وجدتموها كما أردتم فلم أكملتم البحث بعدها؟

أما بالنسبة ليحيى فقد وجدته منذ لقائي الأول به (مـــن بعـــد سنوات الانقطاع الطويلة) يشاطرني أسلوب تفكـــيري وأفكـــاري ذاتها، وللأمانة إنّ هذا أول ما جذبني إليه، وجدته يحـــدثني بلســـانه عما يجول بخاطري، مرّ دون أن أنوّه له عن كل مخاوفي مـــن فكـــرة الارتباط والزواج وتكوين الأسرة ونجح بتبديـــدها نجاحـــا بـــاهراً، حدثني عن حاضره بعين العمل والجدّ وعن مستقبلنا بعـــين التفـــاؤل والأمل.

شاركت يحيى المعيشة في الحيّ ذاته منذ بداية عهد طفـــولتي، لم يفصل بين منزلينا إلاّ منزل واحد فقط وظل لفتـــرة طويلـــة منـــزلاً مهجوراً، لذا نعدّ ما كان بيننا مجرد حديقة لا أكثر، كـــان والـــدي يعرفه معرفة سطحية نوعاً ما، يميل لحبه نظراً لما كان يرى منه مـــن

سلوك في الحيّ ومسجده، ووالدتي صديقةٌ لوالدته كانت وحتى الآن تلتقيها أسبوعياً مرتين على الأقل.

أما أنا فكنت ألعب معه يوماً بعد يوم إلى حين دخولي سن التاسعة من عمري فانقطعت عنه، وكنت أحياناً أصطحب أختي الصغيرة معي، أختي التي لا تذكر من هذا الأمر شيئاً، بالطبع إنها لا تتذكر فعمر ذاكرتها بالكاد يتجاوز عمر فقاعة الصابون، أما أنا فبالإضافة لما عُرف عني من البصر النافذ أمتلك ذاكرة حديدية لا تصدأ ولله الحمد.

انحصرت أماكن لعبنا ما بين الفناء الأمامي لمنزلهم تحت شجرة الجوز الكبيرة التي كنا نستظل بها وبين فناء منزلنا الجانبي بجانب بئر الماء، كنّا نحب اللعب بالطين، في البداية كانت الفكرة فكرته وكثيراً ما توجسّت منها (في البداية) ثم عشقتها بسببه، كثيراً ما رفضت أمي لعبنا هذا خصوصاً عندما كادت أختي تأكل مما كنّا نعدّه ونلعب به، إلاّ أن والدته أقنعتها بالسماح لنا في ذلك، ونظراً لكونه طفلاً يتيماً لم تتشدد أمي بقرارها وسمحت لي باللعب معه. كان في الطين (بالنسبة لي) صيغة من صيغ التحرر، فبه تحررت من كوني مثالاً للفتاة الجميلة النظيفة الأنيقة التي يعدها والداها أنموذجاً صالحاً حسناً لإخوتها ليقتدوا بها، منحني الطين فرصة مساواة نفسي بالفتيان "المتسخين منهم"، مارست ما رغبت به فطرتي الطفولية ووجدت فيه إمكانية ممارسة الفوضى المطلقة والمعنى الفعلي الكامل لكلمة العبث.

كنت أعدّ بالطين ما يشبه المخبوزات والأواني المنزلية تاركةً له كل المجال لإعداد المجسمات الأخرى التي عَدّها مجسمات رجولية،

ومن يومها وأنا أستشعر بصورة من صور قوامته عليّ، وأقصد بقولي القوامة؛ المحافظة ورعاية المصالح، وللمعلومة وبشكل عام إنّ قيم المرأة هو زوجها أو وليها لأنه يقوم بأمرها وما تحتاج إليه، والقوامة تكليف على الرجل وتشريف للمرأة.

كنت أرى يحيى الأخ الأكبر وهو من كان في الواقع حينها الصديق الأقرب، كنت أرى فيه ذاك الرجل الصغير الذي يحارب الفشل من أجل إبهاري بما يمكنه أن يعدّه، جعلني أؤمن بلا قصد منه بأنّ في مقاومة الفشل صورة من صور النجاح، كنت أشجعه ليبدأ بإنشاء مجسماته وأسانده عندما يتعب أو ينقطع عنه إلهامه، بإمكانكم أن تقولوا إنني كنت كالحاضنة والمستشارة بالنسبة له.

يحيى: بعد تخرجي في الجامعة بسنتين تقريباً وبعد أن وجدت نفسي على أهبة الاستعداد الحقيقي والفعلي من الناحية المادّية والنفسية لمشاركة حياتي مع فتاة (وحقاً إن هذا الأمر يستحق الوصول لأعلى درجات الاستعداد)، وبمساعدة والدتي وتحت ظل ضغوطاتها المشجعة تقدمت لخطبة ياسمين (الفتاة التي تسكن قربنا في حينا).

كان اختيار أمي لياسمين بالذات نابعاً من عقلها في المقام الأول وهذا لا ينفي كونه نابعاً من قلبها أيضاً، وأنا أثق في اختيار والدتي ثقةً مطلقة، ولم تكن ثقتي لتصل للدرجة المطلقة برأيها لأنه يجب على الابن البار أن يثق دائماً بأمه، بل لأنني أعلم من هي أمي وكيف تفكر وكيف تتدبر الأمور وتفكر فيها وتحللها، فليست كل الأمهات على صواب! وإلاّ (وعلى سبيل المثال) فلمَ نشهد حالات الانفصال والطلاق المنتشرة على وتيرة عالية في أيامنا هذه؟ أعلم بأنّ هناك من

هي أفضل من أمي وأعلم بأنّ عليّ ألاّ أخشى أن أكون على العقوق في إيماني بذلك.

لا أزال أذكر ما قالته والدتي عنها أول مرة إذ قالت: "أحب ياسمين كما أحب زهرها وأحب زهرها كما أحب دمشقها وكم أهوى دمشق وكم أهوى زهرها وكم أهوى ياسمين".

بالمناسبة، إنّ اختيارها هذا كان موافقاً لاختيار عقلي أنا أيضاً، أما قلبي فلم ينبس ولو بنبضة واحدة مختلفة فحافظ وقتها على مكانه في منطقة الحياد رافضاً أن يدخل نفسه في دائرة صنع القرار، مع العلم بأنه لم يختبر معرفته ولو بفتاة واحدة في تاريخه، وأنا بدوري لم ألمهُ بل عذرته فلم يكن يعرف عن ياسمين "المعاصرة لتلك الفترة" شيئاً يذكر، فما فيه عنها لا يتجاوز القليل من الآثار الطفولية القديمة.

إنّ مقاصد الناس في الزواج كما تعلمون محصورة في بضعة أمور، فمنهم من يبحث عن ذات الجمال، ومنهم من يطلب الحسب، ومنهم من يرغب في المال، ومنهم من يتزوج المرأة لدينها، والدين بالذات هو ما رغّب فيه محمد صلى الله عليه وسلم وشدد عليه.

وأما أنا فبالإضافة لما رغّب به صلى الله عليه وسلم رغبت بأمرين اثنين مجرد رغبة فقط لا أقل ولا أكثر، أما الأول فهو أن تكون من أسرة كبيرة وعريقة أرتقي بها وترتقي بي، ولي من هذه الرغبة هدف واحد صريح وهو أن أوسّع على أبنائي معارفهم ومدارك حياتهم، وأن أوفّر لهم عرض المختلف من العقليات البشرية وأنماط الحياة اليومية فيتمكنون لاحقاً من الدراسة والمقارنة ما بين الخطأ والصواب (ولو بشكل نسبي)* وفي هذا الأمر نوع من أنواع الخبرة المطلوبة في الحياة، تماماً كما قال *جوستاين غاردر* في

كتابه *عالم صوفي* إذ قال: *قراءة ما فكّر به الآخرون يمكن أن تساعدنا على تكوين حكمنا الخاص على الحياة*، وكما تعلمون إن نتاج اندماج أسرتين مختلفتين (بشرط أن تكونا شبه متكافئتين) استنساخ لأفضل ما فيهما لمصلحة الأسرة الوليدة.

وأما الأمر الثاني فهو أن تكون مقاربةً لي في السن، ففي زماننا الحالي تتباين الأجيال تبايناً شاسعاً لا يخفى على أحد وأنا أجد في تقارب الأجيال (خصوصاً في زماننا هذا) فرصةً أكبر للانسجام، وبالإضافة لذلك أحب أن تكون طفولتي من نفس جيل طفولتها فتكون نشأتنا في نفس البيئة العامة سواء أكانت البيئة بيئة سياسية أو اقتصادية أو تعليمية أو تكنولوجية أو فنية أو حتى رياضية.

وفي قصتي مع ياسمين لم تكتفِ طفولتنا بأن تكون من نفس الجيل فقط بل إنها مشتركة ومندمجة في فترة من فترتها، لم أتخيل يوماً أن يكون لنا تاريخ مشترك ومستقبل واحد! أنا وزوجتي! حقاً يا لي من إنسان سعيد بهذا الأمر!

كنت أعرف والدها جيداً رغم احتكاكي القليل به، أما هي فأتذكرها طفلةً و لم أنسَ كيف كانت، أتذكر عينيها وقصة شعرها ونغمة صوتها ومدى لطفها، ورغم كوني فضولياً لم يعنِ لي أن أتخيلها بعد فترة انقطاعنا الطويلة إلى أن تمت قصتنا.

في الزواج تتداخل الشخصيات كما تتداخل جزيئات الأطراف المختلفة بعضها في بعض وتنصهر، وتداخلها هذا يتطلب منها التفكك قبيل عملية إعادة التركيب وفي ذلك ألم بلا أدنى شك، كذلك انصهارها يتطلب التضحية وتقديم التنازلات وفي ذلك ألم أيضاً لا غنى عنه.

إنّ أمر الزواج لا يعد بالأمر الهيّن على الإطلاق، فهو اندماج كونين منفصلين للإعلان في النهاية عن كون واحد فقط، أي بمعنى أن يفقد كل كون منهما قرابة نصفه وفي هذا تضحية ضخمة! وأجمل ما في الزواج ارتقاؤه بالإنسان وربطه بقيمةٍ أثمن خصوصاً إن اقترن بالحب، *فبالحب لا تكتشف فقط أنك ذكر، ولكنك تكتشف أيضاً أنك فلان وأنك اخترت فلانة بالذات ولا يمكن أن تستبدلها بأخرى*، هذا ما عبّر عنه الكاتب في كتابه *لغز الموت*.

ياسمين: في الزواج صعوبات وتحديات تماماً كما فيه من جمال ورونق، وصعوباته وتحدياته تختلف للمرأة عنها للرجل، فعلى سبيل المثال يفرض الزواج على المرأة علاقات أكثر وأعمق بكثير مما يفرضه على الرجل، فالمرأة مضطرة للغوص في عائلة رجلها الممتدة بشكل عميق وفي عائلته النواة بشكل أعمق، فتروها تدخل بيوت عائلته (الكثير منها) من غرف استقبالهم ومطابخهم وحتى غرف نومهم، ومما لا شك فيه أنّ في استغلال المرأة لضعف تأثير فارق الأعمار في العلاقات ما بين النساء مساعدةً لها وتخفيفاً لصعوبة هذا الأمر عليها، والفارق هذا كبير نوعاً ما بين الرجال.

إن المرأة تمتلك في الواقع ثلاث أُسر، واحدة ملك لها وأخرى ملك لها ولزوجها وأخيرة ملك لزوجها فقط وعليها أن توازي في ما بينها، أما الرجل فلا يملك سوى حياة واحدة أوسع وأشمل وكلها ملكٌ له.

ويتطلب الزواج في مجتمعاتنا من المرأة التزامات وأعمالاً وواجبات إضافية لعشّ زواجها عمّا اعتادت عليه في منزل والديها، وبشكل عام تقوم الفتاة في منزل والديها بالبعض منها فقط لكونها

أحد أفراد البيت لا أكثر، أما في عشّ زواجها فهي وحيدة إزاء كل شيء فتجد نفسها أمام تحديات أضخم وغير متوقعة بالصيغة الواقعية نوعاً ما.

لذا على الرجل إبداء الشكر الجدّي والكافي للمرأة على كلّ ما تقدمه من خدمات لمنزلهما المشترك، فالمرأة لا تبذل لمنزلهما حباً لمجرد البذل! بل كتعبير عن الحب وهناك فرق ضخم، أيها الرجال كونوا على ثقة بأنه لا توجد على سطح هذه البسيطة امرأة تحب قضاء عمرها في إعداد الأطعمة وتنظيف الأمكنة وغسل الألبسة وهذا ليس واجبها، وفي المقابل توجد الكثيرات ممن يحببن قضاء أعمارهن في الأمور المذكورة يصرفن بها شيكات الحب بهيئاته المختلفة التي قد لا يعي غيرها الرجال.

قد تتساءلون: لم تقوم المرأة بذلك؟ لقد وجدت نصف الجواب في ما يقوله الكاتب الرائع في كتابه *الشيطان والآنسة بريم* إذ قال: *إن لكل رجل جحيماً خاصاً به، وهو الحب الذي يكنّه لعائلته*، إنّي ورغم قناعتي الشديدة بمقولة الكاتب الجميل هذه ألومه، بالطبع ألومه فكيف يحتكر جحيم الحب على الرجل فقط؟ ألا إنّ جحيم المرأة أشد حرارةً وحرقة، وهذا برأيي النصف الثاني من الجواب.

كما أود أن أخبركم بأنني على قناعة بأنّ على كلا الزوجين المشاركة في الحفاظ على مقومات الزواج السعيد، وكما أنّ على الرجل عدم النظر خارج المنزل ليحافظ على سعادته في منزله، على المرأة ألاّ تستمع للألسن خارج منزلها، وكلا الأمرين يعود على كلا الطرفين، فالمرأة قادرة على النظر للخارج والرجل قادر على الاستماع للألسن الخارجة أيضاً وعليهما الامتناع عن هذه الأمور.

وقد حدث معي أنا شخصياً أن بدأت إحدى صديقاتي المقربات مني بشكل لصيق بالنفث في أذني بالكلام المسموم عن يحيى، كانت تنعته بما لا يلامس واقعه بتاتاً، وكانت تفسر أفعاله تفاسير غامضة وكانت تضع في حسباني الأسوأ كاحتماليّة لكل ما كان يخطط له، وكان هذا تماماً ما فعلته سابقاً مع صديقةٍ مشتركة بيننا وهي التي لم يعنِ لي كثيراً ما فعلته صديقتي الساحرة الشريرة معها وكم أنا نادمة على إهمالي بحقها، لذا حاولت تجنب التفكير في أمر صديقتي الشريرة مراراً وتكراراً إلى أن جاءت ذات مرة ونصحتني بالطلاق منه.

وهنا على نصيحة الطلاق بالتحديد توقفت وأطلت الوقوف كثيراً وتساءلت: هل أنا محسودة منها؟ أم أنني مكروهة (رغم كون حالها في الدنيا مشابه لدرجة كبيرة بحالي)؟ تذكرت ما قرأت ذات مرة سأذكره لكم:

"إنه يسهل على المكروه دائماً إلقاء الاتهام على كارهيه بداعي الحسد! ولكن على أي مائدة قَدمتَ لهم أيها المحسود الوليمة التي استحققت عليها الحسد؟ فعلى الظان بوقوعه في شرك الحسد وفي سبيل العلاج الضروري (لمصالح الجميع) الخروج من حالة التفوق الوهمي الذي يعيشه، حتى المتفوقون الحق لا يرون في تفوقهم إلاّ نتيجة ركوب مصعد البذل (مع توفيق الرحمن طبعاً)، فالتفوق الوهمي هو فقاعة تعزل المتوهم عن الكون فيرى نفسه فيها الأفضل، وبسببها يرتحل من الوقت الحاضر للماضي بعقله المعاصر فيرى عقله الآني أرقى من عقول الجميع ممن كانوا معه آنذاك في الماضي البعيد، فينتشي بتفوق حاضره على ماضي أقرانه (إن كان هناك من تفوق)، وللأسف تمنعه الفقاعة هذه من النظر لحاضر الآخرين، وإن حدث

ونظر إليهم فسيدّعي عليهم مرافقة الحظوظ لهم أو أن حالهم قد صلحت بالتزوير أو بمساندة الصدف!

ومن السبل المطروقة للتخفيف عن المتوهم إعاقته النفسية، التوقف عن الاستظلال بوهم العطاء، فمرافقتك لأحدهم لوهلة أو ليوم أو لسنة أو حتى لمجموعة سنوات ليست كفيلة بإلصاق عطائك به للأبد، مع العلم بأن العطاء متبادل! وهذا إن كان هناك أصلاً من عطاء!

العطاء الحق شيء منسي بالنسبة للمعطي، ورائحة عطره مرادفة لحياة المتلقي الشاكر، وخنجر مؤلم جداً في حلق الجاحد الذي يبيت بالعطاء الحاصل عليه حاقد.

وأودّ أن أنوّه لمن يغرد دائماً خارج السرب بأن يعلم بأنه يعاني من التوهم بالحسد أيضاً، فالتغريد هذا حالةٌ من حالات ضعف الشخصية، فمن فرط كون المرء نكرة يجد نفسه بلا وجود يذكر في المجتمع الكاره له نظراً لكثرة حساده بحسب وجهة نظره، فيبدأ بالتغريد دائماً خارج السرب لجلب الأنظار إليه ليقال ها قد غرد فلان، للأسف لا يستمع المغرد هذا لبقية كلام البشر، فمن بعد قولهم بها قد غرّد فلان، يقولون ها قد بدأت جولتنا للضحك.

أيها المحسود! زمن الحسد ولّى حين انتهى زمن العجائب، ففي يومنا هذا بات الإنجاز هو اللاشيء بالنسبة للزمن الغابر، قد قُرِنَ الحسد في الماضي للمهيب من الأمر، وبات الآن عندنا للتبرير وللإذعان للفشل! واعلم أخيراً أيها المتوهم بالحسد أنّ كره المجتمع لك بسبب نظرتك لنفسك لا لنفسك ذاتها، شافاك الله وعافاك".

بعد تذكري لهذا وجدت في صديقتي ما يكفي ليوحي لي بأنني بتّ مكروهةً لها، باتت حالتي الجديدة غير مقبولة بالنسبة لها.

وللأسف إنها تستخدم أسلحتها القديمة ذاتها التي استخدمتها مع صديقتنا في المرة السابقة.

أذكر أنني قرأت في كتاب *رجل تحت الصفر* قول كاتبه: *إن الناس لا يحبون بعضهم بعضاً بما فيه الكفاية، وهم حينما يبدون الحب يخفون الحسد، وحينما يظهرون الشفقة يخفون الحقد.*

كما ويحضرني أيضاً قول الأديب *طه حسين* في كتابه *جنة الشوك* إذ قال: *سأل الفتى: ما تقول في ضمائر بعض الأصدقاء حين يبسمون للأصدقاء؟ قال الشيخ: "لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً وملئت منهم رعباً".*

أصدقائي أتدرون أين تكمن مشكلتي؟ إنها ليست في ما باتت تكنّه لي من كرهٍ، فمن حق الإنسان أن يشعر بالغيرة بالقدر الذي تتطلبه منه شخصيته، إلا أنه من حقي الشخصي أن تُخفى عني هذه المشاعر البغيضة.

كما أنّ مشكلتي تكمن في العقول الغافلة التي تعتقد سراباً بأنها متقدة، تكمن مشكلتي عندما يستعمل المرء السلاح ذاته في مواجهة من كان معه يوماً ما في الخندق ذاته أو عندما يروي المرء رواية مختلقة على جمهور حاضرٍ ومتابع.

والله إني لا أزال أراها كالساحرة! وإني أتساءل أين تصنف هذه الساحرة نفسها على سلم المراتب (من مرتبة الملاك لمرتبة الشيطان) يا ترى؟ حقاً لا مكان يليق بها! ألا تعلم بأن سحرها لا يشمل الجميع؟ إنه كلما عمّ زاد النفور منها ممن لم يُعَم عليه؟ ألا تعلم بأنّ لسحرها

مفعولاً محصوراً على فترة من الزمن وإن طالت! ألا تعلم أنّ الصدمة التي يتلقاها مسحوروها على قدر تأخرهم في الصحوة من سحرها؟ بالله أين تصنف هذه الساحرة نفسها؟

وأنا؟ هل تتسع كلمة الفاجعة لما أصابني منها؟ عندما وصلتني حقيقتها متأخرة؟ بأن كل ما لي منها من نصح بُني على الخديعة؟ على الكذب والنفاق واستشمار الغباء؟ على تشويه ما في خارجي من جميل وترميم ما أُوجب هدمه في نفسي في الداخل من قبيح! كيف تمكنت من أن أصمد أمام أعين الجميع عندما تأكدت من أنهم كانوا على معرفة بحقيقتها! كانوا كلهم مشفقين عليّ منها!

ما يهمّ الآن أن كل هذا كان في الماضي السحيق، بارك الله لي فيك يا يحيى، يحيى كالعاصمة لدولتي، أمسك بزمام أموري كلها، أحاطني رغم احتوائي له، إنه الأثمن ممن هم في حياتي، يحيى إنه الأجمل ممن رأيت في حياتي وحتى ممن مرّ كعابر سبيل في خيالي، ووالله ليس في ما أقوله عنه من مجاملة! أصدقوني القول يا أصدقائي، كيف يمكن أن يكون هناك من هو أجمل منه خصوصاً بكونه يتسلح بأعتى ما للجمال من أسلحة؟ السعادة! إنها السعادة أعظم منتجات التجميل على الإطلاق.

كثيراً ما أتساءل عن توقيت بداية حبي له؟ وحقاً إني لا أعلم، لا أعلم إلاّ أنني أعشقه الآن عشقاً متحداً بروحي، حتى وإن انتزعت روحي والله لن يُنزع منها، كل ما أذكره عن بدايات حبي له أنه كان مرتبطاً بالخجل، كنت كثيرة الخجل منه، إنه الخجل القرقعة والجلبة التي تسبق إعلان النفس عن حبها، وترتبط القرقعة والجلبة هذه بتنهيدات غير تقليدية تعود للحب، وكما يقولون: إن الحب يندف ويكون ندفه على شكل تنهيدات.

أحببته حباً بات به جنّتي تلقاء ما أستقبل منه ليلاً ونهاراً سواء أكان كلاماً أم أفعالاً، عفوياً أم مقصوداً، أحببت وجوده وأحببت شوقي له أثناء غيابه، أحببت فيه ضحكته وأحببت فيه عبوسه الذي دائماً ما أنجح بسهولةٍ في تبديده.

وأحببته حباً بات به جحيمي تلقاء ما أرسل له، إذ بي أفنى من أجله كل يوم لأقدّم له المعتاد بهيئة اللامعتاد، لأعرض المتاح بالصورة الخارقة، ألزمني حبي المكوث في قمة العطاء وألزمني أيضاً الحفاظ على إيقاعه العالي، إن في حبه جحيم ترقبي لردود أفعاله الساحرة (عادة ما تكون التبسم) والتي يلدها قيصرياً إن لم يلدها بالشكل الطبيعي الذي أتوقعه، وفي الأولى (الطبيعية) أُسعد وفي الثانية (القيصرية) أُسعد أكثر وأحترق أكثر وأكثر، أسعد لأنه أراد لي الفرح والفرح كما تعلمون فحوى رسالته القائلة "ألا إنّ الفرح يخلق من الثغور الباسمة"، وأما احتراقي فيعود لفشلي في ما خططته من أجله، وأعلم من باب النظر للإيجابية في الأمور أنّ الفشل بالقيام بما هو معتاد دعوة لتقدير صعوبته، فأقدر ذاتي من جديد وأنطلق.

رغم أنّ أهون أعمال الرجل على الإطلاق هي قراءة معدلات الحب المنبعثة من أعمال المرأة والتي يعد التقصير فيها (وإن كان مبرراً) انتقاصاً من حبها له، إن أهون أعمال يحيى بالنسبة له قراءة معدلات بذلي من أجله وأظنه الوحيد في هذا المجال، ألا يزال يتعجب أحدٌ من حبي له؟

لا يوجد ما يغني عن الحب، ولا حتى الصداقة تغني عنه أيضاً، فالحب الحقيقي شعور مختلف، والصداقة حالة من حالاته، الحب هو تعبير عن مدى قوة الاتحاد وشدة إمكانية التفرّغ لقلب الآخر.

وللحب أسلوب لا يستجدى من أحد بل هو طبع موجود في النفس أو غير موجود.

أحببت يحيى بكرم يستحقه بجدارة، مع العلم بـــأنّ حبـــــي لم يتأتَ كقياس لنتيجة معيشتنا المشتركة، فالحب بالنسبة لي لا يقـــاس سوى بحجم القلب والخيال وبقدرتهما على العطاء والعمل.

رزقنا بعد عامين من زواجنا بتوأم ذكر متشابه، وإنهـــا لهديـــة عظيمة من الله، سمى يحيى الكبير حمزة واخترت أنا للصغير اسم أحمد، وكلانا طلب مباركة الأسماء من الخالة فـــداء، فمشـــاركتها للأمـــر عظيمة وإن أبدت عدم اهتمامها بالتدخل في هذا الشأن، كنت قـــد اقترحت على يحيى أن يسمي ابننا البكر على اسم والده من أجل برّه به ومن أجل والدته، إلاّ أنه رفض اقتراحي رفضاً متوقعاً قـــائلاً: "لا يبرّ مثلي والده بمثل هذا البر، البر درجة تقرب العبـــادة وأرى أنـــه يدنسها الاعتقاد بأنّ التسمية البكر صورة من صوره".

رغم جمال الهدية المزدوجة التي منّ الله بها علينا تبقـــى *الهديـــة الأولى هي الأصعب على الإيفاء* كما قالت *سوزان كولنز* في كتاب مبارياتها، وهديتي الأولى تتمثل بزوجي يحيى.

نهاية الواقع

يحيى: وجدت بعد مرور قرابة العامين والنصف على يوم زفافي أن الوقت قد حان وأصبح ملائماً لأجل قيامي بمغامرة جديدة في مسيرتي المهنية (الهندسية) الصغيرة، وكانت مغامرتي التي بيّتُّ النية لها بالتحديد هي الانتقال للعمل في دولة من الدول النفطية المجاورة لبلدي.

كان لفكرتي تلك الكثير من الأهداف المادّية والحياتية والمعنوية التي طرأت لي في ذاك الوقت، واتحدت جميعها معاً لتدعمني في برلمان قراراتي النهائية وصوّتت كلها لمصلحة قرار المغامرة، كذلك والدتي وياسمين كانتا معي وإلى صفي في اتخاذي الجريء لقراري، وأنا على ثقة بأنه لم تبدر مني أيّة أنانية في اتخاذي قرار الهجرة.

ضحّت أمي بالكثير مما لها في أرض الأردن من جذور حميمة وقطعتها كلها مؤقتاً لأجل أن تبقى بجانبي وبجانب مغامرتي وكيلا تحرمني إياها، إلاّ أنها اشترطت عليّ عدم ديمومتها، أرادتها مجرد رحلةٍ مؤقتةٍ مهما طالت ومهما كانت ظروفها وإغراءاتها، أرادت أن تكون تحت سقف منظورٍ من قبلنا جميعنا لنتمكّن من كبح جماحها عند الحاجة.

حمّلت أمي بدورها كل ما استطاعت إليه سبيلاً من ذكريات والدي المرتبطة بالمكان وحفظتها في خبايا عقلها العميقة، غسلتها

جميعها قبيل حفظها لها بدموع دافئة، وأكّدت لنا بغسلها الدافئ ذاك أنها حمّلتها كلها دون استثناء، ففي وفرة الماء الذي استعملته شهادة على كثرتها وفي حرارته دلالة على أهميتها ورفعة مكانتها.

كان أشد ما آلم والدتي وبالتالي آلمني فقدانها لتواصلها الطبيعي مع صديقتها رنا (وكان فقدانها جزئياً ومؤقتاً)، إذ لا تعدّ الخالة رنا صديقة والدتي فحسب بل هي توأمها المشابه لروحها، والملتصق ببالها على الدوام، فقد تشاركتا كل ما في الحياة من حلاوة ومرارة واتخاذ قرارات مصيرية حاسمة، ومرّتا على كل المصاعب معاً، ومن أعظم ما أسعدني لاحقاً أنهما عادتا كما كانتا وأفضل.

أما ياسمين فما كان منها إلاّ أن أمضت لي على صفحة بيضاء مؤمنة بي لأقود بنفسي مركبنا في بحر الحياة، ورغم أنّ إمضاءها هذا نابع من الشعور الكامل بالأمان، حافظت على يقظتها وإن أبدت لي أنها الجميلة النائمة، وأعلنت نفسها بالسر القائمة بمنصب الربان المساعد، ورغم عدم تعييني لها بشكل رسمي اتخذتها كذلك في العلن، وحدث كثيراً أن غفوت أثناء قيادتي وكانت دائماً على قدْر الحَدث ولله الحمد.

إنها تعلم مقامها في قلبي ومقام عقلها لدى عقلي، إننا نتوافق في كل شيء، أثق فيها وبرجاحة عقلها، وكأن الله رزقني باقتراني بها من كل شيء زوجين اثنين وما توأمنا الجميل إلاّ مثالٌ على ذلك، وبمناسبة ذكري لتوأمنا الجميل نسيت أن أخبركم بأنني أظن أنهما كانا أيضاً سيصوّتان لمصلحة المغامرة إن أمكن لهما التصويت.

كان أول وأَولى أهدافي في مغامرتي هو اختصار الزمن، ولست أقصد بالزمن هنا عدّاد الأيام والسنين كما هو متعارف عليه، فهذا

أمرٌ لا يختصر كما تعلمون، بل إنني أعني اختصار الزمن اللازم للإنجاز المادّي.

فكما تعلمون لكل إنجاز مادّي قيمة مادّية محددة، وكلما ارتفع دخل المرء قلّت الفترة التي يحتاج إليها لإتمامه، وبالانتقال للعمل في دولة نفطية (عادةً) فرصة لتأمين دخل أكبر يسهم في اختصار الزمن المنشود.

وكان من أهدافي أيضاً تجربة التعامل مع الثقافات المختلفة والشخصيات المتنوعة من حول العالم، سواء أكانوا من العرب الأشقاء أم من الأقطار الأجنبية، وفي ذلك فرصة ثمينة تمكّن من يستغلّها من فهم الشعوب وإدراك مزاياهم ونقاط ضعفهم، وتعطي لمن يريد الدراية التامة بأساليب حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأهم قيّمهم وأسرار مطابخهم، وتمكّن من معرفة آرائهم بنا نحن العرب والمسلمين.

ومن أهدافي أيضاً تجربة الغربة والتبصّر فيها عن كثب أو بالأحرى من القعر، ففي بداية الأمر سافرت وحدي ومكثت وحيداً قرابة الثلاثة أشهر، كانت أشهري الثلاثة تلك أشهراً من الفراغ الصارخ بالصمت، اختلف عليّ جريان الزمن تماماً كما اختلفت عليّ الأرض بتضاريسها ومناخها.

إنّ الزمن كان أبطأ وإنّ الأرض كانت أوحش، كابدت فيها اللاشيء، عانيت قلة النشاط والكلام وفقدت التفاؤل والأمل، من فرط شوقي كنت أرى خيالاً أرض الوطن كما كنت أراها من قبل في الحقيقة، وبهذا الوضع بصُرت المعنى الفعلي لكلمة سراب.

وكنت أسمع أصوات سكانه منفردين تارة وتارة مجتمعين، تارةً يتهامسون وتارة يصرخون ودائماً ما كانوا يبدون لي في حالة من

الفرح العارم. أتصدقون؟ كثيراً ما كنت ألتفت صوب أصواتهم المتهيئة ومن بعد التفاتي نحوهم كنت أستشعر بصلب معنى كلمة الوهم، كم ترقبت لا واعياً مشاهدة بعض الأصدقاء في الطرقات والملاعب والحدائق والمحالّ التجارية، كم ترقبت نزول أيّ أحد منهم من أية عربة أمرّ ببابها وهو يفتح مصادفةً، لكم أن تتخيلوا كيف وصلت بي الحال لأن تكون هذه الأمور البسيطة بالنسبة لي من الأمنيات!

كنت أتسامر مع أهلي وأصدقائي في كل يومٍ ليلاً، أنا بكليّة خيالي وإحساسي وهم بمجرد هيئاتهم المتهيئة لا أكثر، كنت أعدّ معهم أجمل الجلسات، كنت أنا الممثل وكاتب السيناريو والمصور والمخرج، كنت وحدي من أستجدي من أماكن الوطن تفاصيلها، وأطرد الزمن بسبب وقاحة سرعته في حضرتهم.

شعرت بأنّ كوني يعتصر، يتبدد وبصورة أوضح يفنى، وحده الهاتف ما كان ينقذني من حالة التيه الذي أقحمت نفسي بها، إنني أعلم أنها بالنسبة لأرض الوطن ثلاثة أشهر فقط إلاّ أنها تكافئ في البعد عنه ثلاثة قرون وأكثر.

كانت حياتي كما قال عنها الأديب *غسان كنفاني* تماماً إذ قال عن الحياة في الغربة: *كانت حياتي دبقة، فارغة، كمحارة صغيرة، ضياع في الوحدة الثقيلة، وتنازع بطيء مع مستقبل غامض كأول الليل، وروتين عفن، ونضال ممجوج مع الزمن، كل شيء كان لزجاً حاراً، كانت حياتي كلها زلقة، كلها توق إلى آخر الشهر!* إلاّ أن كل شيء اختلف مع مرور الزمن، فبدأ نسيج المجتمع بتقبلي كعضوٍ جديد فيه وبدأت أتأقلم مع أسلوب الدوران في أفلاكه، وقَدِمَت

عائلتي عندي وبدأت أشعر بنوع من الانتماء لفكرة الغربة ولشعب الوطن الحاوي للمغتربين ولأرضهم.

قد تتساءلون في أنفسكم عمّا افتقدته في الغربة؟ سأجيبكم: الكثير، افتقدت الكثير! افتقدت منبع الذكريات وجلسات الأصدقاء وحرمت ممن بقي من عائلتي الممتدة من أهل الوطن.

افتقدت مظاهر فرح وطني وعيده، افتقدت ترحه وقضايا شعبه اليومية، افتقدت طبيعته ومناخه وافتقدت صفاء سمائه وعظمة جباله، افتقدت اللون الأخضر الذي يتجمل ربيعاً به! افتقدت عاداته وتقاليده وأفتقد شمسه التي أرآها تشرق من شرق عمّان والتي أتتبعها حتى تغيب في أحضان القدس الشريف.

وأنا مع من يقول إنه في الغربة وخصوصاً إن طالت فترتها تزداد احتمالية عدم قدرة المغترب على العودة لأسلوب حياة أبناء وطنه، أي بمعنى آخر إنّ الإنسان مهدد بفقدان هويته الحقيقية كمواطن في وطنه، وقد يشعر أبناء الغربة بذلك إن أنعموا النظر في نظرات أبناء وطنهم تجاههم عندما يعودون والعود أحمدُ إليهم.

وقد تتساءلون عمّا جنيته فيها؟ وسأجيبكم: الكثير، الكثير أيضاً! إذ منحتني الغربة إمكانية تطبيق حقيقية لفكرة الاختيار، منحتني حياة أفضل كإنسان وتقديراً أعلى كمهنيّ، منحتني راحة البال وللراحة هذه يبذل الكثيرون الكثير، منحتني وقت فراغ كبيراً غير مسبوق بالنسبة لي وهو قابل للاستثمار بسهولة في الغربة، ومنحتني رداء الاختفاء عن الأنظار كمساهمة للتفرغ ورفع مستوى الإنجاز، منحتني الغربة ثقة أكبر بالنفس واعتماداً أشد ثقة بالله.

وحذّرتني الغربة من أثر الروتين المميت على الأرواح ونوّهت لي

على حقّ الأجساد بالرعاية والاعتناء لمجابهة آثار مرور الزمن، وكذلك نبّهتني من نزيف الزمن الحادّ، لقد شعرت بالنضج الحقيقي، لقد شعرت بانتقالي الرسمي للتفكير بعقلية الرجل، منحتني الغربة فرصة لم ولن تتكرر أبداً!

أما أمي فوجدت في أرض الغربة فرصة عظيمة للتقرب إلى الله، ويعود السبب في ذلك إلى أنّ الغربة أعطتها وقتاً كافياً لتتفكر أوسع وأعمق في الحياة وفي أهميتها وقيمتها واحتمالات ما يمكن أن تؤول إليه أفعالنا فيها من مصير، ومما ساعدها في ذلك أنها وجدت أمامها وقت الفراغ بشكله الصريح الذي لا يحتاج للتأويل، وأمي أشدّ من تحزن بانهدار وقتها أمام عينيها مجاناً بلا ثمن.

أما ياسمين فوجدت في أرض الغربة مجالاً أوسع للاقتراب مني ووجدت أنا مثلما وجدت، فزاد الانسجام في ما بيننا وتوثقت علاقتنا أوثق وأمتن، وكما تعلمون إن العزلة تؤاخي المشتركين فيها فكيف إن كانت العزلة لزوجين متحابّين أصلاً؟

ورغم عملها خارج المنزل في أحد المستشفيات في الغربة، استطاعت ياسمين أن تتقرب أكثر من والدتي واستطاعتا معاً أن تنتقلا للتعامل الحقيقي ما بين أم وابنتها دون التكلّف المبرر ودون المجاملة المطالبتين بهما، ووجدت أيضاً الفرصة متاحةً أمامها لتعاود القراءة وممارسة هواياتها القديمة التي انقطعت عنها منذ زواجنا بلا سبب مقنع.

عموماً وبسبب هذه الأمور أعتقد أنّ ياسمين أضحت في الغربة أسعد وقد يكون السبب في ذلك أيضاً لكوني والتوأم لها ولوالدتي حصراً، وكذلك كان لتوأمنا نصيب من تقاربنا، فجعلنا من تربيتهما

المسعى الأول والهدف الأهم في حياتنا، والحق يقال كانت ياسمين في الواجهة للتصدي لهذا الأمر نظراً لانشغالي بعيداً منهم أكثر منها.

وأما أنا فعدت بدوري من جديد لممارسة هوايتي القديمة منذ أيام طفولتي، تمكنت من التفرغ جزئياً للتشكيل بالطين والنحت وبهذا كانت متعتي الأعظم، مكّنتني الغربة من احترافها عن طريق بثها للراحة في بالي من باب ومن باب آخر عن طريق توفيرها للمال والمادّة والوقت اللازمين لي، وبالإضافة لذلك اطّلعت على الكثير من الكتب المتعلقة بأبجديات النحت وتقنياته ومع مرور الوقت بدأت ألتمس التطور في أعمالي، وظهر ذلك جلياً على أوجه المحيطين بي، خصوصاً في أعينهم حتى في الزرقاء منها.

وقد تتساءلون هل أحب يحيى الغربة؟ في الواقع سأجيبكم بنعم، بالتأكيد نعم، أحببتها حباً جماً رغم ما فيها من مساوئ، لدرجة أنني لم أعد أعُدّها غربة وبالمقابل أعدها وطناً، *لقد أخطأنا حين اعتبرنا أنّ الوطن هو الماضي فقط، الوطن هو المستقبل*، هذا ما عبّر عنه الكاتب الفلسطيني في روايته الجميلة *عائد إلى حيفا*. ففي الغربة وجدت نفسي أكثر وعشت بتفرغ كافٍ من أجل أسرتي، إنها لم تعد غربة بالنسبة لي، إنها كما قلت لكم وطن، أو بدرجة تقارب درجة الوطن.

ألا تستحقّ الأرض التي تعطي بسخاء الانتماء في المقابل؟ ألا نأكل من أرضها ونشرب من ماء سمائها؟ ألا تحمينا جيوشها وتحفظ أمننا أجهزة أمنها؟ ألا إنّ أرض الغربة بحاجة لضمائر تزرع على قدر ما تحصد، مهما كان في الواقع من ألم.

إنّ الغربة تفتح أبوابها كالوطن تماماً حينما يرغب المغترب بذلك (حتى وإن كانت ضمن شروط محددة) عندما يعطيها المغترب قلبه

جزاءً لما تعطيه من فرصة للحياة التي اختارها بإرادته، إنّ في الغربة صورة من صور الوطن، وعلى من لا يرغب بالغربة، وعلى من لا يريد الحياة فيها عدم الاغتراب منذ البداية، فأوطان الأمم الأخرى بحاجة لمن يبذلون الانتماء من أجلها، والانتماء لأرض الغربة حقٌ وعلى المغترب دفعه طوعاً.

إلاّ أنه وبالرغم من قناعتي بما أجبتكم به يحضرني قول *ميلان كونديرا* إذ قال: *كان يحب الغربة ولكن حباً سطحياً. فتحت السطح ثمة عالم غريب عنه. إذ لم يكن لديه تحت الأرض جدّ أو عم.*

وقد تتساءلون أيضاً عمّا كرهت فيها و لِمَ عدت منها إن كنت حقاً قد أحببتها؟ ومعكم الحق كله في هذا التساؤل. فكما تعلمون إن لكل زهرة نصيبها من الأشواك، وتُحتمل الأشواك في سبيل جمال أزهارها وجمال عبقها وشذاها، إلاّ أنّ ازدياد أعداد الأشواك يقصّر من عمرها بيديْ حاملها.

إنّ من أسباب عودتي لوطني انعدام التجانس في النسيج المجتمعي للمغتربين، إذ يعدّ التجانس في أرض الغربة حالة مفقودة بشكل كبير لدرجة تؤول للخطر! إذ تختلف أصول المغتربين وتتباين تبايناً شاسعاً، كذلك تختلف عاداتهم وتقاليدهم ودياناتهم وانتماءاتهم، ويسفر هذا عن حالة من التيه المجتمعي، لدرجة أنّ سكان أرض الغربة يرون أنفسهم وكأنهم في سفينة بلا ربان، إنهم بلا هوية واضحة، لا يوجد ما يجمعهم في بوتقة واحدة إلاّ تحصيل المادّة والأمن وطلب الحياة في سلام، فلا أحد يعرف أحداً، سوى العمل لا علاقة تجمع المقيمين هناك! وفوق كل هذا لا أحد يرغب في المبادرة تجاه أحد، حتى إن أحداً لا يودّ استقبال أية مبادرة من أحد!

ومن الأسباب التي دعتني للعودة أيضاً محاولة حفاظي على اللغة العربية السليمة لنفسي ولأبنائي، وأنا على يقين بأن على حكومات الدول المستقطبة للعمالة الأجنبية البذل أكثر من أجل حماية لغتها من الذوبان ما بين اللغات واللهجات المُستقدَمة، إذ وجدت حال لغتنا العربية مختلفة تماماً عما هي حالها في وطني الأم، إن العربية هناك محطمة مهشمة أو بالأحرى إنها في طور الاحتضار.

وكذلك الحال بالنسبة للغة الإنجليزية فقد نالها نصيبٌ كبير من التدمير ما بين الألسن الأجنبية عنها، وكأنّ المغتربين اجتمعوا على حربها كما اجتمعوا على حرب العربية، فترى كل جنس من الأجناس يقصفهما بلهجته الخاصة وإيقاع طبقات صوته الفريدة.

أما السبب الأبرز الذي دعاني لاتخاذ قراري بالعودة فيعود على جوّ العمل اللاأخلاقي هناك! نعم، اللاأخلاقي، فحسب تجربتي الفردية (أتمنى أن هذه الحال تعود لتجربتي فقط وأن لا يصف غيرها) والتي قاربت الأربعة أعوام، وجدت أن المرء بحاجة لأخلاق مخالفة تماماً عمّا يحتاجه في خارجه (على الأقل بالنسبة لي).

وجدت في العمل العنصرية والتحزّب والخبث والدهاء والخيانة والكذب وسرقة الجهد والتملق، وكل هذا في سبيل الحصول على الأموال وتربية الأرصدة، ما أقذر المال المُجنى على حساب أخلاق الإنسان، كان اللوم وإلقاء المسؤولية أولى وأهمّ من حل المشاكل في العمل، كان إنجاز العمل هو آخر ما يفكر فيه جُلّ العاملين.

لذا لم أجد ما يدعوني للبقاء هناك سوى حصولي على القرش والذي أعدّه من الأهداف الرئيسة لاقتحامي عالم الغربة كما قلت لكم، لا خبرة مهنية ولا حضارة اجتماعية هناك في جوّ العمل الذي

حظيت به، يحضرني أن أقول لكم قول الأديب *كنفاني* في كتابه *رجال في الشمس* إذ قال: *أنا مبسوط أنك ستذهب إلى الكويت، لأنك ستتعلم هناك أشياء عديدة، أول شيء ستتعلمه هو أن القرش يأتي أولاً ثم الأخلاق*، لم أذهب للكويت يا كنفاني إلاّ أن حالتي مطابقة تماماً لما تقوله.

ولا أقصد بذلك كون العمل في الوطن أطهر إطلاقاً، إلاّ أن مقومات الحياة ككل في الوطن تغطي على بعض ما في العمل من قذارة مهما كان مستواها.

ولكن لَمَ انتظرت أربعة أعوام؟ ألم يكن العام الأول مثالاً كافياً على ما يليه؟ ألم يكن صورة مطابقة للأعوام الثلاثة التي تلته؟ إنكم بالتأكيد تتساءلون. نعم إنه كذلك بالضبط، إلاّ أنني لم أجرؤ على اتخاذ قرار بالعودة، فالعودة المبكرة (بالنسبة لي إن الأعوام الأربعة فترة قصيرة نوعاً ما) تعدّ عامّةً فشلاً مادياً ومهنياً وأنا في غنىً عنه.

كما أن العودة للوطن مرتبطة عندي بالتخلي عن هوايتي في النحت والتشكيل في الطين، لا.. لن أستطيع أن أتابع هناك، فالوطن (بالنسبة لي) لا يمنح وقت الفراغ الكافي لمريديه، وهذه قناعتي، فالملهيات كثيرة بشكل أشد إلحاحاً مما أستطيع أنا شخصياً تخطيه، لذا خشيت على نفسي من الوقوع في شرك الحسرة، الحسرة على نفسي التي وجدتها في ساعات عملي بالطين.

كنت بحاجة لدفعة ما، دائماً ما كنت أتذكر العم عصام عندما كان يدفعني عن منصة بركة السباحة، بالضبط إنّ الحالتين متشابهتان، كنت أعلم أنه عليّ الخروج من ذاك المستنقع فما فيه إلاّ تدمير للفكر القويم الذي يحظى به الإنسان الطبيعي.

واستمرت حالي بين الوضع المادّي والقيمة البشرية أفكر فيهما محافظاً على مكاني في الأول إلى أن دخل أبـــي عليّ فجأة دون سابق إنذار من طرفه.

لا أزال أذكر زيارته بأكملها، بأدقّ مجرياتهـــا وأتم تفاصـــيلها، كيف لا وهي المرة الأولى التي زارني بها في المنام، حتى الآن لا تـــزال هي ذاتها الأخيرة، ففي مساء الرابع من حزيـــران، في تلـــك الليلـــة الصيفية الحارة الهادئة، دخل عليّ والدي بينما كنت مستلقياً في سرير والدتي الكبير، كنت مستلقياً مكان استلقائه بالضبط أناظر النجـــوم المعلقة في سقف الغرفة (على سقف غرفة والدتي تلتصق العديد مـــن النجوم الصغيرة ضمن تشكيلة متنوعة من الأحجام والألوان المختلفة العاكسة للضوء)، وصفق باب الغرفة بشيءٍ مـــن القـــوة، وأجـــزم لكم أنّ صفقة الباب تلك ما كانت إلاّ لتحفيزي وللفت انتبـــاهي لا أكثر.

كانت الغرفة مظلمة نوعاً ما فعدلت من وضـــعيتي لعلّـــي أرى شيئاً في ذاك الظلام، أنار فجأة أضواء الغرفة كلـــها طـــارداً الليـــل مستدعياً على الفور حضور النهار الكهربائي، ما أدّى إلى إغماضـــي عينيّ نصف إغماضة، ثم فتحتهما تدريجاً فرأيته!

لم أصدق عينيّ، كنت منبهراً كانبهار من زارته أعظـــم نجـــوم الفضاء في فلكه، خانني جسدي فمنعني من إبداء أيّ ردة فعل تجاهه، حتى لساني خانني كخيانة بروتس ليوليوس قيصر! تخيلوا! لم أنطـــق ولو بكلمة واحدة حينها!

ألقى والدي نظرة طويلة عليّ وتبسم، شتّت بصره في الغرفـــة بهدوء وأغمض عينيه ببطء، ومن بعد ذلك أخذ شهيقاً عميقاً جـــداً

والله كأنه استنشق الهواء كله به، عبّ جوفه بعبقه، فتح عينيه وعاود من جديد التبسّم في وجهي.

اقترب مني ببطء ثم جلس على حافة السرير ووضع يده اليسرى على رأسي مداعباً خصيلات من شعري، كان لا يزال محافظاً على تبسمه الأنيق، أما أنا فحافظت على صمتي المبكي، نهض والدي واتجه نحو مرسم في زاوية الغرفة (لا أذكر أنني شاهدته من قبل)، جلس على كرسيّ قبالته، وأخذ يرسم.

إنها المرة الوحيدة التي شهدته فيها وهو يرسم، كم كنت أتوق لأن أتتبع فراشي رسمه وها قد تحقق الحلم في حلم آخر، ما أقسى تحقيق الأحلام في الأحلام، كان والدي منهمكاً وكما تعلمون عادةً ما يكون الانهماك دلالة على التركيز، وفي التركيز دلالة على الأهمية، كانت تعابير وجهه أجمل من تداعيات فرشاة رسمه لذا راقبتها إلى أن انتهى.

انتهى منها، وقف قبالتها وكأنه يخاطبها وقال لي: "يا ولدي، لقد انتهيت منها لتبدأ أنت، (وأشار لي بسبابة يده اليسرى)".

إنها منحوتة الشخصية الأرستقراطية الملكية، إنه يباركها ويثني عليّ لقيامي بنحتها، لقد أنهى والدي رسم تلك المنحوتة التي نحتُها بيديّ منذ عدة سنوات، تلك المنحوتة التي أودى بحياتها ذاك الانفجار القديم الذي أعاد لي والدتي من جديد كما كانت قبيل رحيل والدي عنها.

أكمل والدي قائلاً: "انهض على الفور يا بنيّ، فلا يُخلق المجدُ للنائمين، دع قلبك يختار وأطعه فالعمر قصير جداً لمن يسعى لاستثماره، وابذل من أجله، اصنع ما تحب وتحمل عاقبة أمره، وأعلم

أنّ الفشل في المحبوب أهون على نفس المرء مـــن النجـــاح في غـــير المحبوب، لا تخطئ كما أخطأت أنا، انطلق".

وفور استيقاظي من منامي اتخذت قراري بالعودة، وبعد قرابـــة الشهرين من ذاك اليوم كنت في أحضان العاصمة الأردنية عمّان، أنا وعائلتي.

بداية الحلم

يحيى: في يوم ربيعيٍّ مشمس وبينما كنت أعتني بحديقة منزلنا الخلفية أستظل بأشعة الشمس الدافئة عن نسمة الهواء المائلة للبرودة قليلاً، وبالتحديد في فترة ما قبيل الظهيرة، أقبلت عليّ ياسمين ممسكةً بيدها صحيفة محلية، استغربت الأمر برمته، أقصد أمر الصحيفة، فنحن من الأُسر التي لا تهدر من وقتها على ما نعتبر جلّه هراءً، فبالنسبة إلينا قد ولّى عصر الصحف المفيدة منذ زمن طويل.

كانت تسقي المكان بتبسّمها كعادتها وتستنشق من هدوئه الأمان ومن ألوانه التفاؤل ومن سمائه ثقتها بالرحمن، كانت عيناها اليمنى في حالة نصف إغماضة، ويعود السبب في ذلك إلى كون الشمس تتموضع قبالتها، وكأن الشمس تحدّت بذلك صورة من صور القمر، أعتقد أنها المرة الأولى التي انتبهت وشاهدت فيها عينيْ ياسمين مصبوغتين باللون الأخضر.

ياسمين: "يحيى، ستقام مسابقة خاصة بالنحت والمشاركة فيها مفتوحة لكافة الدول العربية، العربية فقط" هذا ما قلته له حينها، إلاّ أنه تبسم بسمة باهتة يائسة لم أعتد منه مثلها من قبل، أدار وجهه للخلف وقال: "يا عزيزتي مالي ولها؟"، قلت: "ستقام في مدينة قرطاج التونسية"، عاود النظر إليّ وقال متعجباً: "تونس!"، وكأنه تيقن

بمعرفته لمكان المسابقة بعدم وجود أية صلة تجمع ما بينه وبينها، فأراح نفسه من مغبة التفكير بأمرها قبل إهماله النهائي لها، "فأين هو وأين هي تونس عنه" هكذا فكّر!

يحيى: لا تيأس ياسمينتي أبداً! أمسكت على الفور بكتفي من الخلف وجذبتني ناحيتها ببعضٍ مما لديها من القوة وقالت: "لا يتطلب الأمر منك أيّ عناء، كل ما يتطلبه الأمر منك هو إرسال صور لخمس منحوتات سبق لك أن نحتّها، وإن لم تفعل ذلك من أجل نفسك فسأفعله أنا من أجلنا كلنا".

دائماً ما تكون ياسمين بجانبي خصوصاً قبيل لحظات استسلامي وتمنعني عنها (وهي لحظات نادراً ما تمر عليّ)، ففي حياتنا المشتركة وحتى الآن بذلت ياسمين من تلقاء نفسها ما أراه مستحيلاً على كل نساء الأرض، وأنا شخصياً ما كنت لأبذل مثلها.

أشرت لها مستخدماً رأسي بالموافقة رغم عدم اقتناعي بأمر المسابقة، كانت موافقتي بشكل رئيسي من أجل أن أمنع الحزن عنها، فكم أكره رؤيتها غارقة في الحزن!

لقد اخترقني اليأس في تلك الحقبة من الزمن، تغلغل تحت دروع صمودي، زلزل طموحي وأوشك أن يطيحني، ولكنني بالرغم من ذلك كنت مؤمناً بأنّ على الحر أن يتقن فن مراضاة نفسه وأمر مواساتها.

حقاً إنني لا أدري حتى الآن ما السبب في ما أصابني وأصاب منحوتاتي! فشلت بالتسويق لمنتجاتي أشد الفشل، وبالرغم من قدرتها على جذب الأنظار إليها بكثرة عددية وبشدة تمعّنية لم تستطع أن تتحول فتعود عليّ كاستثمار مادّيّ لأتمكن به من أن أكمل طريقي في مجال النحت.

فمنذ عودتنا لأرض الوطن إلى ذاك اليوم الذي أخبرتني به ياسمين عن أمر المسابقة، خسرت أكثر من تسعين بالمئة ممّا ادخرته في غربتي، لم يبقَ لي سوى رصيد مالي خجول جداً، بالإضافة للمشغل الصغير الذي أنشأته، مع كمية متوسطة من الموادّ الخام الأولية اللازمة لأمور النحت.

فداء: أسمى يحيى مشغله في بداية الأمر (La Maschera) وهي كلمة إيطالية بمعنى "القناع"، واستوحى صغيري هذا الاسم من لوحةٍ عملاقةٍ رسمها والده يظهر فيها المسرح الإيطالي الشهير "ألا سكالا" من الداخل (ويعد مسرح ألا سكالا إحدى أشهر دور الأوبرا في العالم، وهو في مدينة ميلانو الإيطالية، ويعود افتتاحه لعام 1778م)، وهو شبه ممتلئ بالجمهور وكلهم ينظرون نحو منصّة المسرح التي يرقد عليها طفل رضيع في مهده، ويظهر فيها الطفل ممسكاً بقناع يخفي به ملامح وجهه الغضة، مظهراً من خلاله ابتسامة ماكرة نوعاً ما.

لم أخبر صغيري عن قصة هذه اللوحة بالذات لأمر في نفسي، ولن أخبره بها الآن، لذا أضحت كاللغز تماماً بالنسبة له، ولكونها مبهمة بالنسبة له تبحّر فيها أكثر من غيرها واستوحى اسم مشغله منها. سأكتب له لاحقاً قصة اللوحة كتابةً وسأرفقها له مع وصيتي، وأعتقد أنّ هذا أفضل بالنسبة لكلينا، أريدها أن تبقى ملهمة له نظراً لما وجدت عيناه فيها من إتقان استهواه. إلاّ أنني سأخبركم أنتم عنها، لا بأس في ذلك.

رسم زوجي هذه اللوحة بعد زواجنا بثلاثة أعوام تقريباً بعد رؤيته ذات يوم في فترة ما بعد الفجر حلماً فريداً أُسعد به وأخبرني بمجرياته وتفاصيله، أذكر أنه قال لي: "يا فداء لقد حظيت بحلم

جميل، حلمت بكوني في مزرعة كبيرة جميلة، وكان جوّهـــا ربيعيـــاً وأشعة الشمس فيها دافئة، وقررت أثناء تجوالي فيها أن أحصل علـــى إغفاءة صغيرة تحت ظل إحدى أشجارها، وقادتني قـــدماي لأختـــار شجرة نخيل عظيمة فنمت في ظلها".

وعند عودتنا لعالم تفسير الأحلام وجدنا أن شجرة النخيل تدل على *رجل عالم أو ولد*، ويعبّر عنها أيضاً *برجل عربـــي حسيب نافع للناس* والله أعلم. ومن حلمه هذا استلهم فكرة رسم لوحة يظهر فيها الطفل المقصود من حلمه في مكان لا يليق إلاّ بالمشاهير، واختـــار ألا سكالا الإيطالي ليكون المكان، اختار ألا سكالا بالذات لحلمه القديم بزيارته لا كبطل (وإن كان هذا ما في خبايا نفسه) بل كمجرد سائح لا أكثر، ونظراً لطول فترة انتظارنا لطفلنا ارتأى في نفسه أن يخفـــي ملامحه بقناع. إنني أعدها رؤيا من الله لأيوب وها هـــي في طريقهـــا لتتحقق، والله أعلم.

يحيى: نظراً للوضع المادّي الراهن آنذاك التحقت بوظيفـــة ذات دوام جزئي لأحافظ على دخل مادّيّ ثابت أعيل به أسرتي، وإن كان أقل من المأمول بكثير، وكذلك تابعت يـــاسمين عملـــها في أحـــد مستشفيات منطقتنا، أما أمي فتولّت أمر التوأم وتكفلـــت برعايتـــه وبكافة شؤونه وكانت دائماً ما تذكرني بما قرأته ســـابقاً في كتـــاب *الجبل الخامس* إذ يقول فيه كاتبه: *لا أحد يستطيع أن يشيح بنظـــره عن هدفه. حتى لو اعتقد الإنسان أحياناً أن العالم والآخـــرين هـــم الأقوى، يبقى السر في عدم الاستسلام.*

ياسمين: لم أسمح له بالاستسلام من قبل ولن أسمح له بذلك أبداً، وسأستمر إلى جانبه على الدوام مهما كان مصيرنا، إن يحيى كحجر

الأساس في حياتي وما دونه يأتي من بعده ولا آبه به، ثم كيف لي ألاّ أكون مع زوجي وفي ظهره إلى الأبد؟ ثم من قال لكم بأنني اعتزلت ممارسة اللهو بالطين معه؟

يحيى: بعد إرسالي الصور المطلوبة بقرابة أربعة أسابيع (وكان هذا الوقت كافياً بالنسبة لي لكي أنسى أمر المسابقة برمته) أرسل القائمون على المسابقة بريداً لي يعلمونني فيه بعد التحية بأنه قد تم اختياري ضمن أفضل عشرة نحاتين عرب ممن شاركوا في المسابقة، وبالإضافة إلى ذلك طلبوا مني اختيار ثلاثاً من أصل المنحوتات الخمس التي أرسلت صورها لهم وتحضيرها ليتم نقلها لمدينة قرطاج التونسية في فترة أقصاها سبعة أيام من تاريخ تسلّم البريد ليتم تحضير معرض خاص لمنحوتات المتسابقين، تمهيداً لبدء المرحلة الثانية من المسابقة.

وأعلموني أيضاً في البريد بتفاصيل المرحلة الثانية، والتي هي عبارة عن اختيار ثلاثة نحاتين فقط من أصل العشرة الذين تم اختيارهم مسبقاً من قبل زوّار المعرض وأعضاء لجنة التحكيم اعتماداً على معاينة أفضل ثلاث منحوتات على أرض الواقع يختارها المشتركون بأنفسهم، وأخبروني بضرورة وجودي في تونس في فترة أقصاها أسبوعان، وأن أرسل لهم الموعد الملائم لي للسفر ليتمكنوا من تجهيز إجراءات السفر والإقامة عندهم في مدينة قرطاج التونسية.

فداء: كانت آخر كلماتي التي ودعته بها *آمن بالفوز يأتِ صاغراً إليك*، لم أسرق هذه العبارة من أحد ولكنني استعرتها من كتاب *الرابح يبقى وحيداً*، إذ لم أجد الوقت ملائماً لأن أذكر ليحيى اسم الكتاب الحاوي لها، وختمت له باكيةً بقولي: "أسعدك الله ورضي عنك وأرضاك".

يحيى: انتقلت إلى مدينة قرطاج الساحرة بعد عشرة أيام من وصول البريد لي من العاملين على المسابقة، صدقاً لم أتخيّل من قبل أن تتضمن الأراضي العربية جمالاً أخاذاً كما في هذه المدينة، وللمعلومة يزورها قرابة مليون سائح سنوياً! وتحتل مساحة المناطق الأثرية فيها أكثر من 60% من مجمل مساحتها، ولكم أن تتخيلوا ذلك!

زرت معظم معالم المدينة وبدأت بمتحف قرطاج الوطني الذي يحوي ما يمثل الحقبة الفينيقيّة البونيّة والحقبة الرّومانيّة الأفريقيّة والحقبة العربيّة الإسلاميّة، وزرت المسرح الروماني، وزرت حمّامات أنطونيوس الرّومانيّة والتي تعدّ إحدى أكبر ثلاثة حمّامات في العالم والأكبر في قارّة أفريقيا.

كان من أجمل ما واجهته باشتراكي في هذه المسابقة هو شعوري للمرة الأولى بالتقدير الذي أعتقد بكونه مستحقاً لمنحوتاتي من الآخرين، وخصوصاً أنهم الأشخاص الذين مَن أنا على أشدّ الثقة بأنهم ليسوا من الصنف المجامل.

وكان من أجمل ما شعرت به أيضاً المعنى الحقيقي لكلمة الفتح، إذ إنني بعد اجتيازي للمرحلة الأولى وجدت أنّ أموري في المسابقة تسير في تيسير عظيم فقد اختارني جمهور المعرض مع لجنة حكام المسابقة من ضمن أفضل ثلاثة نحاتين من أصل العشرة المتأهلين للمرحلة الثانية، وبذلك وجدت نفسي في المرحلة النهائية بحال المتفاجئ.

وبينما كانت المرحلة الأولى (مرحلة الاختيار من بين الصور المرسلة من قبل المتسابقين) مبنيّة على آراء لجنة الحكام، كانت المرحلة الثانية تعتمد على آراء زوّار المعرض، فأدلى كل من رغب من الزوار

بأصواتهم لأجمل ثلاث منحوتات حسب وجهة نظرهم دون الاشتراط بأن تكون للنحات ذاته، كان التصويت للمنحوتات لا للنحاتين وذلك لتجنيب زائر المعرض مجاملة متسابق ما نظراً لجنسيته أو ديانته أو جنسه أو شكله، والشكل كما تعلمون بات من أسس الاختيارات!

كانت الأحداث تتوالى وتتعاقب بسرعة تفوت تقبّل نفسي لها، فشعرت لحين من الزمن بأنّ المسابقة كانت تضخّم الغرور في نفسي قبل أن تضخّم الأمل والسعي للبذل فيها، لم يصدّني عن هذا الأمر الشائن إلاّ ما تذكرته مما قاله لي العم براء أثناء لهوي بالطين أيام صغري، بالتحديد عندما عرضت عليه ما صنعته يداي أول مرة سائلاً إياه عن رأيه: "هل تراني انتهيت منها هكذا يا عم؟" فأجابني متسائلاً: "من الذي أعدّها يا صغيري؟"، فقلت مبتسماً: "أنا" فقال: "لا لم تنته منها بعد، حدث أن *سأل رسام مبتدئ معلمه قائلاً: متى أعدّ اللوحة من لوحات رسمي كاملة؟ فقال المعلم: في الوقت الذي تستطيع النظر إليها دهشاً قائلاً في نفسك: أنا الذي فعلت هذا!*".

لم أفهم مقصده حينها إلاّ أنني احتفظت بحواري معه في مخيلتي، وها قد وقفت محادثتنا تلك حارسةً لنفسي عندما احتجت إليها، بالمناسبة يعود ذاك التساؤل وجوابه للكاتب الشهير *سارتر*.

ياسمين: كان أصعب ما في الأمر على قلب يحيى هو أنّ تكريمه المهيب جاء من خارج وطنه قبل أن يلتفت أو ينظر إليه أحدهم من داخله، بنظري إنّ تكريم الوطن المتأخر للموهوب الذي يأتي على إثر التكريم الخارجي له بلا أيّ معنى.

بل أراه قطفاً مجحفاً بحق الغير لنجاحهم في الكشف عن موهوب مطمور وتقدير قيمة موهبته وقيمة وجودها، بل أراه أيضاً استغلالاً له واستثماراً لإنجازه لإرضاء غرور مجتمعه أمام المجتمعات المحيطة لا أكثر.

فداء: أرى أنّ الإنجاز هو ما تذكره النفس قبيل نومها، أي بمعنى أنه ما يستحق الذكر، وبمعنى آخر أن الإنجاز هو ما يُعدّ جديداً أو غير مألوف في أيامنا الاعتيادية، وأريد أن أنوّه لكم على فكرة بأن هناك فرقاً كبيراً بين تقديرنا للإنجاز لقيمته الفعلية وبين تقديرنا لفكرة وصول أحدهم إليه، أي إننا قد نختلف على تقدير جمال منحوتة ما (على سبيل المثال)، فهناك من يقدم قيمة جميلة أو غير جميلة، مهمة أو غير مهمة، استثنائية أو غير استثنائية، مبتكرة أو غير مبتكرة، ذات معنى أو بدون معنى يذكر، تتماشى مع شرائعنا وعقائدنا أو لا تتماشى، ولكن بالرغم من ذلك إنه من المفروض ألاّ نختلف على تقدير البذل الذي يقدمه صاحبها.

ليس كل البشر نحاتين أو كتّاباً أو رسامين أو رياضيين أو حتى فنانين، وكذلك الأمر ليس كل البشر رجال دين ولا رجال أمن ولا أطباء ولا نجارين، ولا مهندسين ولا عمّال نظافة، لذا أرى أنّ على الجميع تقدير جهود الجميع مهما كانت الجهود.

كما إنّ من حق الجميع الاستهانة بأي مضمونٍ كان، ولكن من حق المضمون أن يتم إنصاف صاحبه في حال وصوله لمبتغاه، والوجود على أرض الواقع أول طموح يسعى صاحب المضمون من الوصول إليه، وكذلك الأمر في كل الفنون، ولنتذكر بأننا نحن لا نلتقي كل يوم بمن استطاع الوصول بعرقه.

ولا أقصد بقولي لهذا تكريم فئات معينة في المجتمع (مُختلف على أحقيتها في التكريم)، على حساب تكريم الفئات الحقيقية التي تستحق التكريم، إلاّ أن سياق الأحداث أجبرني على أن أذكر هذا الأمر.

بل إنني في الواقع أفضل أن يكرم المجتمع كل أم حقيقية قدمت من حياتها تربية قيّمة لأبنائها، وتكريم كل رجل قدّم المستوى المعيشي الكريم لأبنائه على قدر استطاعته، ولكل أم شاركت في رفع مستوى حياة أبنائها، ولكل رجل أسهم في تربية أبنائه.

يحيى: صدقاً إنني لم أتوقع فوزي بالمسابقة، إطلاقاً! كانت المرحلة الأخيرة فيها عبارة عن سباق مجنون يمتدّ لفترة ست ساعات متواصلة تُبث مباشرةً على الهواء! وكان على كل منا نحن المتسابقين الثلاثة القيام بمنحوتة واحدة فقط ليتم الحكم النهائي عليها وبالتالي على ناحتها من قبل لجنة الحكام.

وأصعب ما كان في هذه المرحلة هو عدم إخبارنا بموضوع المنحوتة المطلوبة حتى اللحظات الأخيرة، فعاد الأمر على ثلاثتنا للإبحار لوقت طويل جداً في خيالنا، وفي الساعة الثالثة عصر اليوم الثاني عشر من شهر آذار (يوم المسابقة)، دقّت ساعة العرض الأخير بقول أحد أعضاء لجنة التحكيم: "على المتسابقين الثلاثة تقديم منحوتة واحدة فقط خلال ست ساعات تسلّط الضوء على مفهوم (الإعاقة) ابتدأ التوقيت"! كان الموضوع مفاجئاً للغاية، في الواقع كان سيبدو مفاجئاً بكل الأحوال! ترددت، ترددت كثيراً وبعد ترددي المضني اخترت بعث منحوتتي المُفجّرة للحياة، أردت بإعادتها الموازنة بين النهاية التي حدثت لي قبل حيازي الخبرة، وبين النهاية الجديدة التي ستلمّ بي لحقبة "ما قبل نهاية المسابقة ذات الجزء الجيد نسبياً من الخبرة".

نعم، لقد تمكنت من إعادتها بحجم يفوق الأولى بسبعة أضعاف حجمها تقريباً، كم سررت بها، كان فيها انتصاري أمام نفسي، أمام إحباطي والمحاولات التي قصدت انهزامي، ضحكت مقهقهاً عندما انتهيت منها، ألقيت بما في يدي على الأرض، ولحقتهم فاستلقيت على ظهري بينهم، وبعد انتهاء الوقت، وعند التاسعة مساءً بالضبط توقّف عدّاد الوقت واقترب أعضاء لجنة الحكم على المنحوتات الثلاث وسألوا كلاً منّا على حدة أن يتكلم عن منحوتته.

كانت منحوتتا زميليّ رائعتين حقاً، فكانت منحوتة المشترك الجزائري رجلاً عجوزاً يحمل على ظهره طفلاً صغيراً مبتور الساقين ويجري به، نحت الجزائري العينين ذاتهما لكلا الوجهين، وكان كلاهما مبتسماً، كانت فرحة وجهيهما طاغيةً بوضوح على كل ما في المشهد من أثر حزن بالغ، كانت المنحوتة تخبر زوّارها بأمرين اثنين: بأن السعادة صناعة داخلية، وبأن جمال العيون لا يشيخ أبداً.

وأما منحوتة المشترك اللبناني فكانت شابة جميلة ممشوقة مكفوفة لا يعيبها شيء سوى نظرة المجتمع نحو مصاب عينيها، كانت منتصبةً بكل عنفوان تملأ منصبها كمايسترو أوركسترا، رأسها مرفوع وشعرها مسدول، كانت المنحوتة تخبر زوارها بأن البصيرة تحتاج لأكثر من مجرد زوج من العينين!

"يحيى، أخبرنا عمّا تحمله منحوتتك عن مفهوم الإعاقة" كان هذا ما سألني إياه أحد أعضاء لجنة الحكام، فقلت له وللجميع حينها: "منحوتتي هذه رسمة ثلاثية الأبعاد لشخصية أرستقراطية ملكية الهيئة باريسية الهوى، تعود لامرأة متكاملة، تعود لمن هي ذات رقيّ نوعيّ ولمن تمتلك نظرة ثاقبة، عزيزة النفس ذات بصيرة، أبيّة قوامها رشيق

وأناقتها بهيّة، في وقفتها تنتصب العزة ولو سمعتم صوتها للمستم فيه الأنفة.

إنها امرأة عظيمة إلاّ أنها فقدت جراء الظروف القاسية من عظمة أحاسيسها! فباتت عاجزة عن التعبير والتعبير في منحوتتي الخزفية هذه يكمن رمزاً في يديها، إن المنحوتة هذه تخبرنا عن كون الإعاقة الحقيقية هي إعاقة المشاعر عن السيل الطبيعي الحقيقي المطلوب منها، تخبرنا المنحوتة بأنّ الإعاقة هي إعاقة النفس عن الحياة، إعاقة النفس عن السعادة والبهجة والرضا والثقة بالرحمن، إنّ الإعاقة هي أن يقف المرء بنفسه أمام عائق قدّره له الله رغم منحه للعديد من المجالات لتجاوزه بحال أفضل".

ياسمين: قد تتساءلون هل فوجئتِ بفوز زوجك؟ صدقاً لا لم أفاجأ، ثم كيف لي أن أفاجأ وقد سبق أن تخيلت فوزه منذ وقوع عينيّ على خبر المسابقة في الصحيفة المحلية؟

يحيى: قد تتساءلون هل تفاجأت بالفوز؟ صدقاً لا لم أفاجأ، ثم كيف لي أن أفاجأ وقد سبق أن تخيلت هذا الأمر طوال الساعات الستّ؟ أتخيل نفسي وهي تفوز!

ياسمين: أول ما فعله يحيى لدى عودته منتصراً من تونس كان تغيير اسم مشغله من اللغة الإيطالية للعربية، فبات اسم مشغله وحتى الآن "القناع"، شعرَ بأنّ من واجبه تجاه لغته أن يستثمر فيها اسم محله لعل منتجاته تصل للعالمية يوماً ما.

كذلك وجد حال عودته الكثير من العروض الهائلة تسأله المشاركة في مصانع نحت كبيرة، ووجد أمامه أيضاً الكثير من الطلبات الخاصة والمجدية لكبرى الفنادق والمطاعم والسفارات

والمتاحف والمحالّ التجارية الضخمة في كثير من البلاد العربية، بالإضافة لبعض الأماكن السياحية المنتشرة على خريطة الوطن العربي وخصوصاً في العاصمة الأردنية عمّان.

توصل يحيى في عهد عمله الأول في النحت (عهد ما قبل المسابقة) أنّ بالنسبة للصانع هناك فرقاً ما بين الإنتاج للعامة والإنتاج للخاصة، وأنّ لكل منهما سوقاً وعلى الصانع التسويق إليه، وأنه بالنسبة للمتسوق هناك فرق ما بين رغبته وقدرته على الاقتناء، وعلى الصانع رفع مستوى رغبته ليفوق مستوى قدرته، ولكن مع مرور الأيام وخصوصاً عند دخوله في عهد عمله الثاني (عهد ما بعد المسابقة) وجد أنّ كل ما توصل إليه سابقاً هراء! "لا يوجد سوى سوق واحد واسع فقط ركائزه كم الإعلان المتعلق به واسم صاحبه ومدى شهرته، واسم البلد المنتج له" على حدّ قوله.

فداء: ومع مرور الوقت ومع جريان المفاوضات بين يحيى والمستثمرين على عدة أصعدة، وجد يحيى إمكانية عظيمة لزيادة أرباحه بنسب تفوق الخيال و لم يمنعه من ذلك سوى خوفه من الغبن، والغبن كما تعلمون في شريعتنا حرام، كما أنه وجد فرصة لإمكانية تقليل جودة منتجاته نظراً لإقبال السوق على اسمه في المقام الأول لا على ما ينحته، و لم يمنعه عن ذلك سوى حبه وواجبه للإخلاص.

كذلك داوم صغيري على محاولات الابتكار رغم عدم حاجته له، فكل الأمور بعد المسابقة باتت تقبع تحت مظلّة العنوان والعنوان الآن هو اسمه "يحيى.. الفائز في المسابقة".

يحيى: من أجمل ما حدث لي في المسابقة هو مرافقتي لنحاتين من دول عربية مختلفة، ففي المرحلة الثانية من المسابقة كان هناك إلى

جانبي لبنانيان وتونسيان وجزائري وكويتي وقطري وسوري وعراقي، وأنا أردني أو فلسطيني أو أردني من أصل فلسطيني (إذ يحدث كثيراً في مثل حالتي بأن يتم نسبي لأحد الوطنين بحسب نوع الحدث وبالتالي بحسب رغبة وسائل الإعلام) كنّا عشرة نحاتين نمثّل ثمانية أعلام تحت مظلة لغة واحدة مشتركة.

ومن أجمل ما حدث لي أيضاً في المسابقة مشاهدة علم وطني في المقدمة لحظة إعلانهم للنتيجة وسماع نشيده الوطني أثناء تسلّمي للجائزة. (وكان العلم، علم وطن المنشأ حسب الأوراق الرسمية المقدمة للمسابقة).

إلاّ أنه بالرغم من اعتزازي أثناء اعتلاء علم وطني سماء المعرض وأثناء انتشار النشيد في أثيره شعرت بامتعاض لرغبتي في مشاهدة عَلَم عربيّ موحد ليرفرف دائماً مهما كانت جنسية رابح المسابقة.

وأودّ أن أختم حديثي الطويل معكم بأن أعلمكم كم أنني وددت أن أهدي جائزتي هذه لنبيّ الأمة محمد صلى الله عليه وسلّم، ثم لأن أهديها من بعده لكل العظماء الذين مرّوا عبر تاريخ الأمة والذين يمرون حتى الآن.

وأن أعلمكم كم أنني وددت أن أهديها لأوطاني الثلاثة: لوطني الأصل ولوطني المنشأ ولوطني الملهم.

وكم أنني وددت أن أهديها لوالدتي العزيزة ولزوجتي الصابرة المثابرة القنوعة ولأبنائي الصغار الأعزاء ولأصدقائي الداعمين الملحين عليّ للمتابعة على الدوام.

وكم أنني وددت أن أهديها لوالدي المحفز ولإخوتي الذين حرمت منهم إثر حرماني له، وهم الذين لطالما تخيلت وجودهم في

أي فسحة مُظلّلة أو فرصة للرؤيا في منام.

وكم أنني وددت أن أهديها لصديقة والدتي رنا ولأصدقاء والدي موسى وعصام وبراء ولعائلاتهم.

وكم أنني وددت أن أهديها لكل فنان موهوب مدفون تحت جثمان المجتمع بداعي عدم تقديره لذاته أو لعدم تقدير المجتمع له.

وكم أنني وددت أن أهديها لكل زوجين متحابّين، ولكل اثنين تصادقا تحت مظلة الرحمن.

وكم أنني وددت أن أهديها لكل الفقراء، فقراء المادّة والوقت والطموح والثقة بالله، سائلاً إياه أن يرزقهم من كرمه وفيضه.

وكم أنني وددت أن أهديها للأرامل وللأيتام ولذوي الاحتياجات الخاصة ولذويهم.

وكم أنني وددت أن أهديها لنفسي ولجهدي ولوقتي الذي بذلته من أجل أن أصل إليها.

وكم وددت أن أخبر كل البشر كم أنا فخور بنفسي وبمنحوتتي.

وأخيراً كم أنني وددت أن أهدي هذه الجائزة لكل الناطقين الشرفاء باللغة العربية.

إلاّ أنني اكتفيت بأن أهديها لكل شهداء الأمة ولأسراها، ولذويهم وللشعوب المقاومة الحاضنة لهم، ولكل من يعشق الحياة بشموخ وحرية وكرامة.

وسلاماً على آل أيوب

تمت بحمد الله

النهاية

وأنتم أيضاً أصدقائي ستنالون جائزةً ما في مضمار ما في يوم من الأيام، ما عليكم سوى طرق الأبواب بإصرار للبحث عن ذواتكم، قطعاً ستجدونها أو سيرسل الله من يشير لكم عليها أو ينبهكم إليها وقد يجدونها لكم بالنيابة عنكم.

اعزموا الأمر على ذلك وابدأوا من الآن، لن يفوت الأوان يوماً أمام قاصدي الإبداع من أهل المواهب (حتى المدفونة منها)، ابذلوا التفكير والوقت والعمل والمادّة من أجلها، وهنيئاً لكم الجلوس الهانئ على عرش النجاح.

وأخيراً أهدي لكم من أجمل ما قرأته للأديب الكبير *مصطفى محمود* في كتابه *يوميات نص ليل* إذ كتب قائلاً (مع تحفظي على نوعية المواهب التي استنجد بها أديبنا):

أم كلثوم كان من الممكن ألاّ تكتشف صوتها، وكان من الممكن أن تضيع كأي فتاة قروية تسرح في الحقل وتقضي حياتها تربي الدجاج وتطعم البط، لولا أن اكتشفها الملحنون واحتضنوا صوتها، وكمال الطويل ضاع نصف حياته في محاولة الغناء قبل أن يكتشف أنه ملحن، وعبد الحليم حافظ ضاع نصف حياته في محاولة التلحين قبل أن يكتشف أنه مغن، من قبل أن يكتشف كل واحد من هؤلاء الثلاثة موهبته كانوا جميعاً مجرد أناس عاديين.

ولكن الحقيقة أنهم لم يكونوا أبداً عاديين، وإنما كل واحد منهم كان من البداية عنده هذا الشيء الذي ينتظر معجزة الكشف

عنه، وكل واحد منّا فيه ذلك الشيء، فيه تلك البئر التي تنتظر الكشف عنها والدقّ عليها، لتنبثق في ينبوع من النعمة الإلهية لا ينضب إلاّ بالموت، والسر في أن أغلب النـــاس عـــاديون، أن اكتشاف الإنسان لنفسه، وتَعَرُفَهُ على كنوزه ومواهبه ليس شيئاً هيناً، وإنما هو اكتشاف أصعب من غزو الفضاء، وقليلون جداً هم الذين يستطيعون أن يقوموا بهذه الرحلة الشاقّة إلى داخـــل نفوسهم، إنها رحلة أصعب من رحلة كولومبس وجاجارين.

سائق الحافلة/أيوب

الفصل الرابع

الصيف

فصل ساخن، أحداث ملتهبة،
وقائع متتابعة
إنه الصيف يا سادة

موسى وشرعية البقاء بالقرب

موسى: يقولون "لكل زمان رجالاته"، وأضيف لقولهم: إلاّ الصديق! فهو رجل كل الأزمنة، فهو من بماضيه معك الثقة وبحاضره وإياك السند، وبمستقبله مع مستقبلك صورة من صور الأمان، وهو معك في قاع محنك كما حاله معك في أوج عنانك.

اقبضوا على الأصدقاء بأيديكم فوالله إنه ليخيل إليّ أنّ من أسمى تكليفات اليد البشرية مصافحة الصديق ومنها الإطباق عليه.

والعم عوني من أقرب الأصدقاء لقلبي وأصدقهم وأكبرهم سناً أيضاً. "اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلبي على قلب صديقي وثبت قلبينا على دينك".

أتذكر يوم لقائنا الأول والذي أظنه الخامس من يناير، إذ خرجت من منزلي للصلاة في مسجد الحيّ ذاك فجر، أعترف لكم كنت يومها بوجهٍ عابس، شديد العبوس! وكان هذا طبعي، وكان هناك رجلٌ في سيارته اللؤلؤية الكبيرة يتجه نحوي، أشار لي بيده اليمنى فتجاهلته ظاناً أنه يخطئني أو يشبّه أحداً ما عليّ، فأشار لي بأضواء سيارته. نعم إنه كان يقصدني، يقصدني أنا! اتجهت إليه متسائلاً فقال: "يا جار اركب معنا"!

التقيت العم عوني للمرة الأولى في تلك المصادفة ومنها كانت بداية صداقتنا، صلى بجانبي يومها، لا. بل تعمدت أنا الصلاة بجانبه، لا أدري ما الذي حلّ بي حينها! كان جسدي يحثّني للاقتراب منه ولساني يدغدغني للحديث معه، وكأن الله كان يمهد لي أمراً ما كنت أجهله! ومن بعد انتهاء الصلاة نظرت إليه لأدعوه بعيني ليدعوني بلسانه لمرافقته في طريقه للإياب كما في الذهاب، وفعلاً هذا ما حدث!

العم عوني رجل هادئ رزين منير، يتمتع بالصحة المميزة رغم كبر سنه، أراه هنا منذ قدومي للحيّ منذ قرابة الثلاثة أشهر يومياً في صلاوات الفجر والمغرب والعشاء إن كان وحضرها جماعةً، أذكر أنه قال لي مبتسماً في طريق العودة يومها: "يا بنيّ، كن بوجه رطب"!

العم: تعجب الشاب الجنوبي الوسيم من طلبي وتساءل: "رطب"؟! فقلت له: "نعم رطب. الوجه الرطب؛ ذاك الوجه المبتسم بلا سبب، على عكس الوجه الجافّ العابس بلا سبب". ثم تابعت: "وجوهٌ رطبة ووجوه جافة، إنهما صنفا أوجه البشر؛ لأصحاب الرطبة عيون تبكي في انبعاث الحياة تماماً كما تبكي في مباغتة الموت، ينشجون في اللقاء كما ينشجون في الوداع، يشكرون البسيط كما يشكرون العظيم، يتغزلون في المتوسط وكأنه بأعينهم الأجمل وأكثر، إنهم أناس يطيب ملقاهم ويطيب من بعده ذكراهم، إنهم مغناطيس السعادة، ووالله إن لهم سحراً في بث السرور.

ولا تكن كأصحاب الوجوه الجافة، فهم قساة المظهر وجلفاء القلب، في لمساتهم الجفاف، إنهم وإن اختنقوا بمشاعرهم النبيلة لا

يحررونها أبداً، فيقبعون في أسر الحسرة مكبّلين بالصمت، ألا إنّ في صمتهم ألمٌ للمحبين، وهي مراسلتهم وَصَبٌ للمُريدين".

موسى: في تلك الأثناء تذكرت مقولةً كنت قد قرأتها في كتاب *ذاكرة الجسد* تقول: *أيّ علم هذا الذي لم يستطع حتى الآن أن يضع أصوات من نحبّ في أقراص أو زجاجة دواء، نتناولها سرًّا، عندما نُصاب بوعكةٍ عاطفيّة من دون أن يدري صاحبها كم نحن نحتاجه!* ويبدو لي أن كلام العم هذا (والذي حتى تلك اللحظة لم أكن قد أحببته بعد وصادقته بعدها)، يحتاج لأقراصٍ أو لزجاجاتٍ حاويةٍ على أقل تقدير.

إنني أعلم أنّ الكلام يُسمع بالأذن، إلاّ أنني سمعت من العم كلاماً يُستنشق، لا عن طريق الأنف (وإن أدّيتُ بالأنف مشهد الاستمتاع به) بل عن طريق الروح، الكلام المستنشق يلتفّ حول الروح كسلسلة كلمات هانئة على هيئة شريط حريريّ باذخ.

العم: تابعت له قائلاً: "دائما ما أتساءل يا صديقي لَمَ تجفّ وجوه هؤلاء الجفاة؟ صدقاً لا أدري. لربما كان جفافهم خجلاً من القلب! علينا أن نحرص على ألاّ نخجل من قلوبنا أبداً ما حيينا يا صديقي، فلنتعود التلفظ بالشكر ولنواظب التعبير عن الحب ولنمارس الغزل على مكوّنات الكون ولنطلق نور التبسم على أوجه البشر، فلنمارس رطوبة الوجه".

كانت فرصةً جميلةً لي لأشارك هذا الشاب آخر ما خطّته يداي، عدا صفية لم يسمع مني هذا الكلام أيّ أحد، نعم لقد بدت عليه آثار الدهشة عقب انتهائي من كلامي، إنه لم يكن يعلم بعد أنّ هذا الكلام مُعد مسبقاً لا مرتجلاً، أين أنا من الارتجال هذا يا صديقي؟!

موسى: لم أكن أعلم حينها أنّ عبوسي غير المبرر ذاك كان سبباً لتعلق الابتسامة الدائمة بوجهي حتى هذه اللحظة كما ترون! نزلت من السيارة منتشيَ القلب، أتفكر بما سمعت، كانت سعادتي غامرة وكأن الله كافأني مكافأةً ملموسة مميزة على صلاتي لذاك الفجر بذاك اللقاء، وبعد لحظات سمعت صوتاً من الخلف منادياً: "يا صديقي"! التفتّ للصوت وإذا بالعم يقول: "لم أعرّفك بنفسي، أنا عوني، أدعوك لزيارتي وقتما شئت يا.."، قلت: "موسى"، قال: "إنني أنتظرك يا موسى، لا تدعني أنتظرك كثيراً، إنني أسكن هنا" (وأشار إلى منزله)، وأضاف: "تعجل، لا أمتلك الكثير من الوقت".

وكانت تلك مكافأة إضافية لم أعِ قدرها إلاّ بعد حين.

كان العم عوني يسكن في المنزل المقابل لغرفتي مباشرةً، لا يفصل بيننا إلاّ شارع واحد عريض فقط، ترددت في أمر زيارتي لهذا الرجل كثيراً، لم أقدر على البت بأصل هذه الدعوة، أكانت مجرد مجاملة فقط؟ أم أنها دعوة حقيقية للزيارة؟ ثم إنه قال لي بأنه لا يملك الكثير من الوقت! لاحقاً أخذت قراراً من قلبي لا من عقلي وتمالكت نفسي ذات يوم وقمت بزيارته.

العم: تقدم بي العمر ووصل بي إلى هنا وإني أحسب نفسي مفارقاً على نحوٍ قريب، أشعر بأن مهمتي على وجه المعمورة باتت على وشك الانتهاء، إنني أشتمّ الآن رائحة الموت، لست خائفاً على نفسي فكلّي رجاء من الله، وأملي به عظيم.

ما يقلقني ويحزنني أمر الأُناس المتعلقين بي من بعدي، قطعاً لا أقصد صفية بالمقام الأول، فالموت حق وعليها تجاوز الأمر كما يتجاوزه الكثيرون، إنني أقصدهم هم! قرأت في كتاب حاج

كومبوستيلا ما جلب انتباهي بقول كاتبه: *حتى عندما يعرف الإنسان أن أيامه معدودة، وأن كل شيء سينتهي في الوقت الذي يتوقع فيه النهاية، فهو يجعل من الحياة صراعاً جديراً بكائن أبدي.*

وما يدعوه الناس باطلاً كترك الآثار بعد الموت، أو إنجاب الأطفال، أو العمل على تخليد الذكرى، أرى فيه التعبير الأسمى عن الكرامة الإنسانية.

وأنا أيضاً رأيت أنّ نفسي قد دخلت في صراعٍ جدير جداً بكائن أبديّ، أريد أن أنقل مهامّي لمن يكمل المسيرة من بعدي، أريد من يسعى جاهداً مجاهداً من خلفي ليجمع أموال كفالات الأيتام ويوزعها، من أيدي فاعلي الخير لأيدي الذين أقيم على أمور كفالتهم، وبالإضافة إلى ذلك أن يقوم بدوره الشاقّ في البحث عن الأيتام الجدد، ومن ثُم البحث عمّن يكفلهم من فاعلي الخير، إنني أريد ساعياً للأيتام، ساعياً للسعادة، كفالتي للمحتاجين من الأيتام تشغل بالي، أخشى ما أخشى أن ينال منهم اليُتم مرة أخرى من بعدي، ما أقسى أن تتكرر المصيبة ذاتها للمحزون ذاته!

أما عن موسى، فكنت أعلم جازماً أنه سيأتي، لطالما فتح لنا الله الأبواب قبيل أو بُعيد إغلاقه علينا لباب آخر، موسى طالبٌ في كلية الطب، أراه بزيّه الطبي بين الحين والآخر عن بعدٍ في مسجد الحيّ.

في ما بعد أخبرني أنه يطمح لدراسة القلب، أجزم أنّ القلب بالفعل سيكون مستقبلاً تخصصه، كيف لا والقلب ما جمع بيني وبينه، وما سيجمع بينه وبينهم لاحقاً؟ اخترته انقياداً لحدسي، وثقت به من هيئته رغم كوني لا أعرفه.

هناك من الناس من نَمضي لهم الثقة على ورقة بيضاء بقلم الائتمان النفسي، مستندين على أرصدتنا الحدسيّة بلا حاجة لأية ضمانات منهم، ضماننا الوحيد هو الشعور بالمعرفة والارتياح المرسل إلينا من قِبل الله تعالى، لا جرم أن القبول في الأرض بأثرٍ من القبول في السماء.

أخبرته يومها: "دعوتك لأقدم لك وظيفة". فقال لي بدهشة: "وظيفة! وما هي"؟ قلت له: "ساعي سعادة!".

أبدى موسى ملامحاً تحتوي على كم استغراب أكبر، وقال: "السعادة! وهل للسعادة من سعاة بين البشر؟ ومن البشر"؟!

موسى: مدهش! حتى هذه الكلمة تنوء بقدرها على وصفه، كان العم يتكلم بطلاقة وكأنه يقرأ من كتاب، تماماً كما كنت أقرأ سعادته بسهولة من بين رموشه! قال لي من بعد تساؤلي عن السعادة وسعاتها: "السعادةُ أن تجعل من نفسك وقفاً لله تعالى لإبدال تعاسة الناس أفراحاً، وإبدالِ أفراحهم بأفراح أعظم وأعظم.

السعادة أن يرفّ قلبك من مكان مُطلٍ ليلَقّم القلوب المزقزقة طمعاً بالفرح فرحاً لا مثيل له، فتقرأ من تحركاتهم فرح اللقاء ومن ألسنتهم حب الحياة ومن أعينهم شكرَ الله، ومن أنفسهم استبداداً على عرش الهناء".

تناول العم كوب شايٍ أخضر ساخناً وارتشف منه قليلاً ثم أضاف: "السعادة منحةٌ إلهيةٌ لمن تفوّق بشرياً بسكبها للكون كشراب، كم جميلٌ أن تحتسي كوب السعادة وكم هو أجملُ إسقاؤك إياه للآخر جرعات وجرعات وإسقاط آخر قطراته في فمك.

السعادة كنز لا يفنى ولا يستبدل إنما ينتقل من عقلٍ لقلبٍ لقلبٍ لقلبٍ آخر إلى أن يصبّ في ميزان حسابك آخر المطاف ومعه كل ما انشطر منه أثناء تجواله بين القلوب من أثر الترحال".

كان كلام العم يلاقي استحساناً عظيماً لديّ ويزيد استحسانه باطراد، ولا يزال حتى الآن، كانت رغبتي تنحصر بطلبٍ من الزمن ليتوقف عن المضيّ قدماً قليلاً، ويعطيني هدنةً للاستمتاع بتلك اللحظات.

صدقاً هناك في الحياة حيوات قصيرة نادرة ثمينة تعطي حياتنا ثقلاً في موازين الإفادة وإثارة الإعجاب والاستغراب.

إن الشيب للرجل للتكليف لا للتوقير كما تعلمون، وأما للعم هذا فالشيب له للتبجيل أيضاً، وكما وجد من الشُيّب من يحملون العار بسبب شعورهم الشائخة والذين أضاعوا وقارهم على سفاسف الأمور مهدرين تاريخهم في أوائل شيبتهم، هناك من الشُيّب من كان غزو البياض لرؤوسهم متماشياً مع حكمة عقولهم المكتسبة والمختزنة عن طريق أجسادهم المنهكة من كدّ الحياة ومعاندتها كالعم عوني تماماً.

العم: تابعت له قائلاً: "يا بنيّ كم هو عظيمٌ أن تكون عند الطفلِ المداعِبَ المحبَ وموزع الحلوى، وعند الصديقِ المساندَ الكريمَ والمؤاخي، وعند الأهلِ البارَ الناجحَ والمُتفقد، وعند نفسك المخلصَ العابدَ والمعطاءَ، وعند الله العبدَ الربانيّ والمتفاني، وعند الأرضِ المعمر وعند السماءِ كثير الدعاء.

يا بنيّ السعادة أن تكون كما الغيث أينما حللت نفعت، تزرع البسمة على وجوه من شاركوك أيّ طعام أو تبادلوا معك أطرافَ

الكلام، أو صافحوك فقط أو تذكروك لسبب أو اشتاقوا إليك، مجرد اشتياقٍ دوري إليك".

موسى: كان العم يتكلم وكأن من أمامه جماهير وفيرة على مدرج مسرح عظيم، كالمسرح الروماني البديع الهائل المذهل، ذاك الواقع في الجزء الشرقي من العاصمة الأردنية على أحد التلال المقابلة لقلعة عمّان.

كان ينثر السعادة مع أصداء كلماته في المكان، قلت له: "يا عم أراك تتكلم وأنت في حالة سعادةٍ عظيمة"، فقال: "أتدري ما هي أعظم درجات السعادة يا موسى"؟ قلت له: "لا، ما هي يا عم؟" قال: "أعظم درجات السعادة تلك الدرجة التي لا تدري كيف ولجت إليها، أمن المعبود أم من العابد؟ من الزمان أم من المكان؟ تلك الدرجة التي ترى فيها الكون كوناً آخر خلق كمثال على جنة مكانها الأرض وروحها عنان السماء، سكانها كلهم سعيدات وسعداء".

للأسف منذ بداية صداقتنا وأنا على علم بأنها لن تدوم على الأرض كثيراً، ففرق السنين الموجود بيننا جاء على حساب عمرها، وفرق الأصول الجغرافية (كلٌ منّا من مدينة مختلفة) يصبّ في مصلحة الفراق لا في مصلحة استمرار اللقاء، فمصيري العودة لمدينتي الجنوبية عاجلاً أم آجلاً وهو من أهل دمشق، وأصوله منها.

رغم تباعد المدن جغرافياً، وبالرغم من تقارب قلوب المتصادقين فيها، إنّ لقاءنا الدوري كما كل الأصدقاء ذوي الجذور المشتركة يعد صعباً (لاحقاً) ولكنني اكتفيت بوهم ديمومة الصداقة في ما بيننا وقتها، وسأسأل الله استمرارها في حياتنا التالية.

العم: قلت له: "يا صديقي إن المقصود بساعي السعادة هو الساعي للأيتام، أعرض عليك يا صديقي أن تسعَ لهم. ألا إنّ في كفالة اليتيم درعاً متينة نحمي بها الوطن، فالكفالة ستر على عائلة ممتدة وقد تمتد أكثر وأكثر، وهي رحمٌ لعائلة نواةٍ ستكبر يوماً ما وستزهر، نحميها باحتضانها ونستثمر فيها لدنيانا وآخرتنا، كيف لا وأصلها استثمارٌ في البشر بحساب من الله، وهو استثمار أطهر وأدوم من الاستثمار في الأرض بحساب من الناس، إنّ في الأيتام الاستثمار الأجلّ.

كل ما نملكه يا صديقي الآن مآله الزوال، فكلمة امتلك تعني حاز وقدِر على التَّصرُّف في الشيء، أي بمعنى آخر صار مَلكاً على شيء ما، ولكني أراها بمعنى القبض على الشيء فقط!

فمهما كانت ممتلكاتك ومهما كانت نوعياتها، لن تتعدى قدراتك فكرة القبض عليها ولفترة محدودة من الزمن فقط، قد تستطيع نقلها من مكان لمكان والمحافظة عليها من زمان لزمان إلاّ أنّ ممتلكاتك لن تبرح الدنيا شئت أم أبيت، إلاّ ممتلكات الآخرة، المُحصَلَة عن طريق الأعمال المقدمة إليها، وكفالة الأيتام تعدّ من أفضلها".

موسى: هذا الرجل مثال حقيقي ملموس على ما قرأت في كتاب *عصر القرود*، إذ يقول كاتبه: *لكل منا وجه إلى الناس ووجه إلى الله، وذلك الوجه الثاني هو سره.*

صدقاً لقد ذهلت! قلةٌ هم من يجعلون من حيواتهم جسوراً من الله للعباد، يُضَحّون بالصحة والمادّة والوقت والرفيق من أجل الآخر المحتاج. أين أنا من العطاء؟ قطعاً ما كنت لأرفض عرضه المجزي لي، بلا أيّ حرج طبعاً.

توجد في حياتنا أحياناً صداقات تظهر لنا فجأة! بقدر غريب جداً! بطريقة مباغتة! غير متوقعة بتاتاً! تُحدث صدعاً في الماضي والحاضر لتشكل لنا مستقبلاً جديداً تنهار على إثرها حياة كاملة بكامل تفاصيلها، فتبنى على خطاها ما بقي من أعمارنا.

استشعرت عندما هممت بالرحيل يومها بضعاً من الكلمات العالقة في فم العم، كنت على يقين بأنها كانت قد اصطفّت مسبقاً على مدرج لسانه إلاّ أن هناك ما كبح جماحها فيه مانعاً انطلاقتها وخروجها، قلت له: يا عم أراك عصيّ الكلام! ألن تُفضي إليّ بما بقي على أعتاب قلبك؟

نهض العم من مقعده، وضع يديه في جيبيه، أخرجهما، انتقل لمقعدٍ آخر، وضع رجلاً على أخرى ثم وضع الأخرى على الأولى، همهم بصوتٍ خافت ثم رمقني بنظرة حادّةٍ وقال: "إنها صفية يا موسى، صفية زوجتي؛ أتركها وحيدة في هذا العالم من بعدي، خسرت رهاني على ابني الوحيد، والذي كانت خسارته من سوء تدبيري، وهي ما أزال ألوم نفسي عليها، طبعاً ألوم نفسي فالرجل لا يلقي اللوم في خسارته على أحد.

ثم إني خسرت بناتي الثلاث بكسبهن لأسرٍ رائعة خارج القُطر، وبقينا وحدنا – صفية وأنا – إنها ستتيتّم من بعدي، أطلب منك خجلاً أن ترعاها، أن تداوم على زيارتها، يا موسى".

موسى: اللهم إني أعوذ بك من قهر الرجال، بكى العم! إنها المرة الأولى التي أواجه بها دموع رجل وأعوذ بالله منها من مواجهة! في بكاء الرجل فظاعة لا تحتمل، مشهد عذاب مهيب، لا طاقة لإنسان سويّ بمتابعته، صدقاً إنّ بكاء العم أدمعني وكأن ألم المشهد

أدمى جسدي، لم يَدر لي ما أصنع في تلك اللحظة اللئيمة، ما كان مني إلاّ أن استدارت عيناي، ورُبِط متيبساً لساني واقشعرّ بدني وارتجفت كلتا يديّ.

تساءلت: ما الذي ألمّ بالرجل لتصل به الحال إلى البكاء؟ وفي لقائه الأول برجل لم يسبق له معرفة أي شيء عنه! ترى كيف كانت الحال في كبريائه؟ كيف كان الهيجان العاطفي في قلبه؟ ترى كيف تحمل شدة التيارات الفكرية في عقله؟

العم: لم أكن أرغب بالإتيان على ذكر موضوع صفية قط، إلاّ أن قلبي فشل باختبار الضغوطات النفسية عليه، وفاض بي للإتيان على ذكره، كونوا على ثقة بأن الدموع هي آخر ما يمكن للرجل أن يبذله قبل روحه، إذ إنّ الروح هي الأثمن وهي الثمن الأخير الممكن بذله، وإن كان بذل الروح بيد الرجل لما بذل الدموع قبلها أحد منهم.

موسى: هناك أناسٌ جبال في الشموخ، رسل في الدعوة، أساطير لحمل رسائل الحب، إنهم فرسان في ساحات العطاء، اللقاء بهم ترياق من سموم الدنيا، إنهم مصاعدٌ للروح نحو السماء، في أعينهم هدوء بحارٍ تسحر موجات غضبنا فتحيلها لحالة من السكون، الصداقة معهم كالحب الحق، لا يمكن أن يتّسع لهما وصفٌ أبداً، فهم من متسع لمتسع أبرح وأبرك، إنهم كالفرس الرابحة، لا تخسر بجوارهم أبداً، والعم عوني من هؤلاء.

وما أعظم يومنا الأخير، لا أزال أذكره بكافة تفاصيله أيضاً، إنّ أيامي مع هذا العم لا تنسى، كيف تنسى واليوم منها كسنة بتعداد أحداثها بوجوده، أذكر أنني سألته يومها حينما وجدته غارقاً في كتبه

وأوراقه: لَمَ تقرأ يا عم؟ أقصد لَمَ نقرأ؟ لَمَ ندفع من أعمرنا و لَمَ ندفع من جيوبنا في مجاراة كتاب أو لمداراة كاتب؟ لَمَ تجر أعيننا على مضامير الكَلِم؟ لَمَ تطوف عقولنا في أفلاك أفكار الكتّاب؟

تابعت وأنا ألتفّ من حوله: أيكون الهدف منّا بها مجابهة الملل؟ أم أنه لتكوين نضارةٍ زائفة لشخصية من الشخصيات الفارغة في هذا الزمن؟

العم: قلما يتساءل القراء عن أهداف قراءتهم، أراهم قد اعتادوها، اعتادوها وحسب! كم يستهويني الحديث مع هذا الشاب كثيراً! أجبته وهو الذي يجيد السؤال دائماً قائلاً: يا موسى في القراءة رفضٌ لفكرة الزمن الحاصر للنفس في القوالب المؤقتة والقصيرة، وإخضاع الحياة لقدر مجابهة نوازل حيواتٍ أخرى إضافةً لما لها من النوازل بمواجهة ابتلاءاتها والمساهمة في أفراحها وأتراحها.

في القراءة مشاركة فكر وأسلوب تفكير، وأمل وطريقة تأمّل، وألم وقدرة على تحمله والتعايش معه، فيه ومنه، في القراءة اختزالٌ لحكمة أحدهم، وفيها نظرة لجمال وجهة نظرٍ، وملاقاة سوداويّة لوجهة نظرٍ أخرى لآخر.

موسى: تبادلت مع العم مجموعة من النظرات الباسمة في ما بيننا، قلما نجد من يجيب الروح عن طريق اللسان، كم أتوق لأحظى بلسان كلسانه أو بأسلوب جذّاب كأسلوبه. تابعت كعادتي تساؤلاتي قائلاً: و لَمَ نكتب؟ لَمَ تكتب يا عم؟ لَمَ تعتري الكاتب فكرة مشاركتنا لأفكاره وتعريفنا بشخصياتٍ من نسج خياله؟ لم يشاركنا حبكة حياة آخرٍ قد اختلقه ويسوقنا لحله إياها بحلٍ كان قد ابتكره؟ لم يسير بنا في سراديب أسرار الآخرين بطرق أدبية منمقة لنكشف

معه عن خواتيمها واستخراج عِبَرِه المقصودةِ منها؟ أتكمن القصة في المباهاة بالقدرة على إيجاد الجليل من الفكرة، أو أن المقصود منها هو الافتخار بالاقتدار على تنسيق الأنيق من الكلام؟

العم: ها قد أعاد الكرّة بسؤال أعمق وأجمل، أجبته وأنا الذي أعشق أسئلته المحفزة لقلمي، فقلت له: ما الكتابة سوى تدوين لخبرةٍ سمعها الكاتب بشغف أو رآها بترقب أو لعله عاشها بحق أو تخيلها كوهم، فأقسم على نفسه بتدوينها للبشر على صحائفهم الورقية لعلهم يقتاتون عليها في ترحالهم في سفن الحياة يقيناً منه بصحتها. وأبرَّ بقسمه!

ما الكتابة إلاّ مجالسة العقل للعقول الرحالة بحيث يكون هو المتكلم بالقلم وهم المستمعون بالأعين، ومن بعد اختتام المجلس يصبحون هم المتكلمين بالألسن في العلن ويصبح هو الواقع بالأسر في الصمت آنذاك.. والتفكر.

موسى: كما أني سألته أيضاً عمّا يحتاج إليه المرء للكتابة فقال: "فكرة وعبرة وقدرة"، فسألته: وما الفكرة يا عم؟ فقال: "ما الفكرة إلاّ شرارة تنتج من قدح الحاجة بالخيال، فإما أن تنفخ فيها من روح الإرادة أو أن تطفئ من نسمات الإهمال".

فسألته: وما العبرة؟ فقال: "ما العبرة إلاّ اقتناص فرصة للنأي عن عَثرة، وتوفير عَبرة لعلها تبذل يوماً ما في فرحة"، وسألته: وما القدرة؟ فقال: "ما القدرة إلاّ توظيف نعمة منحك الله إياها في تقديم خدمة".

آه لو أنكم رأيتم كما كنت أرى من حوله كماً هائلاً من الأوراق المخطوطة، إنه من المحزن أن يمتلك مثل هذا الرجل مثل هذا

الكم من الأوراق بدون أية أغلفة منمقة مغرية لتوضع على رفوف المكتبات ومن ثمة في صالات المنازل!

كثيراً ما كنت أسأله عن سبب عدم خوضه عالم نشر الكتب، سألته يومها أيضاً: يا عم لم لا تنشر توليفات كلماتك للقراء؟

العم: كثيراً ما كان يسألني موسى عن هذا الشأن، بالنسبة لي، وفي كل مرة أجالس فيها أوراقي البيضاء ألتمس الكتابة تزور ذاكرتي آيات من كتاب الله تعالى من سورة الشعراء يقول فيها ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: 224–226]، وقوله تعالى من سورة البقرة ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ...﴾ [البقرة: 44]، إني أرى في ما قاله تعالى مسؤولية عظيمة ملقاة على عاتق كل من يرغب بالكتابة، فالتدوين صيغة صريحة للإقرار بالفكر، والفكر ملزم للنفس بالتطبيق، والنفس كما تعلمون في خطر الزوغان عن المسار، أكان المسار مسار النية أم مسار الفعل! وهذا ثقيل على أمثالي، شديد الثقل، فعلى كل من يكتب عن المعروف داعياً إليه أن يطبقه، ومن يكتب عن اجتناب المنكر أن يجتنبه.

ومن جانب آخر يعجبني ما قالته *إيميلي نوثومب* إذ قالت: *كم مرة أحسست وأنا أكتب بانطباع غريب بأن يدي هي التي تقود وأنها تنزلق وحدها دون أن تطلب من الدماغ رأيه. آه أعرف أن لا أحد من علماء التشريح يقبل بشيء كهذا.*

وهذا الشعور فاتن حقيقي ويحدث أن يسري بي لحالة من الغرور، نعم أعترف لكم أنني إنسان مغرور، على الأقل حينما أكتب! فإن كان وتشكلت من كلماتي لوحة ما وأعجبتني أعشقها

وأذوب في سحرها، أدفع نفسي لأعمّدها راهبةً عليها فلا تشـــارك نفسي غيرها من الكلمات لأمدّ من الزمن.

أحياناً يكون الغرور حالة من حالات الإيمان بالـــذات وهـــو بنظري محمود خصوصاً في مجتمعاتٍ أبرز ما في ثقافتها هو التهميش والتحطيم، إلاّ أني أملك من الغرور ما هو من النوع الخبيث أيضـــاً، فتسودني غيمة هائلة منه، شعورٌ بنشوة عارمة، فرح ثريّ، انتصـــار عظيم، أرى نفسي ذاك المبدع المنقطع النظير، ألا إنّ ولوج عتبة النية للإبداع برسوم نفسّية نفيسة باهظة!

كما أن الغنى عامّةً حالة تجرّنا لساحات القتال مـــع شـــهوات وأمراض النفس، النصر فيها نصران والخسارة فيهـــا بـــالكثير مـــن الخسارات وقد تؤول للكوارث.

قد تقولون إن الفقير قد يسرق أيضاً! نعم قـــد يســـرق، إلاّ أن سرقته نابعة من نفسه لا تعرض عليها عرضاً فيقتنصها. إن انتصـــار الشهوات على النفس الفقيرة أطهر من انتصارها على النفس الثريـــة، وكلاهما نجس!

ألا ترون أن الغرور بيد المشهور لا المغمور؟ ألا ترون أنّ الرشوة تُعرض عادةً ومن المخاطرة أن تُطلب؟ وللمســـؤول لا للمعـــدم؟ ألا ترون أنّ الصداقات تعرض على الجميلات لا على البسيطات منهن؟ ألا ترون أن الشاب الوسيم هو من يُستدرج لا محدود الوســـامة؟ ألا ترون أنّ الاعتداء يكون بسندٍ من جبروت القـــوي لا مـــن خَـــور الضعيف؟ ألا ترون أنّ الخيلاء تظهر بأقدام المنتصرين لا المهزومين؟

لذا أنا لا أنشر كلماتي في كتب للقراء لأقي نفســـي شـــرور نفسها المغرورة، ألا إن الفقر نعمة لا يجرؤ على طلبها أحد، لا أقصد

الفقر المادّي فقط، بل الفقر بكافة أشكاله وألوانه، فقر الموهبة والشهرة، فقر العلم والنجاح والمادّة وغيرها.

لم أجبه بأي من هذا، لأن في ما قلته لكم من الغرور ما فيه، إلا أنني أجبته مكتفياً بأنّ دخول هذا العالم الرحب برسوم باهظة على حساب عالم الأسرة، وعالم الأسرة أكثر قيمةً وأشد ندرة، ومؤقت في حياتنا الدنيا!

موسى: وكان أن سألته أيضاً يومها: يا عم إن جلّ ما أراه في أوراقك ما بين الخواطر والمقالات، لم لا تكتب لنا رواية بقلمك؟

العم: أما بالنسبة لاستفساره عن كتابة الرواية أجبته: يا صديقي، هناك اختلاف كبير بين كتابة الخواطر والمقالات (والذي هو مجال تجربتي البسيطة) وبين كتابة الروايات، فالرواية تتطلب صلات ربط عديدة محبوكة بإتقان منقطع النظير، بين الشخوص والأماكن والأزمان والأفكار، وأحياناً قد يحتاج الكاتب لتوظيف مجموعة حبكات مختلفة لتتناسب والحبكة الكبرى المقصودة من الرواية، فتتم شمولية أوسع للرواية ولمقاصدها، والرواية الناجعة بحاجة لعالم متكامل أوجد من العدم، وفكرة غير مسبوقة، وحبكة مشتهاة من العقل المتفكر، ومن ثم عرض متسلسل بنسق مفهوم لدى القراء.

وبالنسبة لي أجد نفسي في محاولة كتابة رواية طفلاً أتدرب على تركيب الأحداث وتمييز الأشخاص وإسقاط الأفكار وتنسيق الكلمات، وهذا بصعوبة بالغة إنها مهمة شاقّة عليّ، يا صديقي تندرج الرواية لصنفين: الرواية السخيفة والرواية العظيمة ولا مجال للتوسط بينهما! وما أكثر السخيفة منها.

موسى: كم ظننت أنّ أيّ قارئ متمرس قادر على كتابة رواية وصياغة آخرها!

العم: كثيرون من يعتقدون أنّ القراء المتمرسين رواة مستقبليّون وهذا خطأ! بالرغم من أنّ العلاقة بين الروائي والقارئ جدّ وثيقة إلاّ أنها مختلفة جداً. فبينما يبدأ الكاتب برسم كونٍ جديد في كتابه يبدأ القارئ لاحقاً بالإمعان فيه، الكاتب يحرق كونه بكلمة النهاية كعود ثقاب أنار لوهلةٍ وانطفأ، إلا أنّ القارئ يستمر بالإمعان فيه إلى أن يصلً إلى ما بعد دفة الكتاب.

له الحق في إكمال الترحال والإبحار من مرفأ الكاتب إلى مكان ما يختاره هو مذعناً لخياله كما كان يذعن من قبل لقلم كاتب كتابه، إلاّ أنه لن يتمكن من فرض نهايةٍ جديدةٍ على أحد، قطعاً لا أحد، ولا حتى على نفسه، تخيلوا!

وحده الكاتب من يوقّع على تراكيب الكلمات معلناً نهاية الكتاب. وحده الكاتب من يمضي على صكّ النهاية ليقبل بها لتدخل ما بين دفتي كتابه منغرسةً في آخره. نعم يحق للكاتب ما لا يحق لغيره! وكما أنّ لكل ما لدينا نهاية سواء أكان مسابقة، مبارزة أو حتى حياة أو مهما كان، للأحداث المختلقة نهايةٌ أيضاً سواء أكانت كتاباً أو مسرحية أو فيلماً أو مجرد حلم يقظة أو مهما كان، وعلى القارئ تقبلها.

موسى: كان هذا كل ما احتواه لقاؤنا الأخير، قد تتساءلون كيف لي أن أتذكر كل ما جرى بيننا! إن هناك أناساً تستميت الذاكرة في الحفاظ على ذكرياتنا وأماكننا ودقائقنا المشتركة معهم، إذ تبقى خالدة في عقولنا يقلّبها القلب بداعي الحنين، ويتفحصها بداعي

التنبه لعل وعسى أن نجد فيها كلمة قديمة أو فكرة مهملة أو نيّة مستترة أو حلماً قد نسعى نحن من أجل أحدهم لتحقيقه، حفظ الذكريات إلزامي فهي من أُسُس كل ما هو عظيم في شخوصنا.

ما أعظم صداقتي وإياه كانت في الله ولله ودامت ولله الحمد لعدة سنين، إني أرى أنّ أجلّ أنواع الصداقة تلك غير المنوطة بأحوال الدنيا، فأركانها أولئك من اجتمعوا لأجل الله فقط، ابتغاءً لمرضاته، لا تسعى نفوسهم لشيء خفيّ، إلاّ البقاء على وفاق متين، هؤلاء هم من إن نادى القدر بأسمائهم فهبّوا للمساندة بفزع المحب بلا منّة أو مفاخرة، يستترون على نقص بعضهم البعض، ويجلّون أرقى وأطهر ما فيهم.

يا لها من لحظة قاسية تلك التي وصلني فيها خبر وفاة العم عوني، لا فاجعة أعظم من فاجعة الفقد. رغم كون حالة فقد الشخوص مؤقتة إلاّ أن فترتها جد طويلة، فالموت حالة انتقال من حياة لحياة أخرى في الدار الآخرة لا محالة. كما أنّ الفقد اعتلاء درجة من درجاتنا المعدودة نحو الممات، فما موتنا إلاّ نهاية لسلسلة من المفقودات الجسيمة.

لقد فقدته! لقد فقدناه! ما أثار حسرتي أكثر أنه كان قد زارني بالأمس الذي سبق وفاته مقهوراً و لم يجدني في المنزل ووجد أيوب بدلاً مني، أيوب رفيقي الجديد والذي كان وعدته أكثر من مرة باصطحابه لزيارة العم عوني، من شدة إتيان لساني على ذكره كاد أيوب يحترق من شدة الفضول لرؤيته وها قد رآه دون أن يعلم في حينها، عاش العم ثم مات! هكذا هي لوحة الحياة كلوحة الفسيفساء كما كان أن قرأت مما كتب العم إذ كتب:

"هكذا هي الحياة قطع أحداثٍ صغيرة تتعاقب بقَـدرٍ فتتنسـق بحكمةٍ بشكلٍ محكم مشكلةً لوحةً فنيةً توقّع بالأسفل منـها برمـزٍ يعرف باسمك، بكنيتك، بلقبك، بأي ما اصطلحوا للترميز عنـك أو بالإشارة إليك.

من اللوحات هذه ما باتت خالدةً رمزاً للكبرياء كمـا بعـض العظماء، ومنها ما لا تستحق ما كان بها من العناء فأسقطها المجتمـع بسهمِ الاحتقار برسم الافتقار.

منها ما اندثرت طوعاً منتقصةً من نفسها جمالها مُفقدةً منظومة الإبداع سطراً أو فقرةً أو فصلاً أو كتاباً عن الإبداع وأي إبـداع! ومنها ما كانت فارغةً وأوصلها البعض للعنان ليقبضوا بها أثمان جهل بعض الجهلاء.

تتباين لوحات الفسيفساء هذه طبقاً لما تحمله من إرث وفكـر ومما نتحامل عليها به من تفاسير لما مضى من القدر وترانيمَ للقادم من الحياة، قد تتشابه بالشكلِ، بالمضمون وبالهيئـة، بـالحجم واللـون والوزن، إلاّ أنها قطعاً تختلف بنوعيات موادّها الأولية ودِقّـة دَقتـها الإبداعية ومرونة أبعادها الثلاثة، وبهذا كله تختلف بالأسعار.

وكما لكل قطعة فسيفساء نصيب من الألوان، لكـل حـدثٍ نصيبٌ من الحِكَم، الله أوجـدهما وأوجـد صـداهما في فضـاءات اللوحات، أفلا تستحق الأحداث منا الإمعان كما تستحق الفسيفساء منا الحفاظ على اللمعان؟ ألن نسعى لتركيب الأحداث أمام عقولنـا باحتراف كما نقصد ترتيب الفسيفساء أمام أعيننا بإبداع؟

وحذار! في الحياة كما في الفسيفساء ليس بالضرورة أن يكـون اللون الأسود رمزاً للحداد، فكم من مرةٍ أومأ السواد فيها للسماء بما

فيها من الآفاق، أو للبحر بما لديه من المكنونات في الأعمـــاق. أو أن يرمز للظل بسبب شمسٍ وقمر، أو بسبب رقصةٍ للأرض مـــع أنغـــام القدر على سطح الأثيرِ.. أثير هذا الزمن.

وكم من مرة كان البياض بصدد الترويج للزوايـــة الفارغـــة أو للأراضي الخالية؟ كم من مرة كان مراده إثبات العجز عن التعبير أو عدم المقدرة على استغلال المســـاحات المعروضـــة لإثبـــات العـــزم والتصميم على اقتناص الفرص المهداة لتحديد مصائرنا لتكون لنا نِعم المصير؟

القرار قرارك أيها الإنسان إنها لوحتك، لوحة فسيفسائك".

رحمك الله يا عم، يقولون إنّ النسيان نعمة وأقول: والـــذاكرة نعمة أعظم!

فالنسيان حالة انتهاء "نهائية" تحوّل أمراً ما للعدم، على عكـــس الذاكرة فهي صورة من صور البعث لمفقود ما على هيئـــة عـــرض صورة في الذهن، أو إحيائه على هيئة شريط لامرئي.

وما الذكريات فينا إلاّ ألبوم حياة من بضعة أحداث وأحاديـــث ومواقع وأحياناً أحلام وأفكار وتطلعات، هي بضع صفحات مزدانة بالصور تارة وبالصوت تارة أخرى، منها ما كان حصرياً ومنها مـــا كان مع آخرين، محصورةٍ بين دفتي الولادة والوفاة، وذكريـــاتي مـــع العم هذا عظيمة، تستحق أن تنقش في ذاكرتي للأبد.

فداء وأول أيام الشام

مات زوجي..

الموت ذاك الحدث العظيم، إذ به يهوي الجسد على الأرض التي خلق منها وتعرج الروح صوب السماء التي سعت إليها، وكأننا نحن الكائنات الحية نتاج يدين كان وتصافحتا مشكّلتين معاً وحدةً واحدةً بهيئة حياة، جسداً طينياً وروحاً. وإن حان موعد اللقاء الآخر انسحب، فيتفشى الجسد في الأرض كرمادٍ يزورها في كل الأمكنة وتنطلق الروح صوب السماء كسهم لمكان ما فوق كل الأمكنة.

إلاّ أنّ الموت لا يموت قبل أن يُنجِب من رحمِ الوفاءِ الحزنَ. نعم؛ الحزن وليد الموت، وما الحزن سوى عزاء في مجلس القلب يعلن عَقبه الحداد إثر إسدال ستار الحياة أمام لاعب من لاعبيها أو فريق من أفرقتها أو حتى أمام لعبة من ألعابها، إلاّ أنّ سائر الأعضاء في الجسد تتكاتف معه معلنةً حداداً شاملاً.

ما الموت إلاّ إلغاء جزء مرسوم من لوحة المستقبل، فينتقل طيفه من طرقات العقول النشطة لسراديب القلوب الحزنة.

صفية

الجدة: شرعت فداء في تفريغ وترتيب أمتعتها في غرفتها الجديدة، غرفة والدتها القديمة ذاتها، أخذت من الوقت أربع ساعات لإنهاء مهمتها. فداء فائقة الترتيب وشديدة الدقة والتنظيم مثلي تماماً، أعتقد أنّ كلتينا مصابتان بوسواس قهري بهذا الخصوص.

ناديتها يومها: "فداء! فداء! العشاء جاهز".. كان العشاء الذي أعددته لها بمفردي وليمة متنوعة من أطايب المأكولات الشامية، كانت تحتوي على التبولة، الكبة المشوية، الكبة المقلية، ورق عنب ومجموعة مثيرة من المعجنات الطازجة، بالإضافة لعصير التوت الشامي المنعش المميز البارد، أتمنّى أن يعجب ابنة الأردن.

فداء: نزلت الدرج مسرعة لألتحق بجدتي وأجلس قبالتها على مائدة الطعام لنتناول العَشاء، وقبل أن أشكرها على جهدها أولاً، وروعة شكل مائدتها الكبيرة المستطيلة ثانياً، وروعة طعم مأكولاتها ثالثاً قمت بعينيّ أتأمل غرفة الجلوس بكامل تفاصيلها الأخّاذة، لعمري إنها غرفة رائعة متخمة بالأحاسيس والمشاعر العائلية.

كان منزل جدتي مكوناً من طابقين؛ الأول هو غرفة جلوس فسيحة جداً مع نافورة ماء صغيرة داخلية في المنتصف، ومطبخ شاسع مطل على الحديقة الفاتنة وحمام واسع، وعن طريق الدرج الداخلي اللولبي تصعد للأعلى لتجد خمس غرف نوم، ثلاث بحجم متوسط واثنتان كبيرتان وثلاث دورات مياه، مع أربع شرفات مطلّة متفاوتة في الحجم، إن المنزل حديث نوعاً ما، أقصد أنه يبدو مجدداً منذ فترة وجيزة.

الجدة: من باب المداعبة فقط، قطعتُ ضاحكةً جولة أعين فداء الفضولية في غرفة الجلوس قائلةً لها: "أراك تسرحين كعاشقةٍ من نوعٍ ما؟!".

فداء: فاجأتني الجدة! فأجبتها بتلعثم: "لا".. إلاّ أنني تداركت تلعثمي قائلةً: "لا شيء يا جدتي، لقد تذكرت عمي الصغير"، ابتسمتُ ثم تابعت كلامي: "سيتزوج عمي غداً. إنه يتزوج بداعي الرغبة بالزواج لا أكثر!

كم قال له أبي إنّ الرغبة مجرد موجة لا حالة فيضان! كم قال له إنها حالة عصف ذهني يردي العقل في حالة من الخَبل المؤقت، وأن تخطيها يكمن في جسارة العقل جسارة خيلٍ اعتاد اللعب في الحروب لا أكثر. كم سأله ألاّ يستسلم للرغبة ضعفاً.. أنه إن أرادها فليطلبها بعد جولة انتصار عقله عليها، إن شاء حينها ورغب! لعمري لا أدري كيف له بطيشه وبتهوره أن يتزوج! و.. غداً!".

الجدة: سألتها: "كيف تجدين ملح الطعام يا فداء؟" استغربت فداء سؤالي خصوصاً لكوني بكامل جدّيتي وغموضي حينها في طرحي لاستفساري هذا، إلاّ أني تابعت كلامي قائلة لها: "يقولون في عالم الطهو: رشّة ملح لضبط النكهة، كذلك مشاعر الأبوة (والأمومة أيضاً)، ما المشاعر هذه إلا لضبط المشاعر الأخرى! ففي الأبوة مكابحٌ لجماح التهور وإذكاءٌ للنيران تحت قدور التقاعس، فيها تمهلٌ في القرار وتحملٌ للمسؤوليات عند الفتور في الفكر".

فداء: توقفت جدتي لبرهة لتلفظ جرعة كانت الأولى من بين جرعات عَبَراتها المفاجئة والتي أحسبها حارّة جداً، ثم تحاملت على نفسها وتابعت: "في الأبوّة تعقلٌ بالتعلق في الأمور وتقلبٌ على كل جنبات التطور، فيها رفع أسهم أهمية النفس في الوجود وإنزال شارات الحذر على ما لنا من الموجود". واصلت جدتي البكاء بحرقة ثم أكملت: "في الأبوة حراسةٌ لمرمى العائلة وتدريبٌ للاعبي

الأسرة على مبادرات الحياة ومباريات القدر". وعمّ الصمت غرفة الجلوس بعدها.

الجدة: ضحكتُ بصوتٍ عالٍ وكدت أختنق من شدة ضحكي جراء تناولي الطعام والضحك، إلاّ أنني وبضحكتي هذه نجحت بخنق الصمت فبددته.

فداء: من فرط حزنها انتابتها حالة هستيرية من الضحك المجهول النسب، ضحك لقيط! هل سمعتم به من قبل؟ الضحك اللقيط؟ ذاك الذي يُنجب للأحدٍ وللاسبب، إنه الضحك المنبثق من جدران الصمت، هو مجرد القهقهة صوب السماء لكسر قيد الأسى، لا جرم أنه هبة من الخالق لإبطال خثرات الدم. سألتُ الجدة بذهول: لم بكيت يا جدة؟!.. ولَمَ ضحكت بعدها؟!

الجدة: أجبتها والضحك يغالبني: "ألم تلاحظي تعابير الدهشة على وجهك؟ فم مفتوح كمحارة مسروقة اللؤلؤ! عينان كعينيْ الجاحظ! يد معلّقة في الهواء تحمل عناء حمل ملعقة طعام فارغة كالفزاعة؟!"، ثم نظرتُ لطبقي وشرعت بتحريك ملعقتي فيه وأكملت لها بنبرة حزينة قائلةً: "لا داعي لكل هذه الدهشة يا فداء، ما قلته توًّا هو كلام جدك عوني أنقله لك حرفياً كما كان يعرضه عليّ".

فداء: استغربت حينها، لم أكن أتوقع أن تحفظ جدتي كلاماً بكّمٍ كهذا لجدي، وجدت نفسي على أبواب سماع قصة عظيمة عن الحب ودروبه، قد قرعتُ بابها توًّا باندهاشتي البلهاء السابقة، لم أقل شيئاً حينها إلاّ: "جدي!".

الجدة: سبحان الخالق! لكل منا ذاكرة في جسده، حتى الموت لا يقدر على اقتلاعها من ذاكرة! انظر لنفسك في المرآة، كيف

للموت أن يقتلع عيني أمك منك وأنف أبيك؟ صوت جدك وضحكة جدتك؟ كلٌ منا توليفة جميلة ممن سبقونا من الأحبة الجذور مانحي أصول دمائهم لنا، حتى لو سرق الموت منّا من نحب واللهِ لا يقوى الموت على سرقة ذاكرة أجسادنا. وها هو عوني يتجلى لِي في عينَيْ صغيرتي الجميلة فداء.

بالمناسبة للأماكن ذاكرة أيضاً، فالأماكن مع تعدادها وانتشارها مسارح لأحداث الحياة نختزنها جميعاً كلٌ منا من منظور مكانه الخاص، تربطنا معاً بذكرى مشاركة اللحظات مع أحدهم بتوقيعٍ من المكان.

ألم ينتابك شعورٌ بالنقص ذات يوم جراء زيارتك لمكان لقاءٍ معتاد بحبيب أو صديق أو قريب ما من دونه؟ قُلت لها حينها: لكِ عينا جدك، إنهما العينان اللتان أعشق!

فداء: بعد انتهائنا من تناول الطعام انتقلنا لزاوية المكتب على اليمين من غرفة الجلوس، جلست جدتي على المقعد المخملي أمام مكتب جدي عوني رحمه الله، تيقنتُ بانتقاء المقعد هذا رغبة جدتي بترك مقعد جدي فارغاً لئلا يحل مكان زوجها أحد، أو ربما قد تقولون لي إنّ هذا المقعد كان مقعدها المعتاد معه من يدري؟

فجلست على مقعد آخر قبالة جدتي ورحت أتأمل المكتبة الخشبية الكبيرة الموجودة في ظهر المكتب، كان مكتب جدي شديد الفخامة، إخال كبار رجال الأعمال والسياسيين سيرغبون بمثله، وربما نوعية معينة من اللصوص المنتشرين في بلادنا سيرغبون به أيضاً كمظهر من مظاهر المناصب لإخفاء عملياتهم في النهب والاحتيال المتكررة.

كانت مكتبة جدي منوّعةً بالعديد من أصناف الكتب وبأجناس كتّابها، كانت مكتبة مثيرة! تاريخ، سياسة، فقه، أدب، روايات،

كتب طهو، كتب قديمة وأخرى من العهد الحديث، وكما وُجد القديم جداً وُجد فيها الحديث جداً أيضاً!

الجدة: سألتني فداء بوجه مكسوٍ بالفضول: "أخبريني عن جدي، وعن نفسك، اروي لي من حكايتكما، قصّي عليّ أي شيء، بل كل شيء".

سعدتُ بدوري جراء مرور ذكرى زوجي على مدى سمع أذنيّ من جديد وأجبتها: "يقولون لكلٍ من اسمه نصيب".. إلاّ عوني! فللاسم هذا من فعل عونينا نصيب، فالعون فيه كعون القمر لإنارة الأرض بل كعون الشمس لإنارة نصيبها من الكون، عزمه عزم مجاهد إن أقبل، وعزم شهيد إن عاود الكرّة ومن جديدٍ أبهر فأقبل، عوني كالبدر إن بان، وكعازف الليل إن شدا وحدّث، منيرٌ إن أشار فأرشد، قاطع جازم إن اعتمد أن يفعل فسيفعل، تُخطُ من مسيره الهدى، وهو كالغيث إن أعطى – حتى وإن حَرَم – والحرمان عنده فعلٌ لا يُفعل.

بلغ جدك من العمر ثمانين عاماً وثروة لا بأس بها من المال ومجموعة كبيرة من المقالات، وقلب امرأة لم تعرف رجلاً غيره ولن تعرف! ولا تعترف بوجود رجالٍ من بعده أصلاً، قلب امرأة ماتت يوم مات، بعمر ينقص من تاريخ وفاته تاريخ يوم زفافنا.. زفاف عوني وصفية.

في العموم يزداد الرجال جمالاً مع العمر ويبدأ فكرهم بالنضوج أكثر فأكثر، إلاّ عوني فقد كان في قمة نضجه منذ بدء عمل عداد عمر لقائي به، واستمر على حاله الأولى فهو بعيني كمالٌ لا كمال يزايد عليه، وما أضاف الزمن إليه إلاّ رونقاً كما زاده الشيب وقاراً.

ألقى عوني بروحه عليّ أطروحةً للكمال، فانكفأت على وجهي لأتدارسها زمناً مما لدي في حياتي من الزمان، فوجدت نفسي أتضرع لله الثبات على كمال هذا الكمال، كان يُبحر على أنهـــر الرضـــوان ويستظل بالطموح وقوته الإيمان، دائم البحث عن شاطئ الأمـــان في زماننا هذا زمان البلاء والافتتان.

قال لي فؤاده: "يا هذه.. يا صفية! هَبِ لي عِندك بيتاً في قلبك، فوالله لقد حُطّمَت مراكبُ أحاسيسي تلقاء أفعالِ أمواج كلماتـــك، ومَزّقَت رياح حُبّكَ كل أشرعتي الوَلِهَة من جرّاء نبضات نسماتك، فألقيتها هناك مدمّرة على يَمّك، جهة اليمين مِن قلبك".

كانت هوايته الكتابة ولا تزال هوايتي الطهو من أجله، كـــان يقتبس من كتب مكتبته ما أحبّ من المقطوعات النصّية ليشيد عليها من فكره ما يشاء من نُصب الكلام، كان يحب كتابة وجهات نظره وخلاصة فكره الخاص في شتى أمور الحيـــاة، في الحـــب والصـــداقة والأخوّة، في الأمل والنجاح والحياة، في المستقبل والماضي، عن حِكم القدر وحتى عن حِكم الممات، كانت رياضته التأمل وجُّل خلوتـــه للتفكر.

كان يطمح لجمع مقطوعاته الأدبية في كتاب واحد إلاّ أنّ قدره لم يهبه من الساعات ما كان كافياً لهذه المهمة أبداً، اختارني وبناتـــه وعمله وضحّى بأقلامه وأحباره.

لا أدري أكان هذا صواباً منه أم خطأً منا! صواباً أن عاش معنا أكثر أم خطأً منّا أن منعناه من البقاء مخلداً في مكتباتنـــا ومكتبـــات القرّاء ككلمات وفقرات ما بين دفات كتاب!

فداء: سألتها حينها: "وأنتِ؟".

الجدة: أجبت حبيبتي: "أما أنا فكانت ملذاتي كلها في عينيْ جدك عقب تلك اللحظات التي تدخل بها قطعٌ من مكونات أطباقي إلى فمه ليتذوقها، تماماً كما كانت تكمن ملذاته في نظرات عيني تلقاء سماعي لكتاباته، كان يتأوه الشكر ويرسل القُبل عن سطوح الأطباق، كان يضحك كالمجنون كما كان يعشقني بجنون.

لأجله أحببت الطهو ومن أجله سعيت لاحترافه كم كنت أتوق لعودته لمائدتي بعد يومه الطويل الشاقّ المكابد لأعمال الحياة، كي أذوب في نظراته وهو يتلاعب بحاجبيه متفحصاً أطباقي، كان يتكلم معها وكأنها من بناته الثلاث، كان يجعلها بين عينيّ وعينيه ليراقب قلبي المتلفّه لإطرائه".

فداء: لم أر عيوناً تنبض بالحياة كعيون جدتي ذاك اليوم، يا لها من عاشقة مخلصة!

الجدة: أكملت حديثي لها بقولي: "أتعلمين يا فداء؟ لم يتناول جدك عوني الطعام خارج منزلنا قط! إلاّ عند والدته ووالدتي، كان كلامه كالذهب! وكان في صمته جمال فاتن كجمال تلك اللوحات الشهيرة المعروضة في متاحف العالم العريقة.

كيف لا أنتشي بفرحه، ونحن معشر الطهاة من نبدأ الطهو من العدم ونسعى بكل قوّتنا إليه، من القِدر الفارغة النظيفة للقدر الفارغة المتسخة، من مِعَدِ الآخرين الممتلئة بالفراغ للقلوب الممتلئة بالشكر؟

إننا نبني معجزات لا تقل عن معجزات أهرام مصر ونزّين تحفاً لا تقل بهاءً عن البتراء الأردنية المزدانة بالنحوت، نبدأ بالتفكّر بما يحبّ من نحبّ، ثم نسعى للجلب من شتى الدروب كجباة ممتلكات

أحد الملوك، ثم نبدأ البناء بالحب والطهو بشغف ومن ثم التقديم بالعرفان والترقب كمن يترقب نتيجة انتظار لحدث ما.

لم يطلب يوماً مني أيّ طبق! كنت وفي كل يوم عندما أسأله: بما ترغب؟ أجاب من بعد أن يوهمني بأنه محتار: "اطهي لي ما يشتهي قلبك؟"،كان يعلم أنّ قلبي لا يشتهي إلاّ قلبه، ولقلبه كنت أغزو المطابخ لأنتصر في إعلاء رايات الإرضاء، رغم أنني موقنة دوماً بشكره كنت أتوق طامعةً للمزيد من الانتصارات".

فداء: في هذه الأثناء قمت لأتفحّص المكتبة عن كثب، والتي كان أول ما تراءى لي وأنا أنظر إليها أنها كتب مرتبةٌ تبعاً لسنة الإصدار، فمددت يدي نحو أحدث كتبها وكانت المفاجأة! كان أحدث كتبها رواية *ساق البامبو*، فتحت الكتاب مندهشة فسقطت منه ورقة صفراء لتزيد من دهشتي، تداركتها بخفة وأمسكت بها قبل أن تسقط وقبل أن تسقط نظرات جدتي عليها ووجدت في السطر الأول مكتوباً عليها: يقول *سعود السنعوسي* في روايته: *الغياب شكل من أشكال الحضور*.

وفي الأسفل من هذا وجدت كتعقيبٍ بقلم رصاص:

"والحضور الجزئي شكل من أشكال الغياب، الغياب الأشد غلظة! فعندما يستغل الزمن تواري أحدهم عن مُقلتينا يهاجمنا بقسوة في مخيلتنا فيستبيح قلوبنا ويسبي حاضرنا وينكّل بالجميل من ذكرياتنا، فلا نملك لأنفسنا سوى الاستعانة ببعض ما بقي منه حاضراً (من ذاك المتواري) بمقعده المحبب، بكتبه، بملابسه، بنظارته، بزجاجة عطره وإن كانت فارغة، بكأسه المفضّلة، بمقصّ شاربه وبحذائه المتسخ.

نستعين بها جميعاً لاستدعائه من مثوى ذكرياتنا الدفينة لواجهتها الأمامية، فيكون المتواري محسوساً لا ملموساً، مُسمِعاً لا مُتَكلماً،

مؤلماً لا مرئياً، أي موجوداً لا موجوداً. أليس الجزئي هـذا أغلـظ أشكال الغياب؟".

فتساءلت بنفسي مستشعرةً بشيء من اللامنطق: ألم تصدر هذه الرواية بعد وفاة جدي ببضعة أيام! ثم قد كُتب هنا "مقص شاربيه"؟ قطعاً إنها امرأة و.. محبة.

تراءت لي فكرة ورحت أتأمل نجاحها فسألت جدتي: "هل كان جدي سعيداً بهوايته كما سعدتي أنت بهوايتك؟".

الجدة: أجبتها كما أجابني سابقاً رحمه الله، قلت لها: "قـال لي عوني ذات يوم: كم أنا سعيدٌ وأنا أكتب! والله إنه يخيل إلي أنني أسمع صوتاً يقول لي أكتب وارتقِ، عندما أكتب يتوقف الزمن من حولي، وتزقزق الكلمات طمعاً فيّ لأصطادها، تتطـاير الجمـل وتتناسـق كباقات الأزهار وتتناسج الفقرات كخيوط الصوف لنسج الفصول، أرى نفسي رسولاً أحمل على عاتقي قِرَبَ الأحبار لأدلقهـا علـى سطور الورق مبلغاً الناس عن مكنوناتها".

لسبب ما كنت أجهله استرسلت بكلامي المنقول عن زوجـي ككاتب، صدقاً أحسست بشعور غريب، أحسست بـأنني أحمـل رسالةً من عوني لحفيدتنا فداء لم أعِ سببها ولا أعتقد أنّ فداء وعتها تلك اللحظة!

فداء: تابعت جدتي كلامها المنقول بحرفية متقنة في الإلقاء مبديةً إمكانيات مذهلة في حفظه وقالت على لسان جدي أيضاً: "الكتابـة عَزف صامت على لوحة الكلمات، هي توليفة عجيبة منـها ومـا بينها من الفراغات عبر أسطرٍ على الورق. إن الكتابة مـن ضـرب الفنون!".

الجدة: إنه من الصعوبة بمكان أن أتوقف في منتصف كلام زوجي، إنني أكره الوقوف في المنتصف تماماً كما كان يكره، دائماً ما كان يرتاد الأطراف في كل شيء إنه يعشق التطرف في شتى الأمور.

أكملت لها كلامه فقلت: "وكما للصوت المعزوف طبقات، للكلمات المكتوبة طبقاتٌ أيضاً تتدرج طبقاً لتركيز المعنى فيها، وشدة وقعها على القارئ ومدى تجانسها مع ما خُطّ قبلها. لكل كلمة زخرفة على الورق، وحيوية منعكسة على العيون، ونغمة لدى القلب، وعذوبة ما للنفوس".

فداء: وكان آخر كلام جدي رحمه الله: "تعزف الكتابة على آلات مختلفة كالموسيقى تماماً، فهناك كتّاب يعزفون على القلب وآخرون على العقل وآخرون على الخيال وآخرون على الكذب! الكتابة لغة واحدة يا صفية وإن كانت تُخط بالعديد من اللغات، ولكن يأتي اختلاف لهجاتها من اختلاف الشعوب والكتّاب لا أكثر".

الجدة: لم أحظَ بحوار كهذا منذ وفاة زوجي فأنا من بعده ككتبه لا يقرأني أحد، عدا الخادمة لا يمسح الأغبرة عن لساني، أجمل ما في فداء كان إيمانها بأنني لا أستحق تلك الحوارات التي تجرى مع أشباه الأموات التي تسبق وفاتهم وتذكرهم بها، كفوا أيها البشر عن الحديث مع العجائز كالأطفال تارةً وكمشاريعَ اقترب موعد تسليمها للقبور تارةً أخرى! "كيف حالك يا جدة؟ كيف صحتك يا جدة؟ هل تشعرين بشيء ما يا جدة؟" هراء، هذا هراء! نعم أشعر، أشعر بأنني طفلة يتيمة لا أم لها ولا أب من جديد، بسببكم لا بسبب

الزمن! أشعر بالموت كل يومٍ طالبةً إياه بسببكم، لا تزالُ الـــروح في جسدي فلمَ العجلة؟ ألا يكفيني موتي بوحيدي!

فداء: تابعت جدتي حديثها بقولها: "أتدرين يا فداء في الكتابـــة هوس وفي انقطاع الإلهام كآبة، آه كم كانت تأخذ الكآبة من وقته، كانت تأخذ أكثر من وقت كتابته بكثير تخيلي! لم يكن يكتـــب إلاّ وهو جالس على مقعده المخملي ذاك (وأشارت للمقعـــد الموجـــود خلف المكتب الذي كان تجنبت الجلوس عليه) كان يقول لي دومـــاً: أريد أن أسقط المثالية على جسدي لعلها تعود على ما أكتبـــه مـــن الكلام".

لم أتمالك نفسي من تأخير إبداء إعجابـــي بذاكرتها، فقلت لها: "تملكين ذاكرة خارقة يا جدتي!" ثم تابعت مبديةً رأيي المصطنع لهـــا: "إلاّ أن الكتابة هواية خجول، إنها لا تروقني، أعترف لك بأنها موهبة ولكني لا أتمنى مثلها أبداً، لا أحب أن أعتزل الناس لأجالس الـــورق ولأتسامر مع الحبر وأسرح وأنا وحيدة بـــالفكر، إنهـــا للخجـــولين فقط!".

الجدة: نهضت من مقعدي مسرعةً نحو المكتبة وتناولت كتابـــاً وفتحته وقرأت لها منه بتسرع: *كيف تريد أن يكـــون كاتـــب مـــا خجولاً؟ إنها المهنة الأبعد عن الخجل في العالم، فمن خلال الأسلوب والأفكار والحكايات والأبحاث لا يتحدث الكُتّاب إلاّ عن أنفسهم، وزيادة على ذلك فهم يفعلون هذا بالكلمات. الرسامون والموسيقيون يتحدثون عن أنفسهم أيضاً، ولكن بلغة أقل فجاجة من لغتنا.*

كست حمرة مباغتة وجهي ورحت أقلّب نظراتي في الاتجاهات المختلفة طامحةً بالاختفاء.

فداء: ابتسمت ابتسامة المنتصر، وقفت واتجهت نحوها ثم سألتها: "جدتي؟ لم تخفين عنا معرفتك بالقراءة، وأعتقد أنك تخفين عنّا الكتابة أيضاً!"، وقرأت عليها مما سبق لي وقرأت مما خطت قطعاً بيمناها أو يسراها لا أعلم: *فيكون المتواري محسوساً لا ملموساً، مُسمِعاً لا مُتَكلماً، مؤلماً لا مرئياً، أي موجوداً لا موجوداً.*

الجدة: اعترفت حينها لها بلسان المجرم النادم وقلت: "نعم أقرأ وأكتب أيضاً! ما قرأته لك الآن من رواية *نظافة القاتل*. نعم يا صغيرتي الذكية لقد نجحت باستفزازي فكشفتي سري، وحده أخي الصغير مسعود من يعلم ما علمت به توًّا".

فداء: اقتربت من جدتي وضممتها لصدري بقوة، كم أنت عظيمة يا جدتي، سألتها: "ولكن لمَ يا جدة ومتى تعلمت وممن؟".

الجدة: إنها المرة الأولى التي أتطرق فيها لذكر هذه القصة في حياتي، ترددت كثيراً كثيراً، يا لها من صعوبة أن تكشف ستر سرك القديم أمام أحد خصوصاً عند المرة الأولى! إلاّ أنني أجبتها فلم يبدُ أمامي مخرج: "أنجبت أمي خمسة صبيان في خمسة أعوام متتالية، كان يرغب والدي بالمزيد منها إلاّ أن جسدها كان قد أنهك، فمرت عشرة أعوام عليها أعواماً عجافاً، ومن ثم جئت أنا – الفتاة الوحيدة – رغماً عني ورغماً عن رغبة والديّ تحولت لخادمة للأسرة الذكورية الكبيرة، كانت أمي دائماً ما تعتذر مني إلاّ أن جسدها داوم على شكر قدومي.

أبداً لا أتأسف على حياتي تلك رغم قسوتها، إنني مؤمنة بأنّ الجنة التي سكنتها مع عوني لم تكن جائزة ترضية لحياتي كخادمة مع إخوتي فقط (رغم محاولاتهم للتخفيف عني دائماً)، بل إنها الجائزة الكبرى لفتاة واحدة اختيرت من بين فتيات العالم أجمع.

كان أخي الأصغر مسعود الأقرب إليّ رغم الأعوام العشرة الفاصلة بيننا، كان يحبّ الاستماع إليّ (أو يدّعي ذلك)، علّمني الكثير عما يوجد خلف جدران بيتنا العربي، إلى أن جاء ذاك اليوم!".

فداء: قلت لها قاطعةً عليها استرسالها في حديثها: "انتظري يا جدتي". وذهبت لأجلب مجموعة متنوعة من المكسّرات التي عثرت عليها موجودةً في مطبخها، وعدت مسرعة ووضعت المكسّرات بالقرب منها وقلت: "تابعي من فضلك".

كان الجوّ في غرفة الجلوس رائعاً للغاية، كنت أتشرب الحوار معها بنهم عجيب! من غرابة سير الحديث بدأت أتساءل في نفسي ما إن كان هذا الحوار يهيئني لقدرٍ ما!

الجدة: آه كم أعشق عينيها، تحب حفيدتي فداء المكسرات كثيراً كأمها، تبسمت لها وتابعت لها قصتي قائلةً: "في ذاك اليوم عاد مسعود مبكراً على غير عادته للمنزل واختلى بأمي وتحادثا بصوت خافت بعيداً مني ثم خرج مسرعاً، وبعدها اقتربت أمي مني مبتسمة وفي عينيها تشكلت سحبٌ تحمل في طياتها من الدموع.

أذكر أنني قلت وقتها: أمي! فقالت: "ستتزوجين يا صفيه"، ركضت مسرعةً نحو الدرج للطابق العلوي لغرفتي وأغلقت الباب خلفي، وبدأت نوبة بكاء.

قالت لي أمي من خلف الباب: "إنه عوني صديق مسعود". لعلها رغبت بالتخفيف عني بذكرها لاسم أخي مسعود مرافقاً لاسمه، رحمهما الله".

فداء: كان هناك تساؤل واحد بذهني في تلك اللحظة، كيف يكون وقع اسم الزوج المقترح عند الوهلة الأولى لدى الفتاة؟ فسألت جدتي: "كيف بدا لك الاسم يومها؟".

الجدة: كان شعوراً غريباً غير قابل للتفسير، أجبتها قائلةً: "لا أذكر سوى أنني فرحت لمجرد فكرة صداقته بأخي المحبب، وفي المساء قدم مسعود لغرفتي وأخبرني عن عوني الكثير، لقد بدأت أتعلق به من وقتها.

حتماً سأتزوجه بقرار من والدي فلمَ لا أعطي نفسي فرصة حبه ولو للحظات، من يدري ما يخبأه عوني لي؟ كان هذا حديث نفسي حينها".

فداء: أمور مربكة لنسق الحياة الروتينية، يا لها من مشاعر مختلطة، سألت جدتي: "هل تذكرين ما قاله لك جدي مسعود حينها؟".

الجدة: آه كم فتحتِ على جروحي يا فداء، الكلام عن الموتى الأعزاء صعب تماماً كصعوبة فتح القبور عليهم!

لم أبكِ! فوالله وكأن الدموع تسامت للبخار من عينيّ من حرارة الفراق، أجبتها عن تساؤلها قائلة: "نعم أذكر ما قاله لي مسعود يومها، إذ قال: يا صفية عليكِ أن تتعلمي القراءة والكتابة، فعوني هاوٍ للكتابة، إنه كالكتّاب تماماً ومتعلقٌ شديد التعلق بالقراءة، والمرأة التي لا تشاطر زوجها اهتماماته ستشاطره إيّاها امرأة أخرى، تذكري هذا يا صفية!".

فداء: أبديت تعجبي فاعترضت قائلة: "ليس عدلاً، لم تَسكُب المرأة شخصها كماءٍ في التراب من أجل رجل؟". فأجابتني

جدتي: "لتغذي بذورها يا بنيّتي"، وابتسمت وقالت لي: "ألم أقل لك من قبل! لك عينا جدك".

الجدة: قمت للمكتبة مرة أخرى واخترت كتاباً آخر وقلت لها: "كنت أقول قولك هذا من قبل إلاّ أنني وجدت جواباً لتساؤلنا هنا في هذا الكتاب: *إن الطريق إلى قلب الرجل قد يجرف المرأة بعيداً من نفسها أحياناً يا عزيزتي، لا يهمني فأنا مستعدة للذهاب إلى أبعد حد*، كان جواب تساؤلها هذا من كتاب *قواعد العشق الأربعون*".

فداء: تفكرت بقول جدتي واقتنعت به، إلاّ أني تذكرت فسألتها: "لم تخبريني لَمَ كانت معرفتك بالقراءة والكتابة سرية؟"، فأجابتني قائلة: "يا فداء، في أرض الكتابة وفي فضاء الكلمات لا يعترف الكاتب المبتدئ بكونه مبتدئا أمام نفسه أبداً، وإن فعل حقاً فلن يتعدى بدائية قلمه ووهن شخصيته، سيقع في فخ وهم حاجز الانطلاق وسيكبل قلمه بقيود التوجيهات والآراء، إلاّ أنه يكرر نطقها رغم أنف قلبه أمام الجميع "أنا كاتب مبتدئ" كدرعٍ يجابه بها حكمة النقّاد وحقد الحسّاد وغيرة بعض الأصدقاء".

الجدة: وأضفت أيضاً: "لذا تظاهرت بجهلي بالقراءة ليتمكن عوني من الانطلاق بلا تردد أمامي وأمام نفسه، كنت أريد أن يراني قلباً إضافياً لقلبه لعل لقلبينا وبطاقتيهما معاً القدرة على الصمود أكثر أمام عناد اليأس وألم التوقف عن الكتابة وأمام المخاوف بسبب تأرجح الآمال والتطلعات.

كنت أستمع إليه بشغف وأقرأ بفضول حال تمكّني من الوصول لمسوّداته، الكتابة يا فداء قلب يتكلم وعقل يتفكر وضمير تعهد بالأمس بالمشاركة، وفي عرض الكتابة طموح متّقد وجرأة صارخة

وحياء منتهي الصلاحية، وفي الدفاع عنها قلم مسلول ولسان لاذع وجيوش متأهبة من الكلمات".

فداء: لا تزال الجدة تتعاظم قدراً أمامي أكثر فأكثر، أين أنا منها ومن حكمتها أجزم أنها قرأت المكتبة هذه كلها، يا لها من جدة، أذكر أنني سألتها أيضاً: "جدتي! أراك تحبين ما يحب وتسقطينه على نفسك!".

فعاودت جدتي فتح كتاب *قواعد العشق الأربعون* الذي كان في حوزتها حينها وقرأت لي منه: *كل حب وصداقة حقيقيين هما قصة تحوّل غير متوقع، ولو بقينا ذات الشخص قبل أن نحب وبعد، فهذا يعني أن حبنا لم يكن كافياً.*

كلامها مذهلٌ، وذاكرتها مذهلة أكثر، سألتها: "جدتي! لقد قرأت ما خطته يمناك على رواية *ساق البامبو*، أرى أنّ لك أيضاً قلماً يكتب بجمال كما سمعت منك من كلام جدي، هل ستقولين إنك كاتبةٌ مبتدئة؟".

تشاركنا الضحك معاً أنا وجميلتي (جدتي)، علمت من هذا اللقاء الجميل أن الحياة مدرسة أعظم ممّا تخيلت، كم حمدت الله على ما لي من جدة وعلى ما كان لي من جد رحمه الله، تناولت الكتاب من الجدة وحضنته بين أضلعي وقلت: "سأستعيره منك يا أم أمي"، قالت لي حينها: "المكتبة لك استعيري من كتب جدك ما تشائين".

وكان أن سألتها أيضاً: "أتؤمنين بالعشق يا جدة؟ يقولون إن الحب غير موجود!".

الجدة: كم قيل لي إنّ هذه الأسطورة (أسطورة خيالية الحب)، إلاّ أني أجبتها: "دعيهم وشأنهم يا صغيرتي، فالعشق لا يلقن من قلبٍ

لقلب ولا يقرأ بالعين من على الورق، ولا يسمع بالأذن بسبب جلبة في الحياة. إنه لا ينفذُ من قصةٍ لأخرى.

فالعشق كما الموت انتقال من عالم لآخر، لا مرسال من هنا لهناك، وما للعودة إلينا من سبل عندهم، إذ يسجّى كل قلب في قالبه الخاصّ كما تسجى جثث الأموات في قبورها الخاصة، تلك لديدان الحياة بأمل بالبقاء وتلك لديدان القبور بلا رجاء بأي بقاء، إلاّ أنّ القبور تتشابه على عكس قوالب الحب في الحياة فتراها تزيد عند قوم وتتناقص عند آخر.

الحب تفاعل غير متوقع النتائج ولا العواقب، إذ يختلف باختلاف القلوب المتفاعلة (بأهدافها ورؤاها وتوقعاتها)، وباختلاف الأوساط الحاوية لها (بأنزيمات العرف والعادة والوراثة أيضاً!)".

أطلقت فداء أمنية محفوفة بالمخاطر بعد استعارتها للكتاب إذ قالت: "أتمنى أن أتزوّج رجلاً تماماً كجدي". يا ترى هل كانت أبواب السماء مفتوحةً حينها؟

إلاّ أنني قلت لها: "لا أراها أمنية صائبة أبداً يا فداء فجدك عاشق عظيم، والعاشق الحق إنسانٌ صاحب نفسٍ كريمة لا يقبل بحبّ عابر ولا اعتاديّ، إذ بمثله يتألم أشد الألم، ستبذلين من أجله الكثير الكثير وقد لا تطيقين، إنّ النفس العاشقة الكريمة لا تجد من الأراضي ما تحتويها وتحمل عنها عشقها الكريم، فكلما مرت بإحداها كانت تنوء بها وبحبها فوجدت النفس الكريمة نفسها في الوحدة، فنفت نفسها بملء إرادتها من أراضي كوكبنا لأراضي يقين العشق الأسطورية. وهناك في الأراضي الأسطورية لا تجد النفس الكريمة مجالاً أمامها لشيء سوى التفرّد في الحب وعزف أغرب الألحان

العشقية الآسرة، حيث تقتني أعمق كلمات الهوى وأشدها سحراً، حيث الجنون بالهوى تعقّل والكرامة في الحب هراء، هناك تغلف الهدية قبل مجيء المناسبة، ويوجد العذر قبل إتمام الجُرم، حيث يكون البذل والعطاء من القلب ويكون التلقي كافياً بالآذان، يا فداء تتشارك النفوس الكريمة بالهمة العالية للغرام في النهار كما تتشارك بمكان التظاهر بالمبيت على النوافذ الواسعة للانتظار".

فداء: سألت جدتي: "انتظار من؟" فأجابت: "انتظار مرسال الحب من الآخر، إن كان هناك من مرسال"! وتابعت: "في تلك الأرض دائماً ما يصل الجواب متأخراً مهما استعجل، قصيراً مهما طال، ركيكاً مهما كان فيه من البلاغة، متوسط الجمال مهما كان طاعناً في الجمال، متوسط الكلفة مهما كان باهظاً، وحتى التوسط هذا يعود لأنه داعب أيادي المحبّ لا أكثر. لا جرم أن يزداد حصادنا من الألم مع زيادة بذلنا في مزرعة الحب العظيم. الحب العظيم داء قبل أن يكون حالة كمال تصيب النفس القابعة في أراضي يقين العشق ما بين العشاق".

فتحت كتابي الجديد *قواعد العشق* بشكل عشوائي، ووجدت فقرة خُطّ تحتها بقلم حبرٍ أسود: *منذ اللحظة التي دخل فيها حياتي دأب الناس على سؤالي ما هو الشيء المميز الذي وجدته فيه. لكني لا أجد رداً على سؤالهم هذا. وفي نهاية الأمر، فإنّ الذين يطرحون هذا السؤال هم الذين لم يفهموه، أما الذين فهموه، فلا يطرحون أسئلة من هذا القبيل.*

ابتسمت جدتي وانسحبت لمطبخها، وكأن حدسها أخبرها بأنني وجدت جواباً على تساؤلٍ كنت على وشك أن أطرحه عليها.

الجدة: آه يا فداء.. ليس الكلام بالنطق فقط! أليست الابتسامة رقصة باليه الكلام؟

فداء: ألم أقل لكم إنها صفيّةُ من قبل؟ صفيّة القلب تارةً وصفيّة القلب تارةً أخرى؟ طوبى لمن سكن قلبها.

أيوب وأول أيام الشام

أيوب: لي هواية يقتات طموحي عليها، ولي حلم يقتات بدوره عليّ، بالنسبة لي أنا لا أدّعي الموهبة أبداً إزاء هوايتي، فأمر الموهبة لا يعنيني بتاتاً، فالموهبة أمرٌ لا يقيس أبعاده وصداه إلاّ الناس، ووجودها لدي من عدمه أمران سيان، فأنا هاوٍ لنفسي.

أنا هاوٍ، وما حقيقة الهواية عندي إلاّ صيغة للتمرد على النموذج الاعتيادي للبشر، محاكاة للتغيّر، نظرة من النفس للارتقاء بالـــذات، دعوة للبذل والعطاء، ارتقاءة للتميز ومحاولة للتفرد، كما أنّ في الهواية فكرة عن إمكانيات الجسد والفكر المدفونة.

إنّ ما أدعيه بفخرٍ هو هوايتي، نعم بعثتُ بهواية عظيمة، الرسم هوايتي. أنا كرسام وإن كنت هاوياً أنطق بالريشة، فالرســـم لغـــتي. الرسم مساحة تعبيري الحرة التي أستدعي بها المعاني بـــالألوان كمـــا أستدعي الأفكار بيديّ هاتين عن طريق التعرجات، الرســـم حريـــة مطلقة، عبادة وإيمان، رقص وغناء، إن كل شيء ممكن على اللوحات والورق.

وعذراً ليست الرسمة كالصورة، فالصورة تخزين للحظة ما كـــان وقتلها الزمن بلا أسى، ككائنٍ ما وألقي القبض عليه على حين غِرَّة منه، أما الرسمة فهي تعبير عن شيءٍ ما بروح راسمها وبتوابل آرائه وعصـــارة

أفكاره، كل خط أُوجد لمعنى وكل لون اقتيد لمغزى، وكما أن كل كتاب كتب كإهداءٍ ما، فإن كل لوحة رسمت كإهداءٍ ما أيضاً.

إلاّ أني لطالما شعرت بالقلق الملازم، لطالما جلستُ طويلاً أمام اللون الأبيض استعداداً للحظة الانطلاق للابتداع، ألا إنّ الجلوس مكبل اليدين أمام قيد القدرةِ لأمرٌ مؤلمٌ حقاً، لطالما نزفت الكآبة على مذبح المرسم مترصداً الإلهام، ولطالما أخفيته أيضاً!

رغم اطلاعي على ما خطه *مصطفى محمود* في كتابه *يوميات نص ليل* حيث قال: *الإنسان القلق ليس إنساناً مريضاً، وإنما المريض هو ذلك الإنسان الآخر الهادئ الكسول القنوع المستقر المسترخي.* إلاّ أني لا أزال أعاني القلق هذا كمرض، مرض مزمن من النوع المُنغّص المؤلم الفتاك.

براء: حتى وإن رفض فكرة نعته بالموهوب، أيوب لرسام موهوب حقاً، دائماً ما يرسم من زوايا مبتكرة، غريبة، غير مألوفة إطلاقاً، رسومه بسيطة ومعقدة في آن واحد، إنها تُعبّر عن النفس ومكنوناتها، تجعلك تستلهم من جمالية المشهد الأفراح والآلام الكامنة في النفوس والقلوب.

أذكر أنني قرأت في كتاب *كالنهر الذي يجري* مقولة راقتني كثيراً تشابه واقعه إذ تقول: *كثيرون ينتهي الأمر بهم بأن يختنقوا بمواهبهم*، وهذه كانت حال صديقنا أيوب، كان أيوب لا يزال مرتاباً وقتها، كان لا يزال يصارع فقير القرار، وحيداً مع الأحلام، ما بين سندان الرسم ومطرقة الإخراج. للمعلومة، إنّ حلم أيوب هو الإخراج السينمائي، حلمٌ يراوده منذ زمن لا بأس به، ذاك الحلم البعيد المنال عنه آنذاك.

أيوب: نعم إنّ حلمي أن أعمل في سلك الإخراج، أن أتلفظ بسرائري وخبايا فكري علناً أمام الملأ، فالإخراج أيضاً رسمٌ إلاّ أنه مجسدٌ على طول الزمن لا على مساحة مقطوعة من اللوحات أو الأوراق، وكما يُعد الرسم إدارة للخطوط وما بينها من الألوان، يعد الإخراج إدارةً للعمل وما فيه من الرؤى والتطلعات.

براء: الحلم هو ذاك الطُموح القابع على مدارج الواقع على أهبة الاستعداد للتحليق في فضاءات الكون. يحدث أن يُغرس الحلم في جدار قلب صاحبه ابتداءً، حيث تعمَد العقول المحيطة والظروف فوراً على إجهاضه شر إجهاض، فإما أن يسقط سقوط الحجر في البئر سقوطاً حراً يائساً، أو أن يستبسل في البقاء استبسال الشهيد قبيل استشهاده، لعمري قد وصل من صَمد حُلمه أمام هذا الإجهاض. اللهم سخّرنا أمناءَ على أحلامنا، ألا إنّ الحُلمَ رزقٌ يمنحه الله لمن يصطفيه من عباده.

وللأسف كلمة الحلم في جُلّ مجتمعاتنا العربية باتت حقاً للطفل فقط، ليقينهم بعجز جسده على تحقيقه، يكررون قولهم أمامه: "دعوا الطفل يحلم فالحلم الآن بالمجان"، يُنزلون له الحلم كنيزك على أرضية واقعه لقمةً سائغة، ليرى وهو الطفل الصغير من الأعلى الحلمَ الممهد له أسفل منه، سهلاً بسيطاً في متناول يده، دائماً ما يدّعون بساطة وصوله لحلمه داعمين له. لا يعلمون أنهم يدعمون عجزه، عجزه فقط! عن سوء نية غير مبرر أبداً.

ولاحقاً عندما يكتسب الجسد القدرةَ الكافية يدعمون فكرة قتل الحلم عنده، فالفكرة تنقلب الآن لئلا يحلم إنسان، فالحلم إن تحقق بات علواً وامتيازاً عن الغير، وإن فشل بات ذريعةً للانهزام المذلّ

أمامهم، يطمحون بانهزامه ويخشون امتيازه فيتكاتفون معاً إلاّ ما ندر لقتل الحلم ككلمة ومفهوم وفكر وأسلوب حياةٍ عنده.

أيوب: الحياة بلا حلم كالطعام بلا ملح تماماً، كحكاية بلا عقدة، كثيرون هم من يملكون حلماً يحيون من أجله، وأنا واحدٌ من هؤلاء وهذا من حقي، في البداية عَوّلت كثيراً على أقربائي وأصدقائي لمساندتي للوصول لتحقيقه، بصرف النظر عمّا يكون حلمي الذي أسعى له! ظننت أنّ حلمي سيكون قريباً لبعضهم ومصاحباً لبعضهم الآخر، ولكنني شعرت من البعض بالخذلان، ألا إنّ الخذلان صيغة من صيغ الخيانة، كالورم الحميد تماماً وجوده مقلقٌ مؤلم للنفس لكنه غير قاتل.

انسحاب البعض عن يميني وعن يساري كحالم، وبقاؤهم بالقرب مني كقريب أو كصديق منحهم لقب أعداء الأحلام، لكنهم لم يستحقوا لقبهم هذا بجدارة! نعم هناك من الأعداء من منحوا أنفسهم الألقاب بدون جدارة، ألا يعلمون أنهم أُوجدوا ليكونوا بالمقربة منا ليبثّوا من أرواح حيواتهم الروتينية المقيتة الدفع لنا للأمام والحلم فقط.

إنّ العدوّ الحق من يرفع من النفس للأعلى، يقدم الجميل فتطالب أنت نفسك بالأجمل، لا من يسحب منك القبيح ويصفه بالأقبح. كما إن أردت البقاء بحالة العداء الحق، عادِ بالفعل المضادّ لا باللسان، حتى اللسان يخجل من ارتداء قناعٍ من أقنعة العداء هذه.

كانت لوحاتي في البداية تستلطف الكثيرين ممن هم حولي، بدوا محبين لرسمي كما هم محبين لي، بدوا وكأنهم أساس جمهوري الصغير، شعرت بمحبتهم العظيمة وبحرصهم على متابعة ما لديّ من جديد.

إلاّ أن وصولي للمشاركات في معارض الأردن المحلية كان نقطة انعطاف لجُلّهم، فمشاركة لوحاتي للعامة كانت على حساب جُلّ الخاصة.

كم نُعتُّ بعدها بمقلّد المشاهير كليوناردو دافينشي ومايكل أنجلو ورافاييل وفرانشيسكو دي جويا، صدقاً لم أسمع عن رافاييل أو دي جويا هذا إلاّ منهم.

براء: انتقد البعض أيوب لانشغاله في رسمه بداعي إسرافه الوقت في الرسم! أليس اللاشيء إسرافاً أقذر؟ كما انتقد البعض الآخر قدرته على الرسم، حتى إنهم انتقدوا مجرد محاولته له! أليس انتقادهم لعدم المحاولة من طرفهم انتقاداً أحق وأوجب؟ إن النقد البائس الدائم هذا من الكثيرين يسوقنا لعالم من السخرية تجاههم!

إنّ عالم السخرية هذا عالم جميل، إذ عليك ألاّ تعتب على أحد وألاّ تغضب من أحد، لا تنتظر منهم ولا تتأمل نحوهم، في عالم السخرية تجد نفسك تعمل من أجل العمل ذاته إرضاءً لنفسك لا للآخر، أن تكون كما أردت ضارباً وجه المُعارض بعرض الحائط.

كم وسموا أيوب بناقل الرسوم وبسارق الأفكار أيضاً! ألا يعلمون أنهم يحيون ريشته بسلبيتهم المميتة لتشييد أجمل لوحاته؟ ألا إنّ أجمل ما في الحياة استنباط الأزهار من الأشواك المحيطة بها.

كذلك ألا يعدّ الانقلاب المباغت في الذوق للفرد وانسحاب الخاصة بلا مبرر نذيرين بالخطر، أليست قباحة جميل الأمسِ اليومَ نتاج غيرة القلب؟ ربما؟ بل قطعاً.. لا محالة!

أرى أن التباين يولّد أحياناً الغيرة، وتولّد الغيرة الحنق، ويولّد الحنق الحقد، ويبرر الحقد القطيعة، وأحياناً أرى التباين يولّد الغيرة،

وتولّد الغيرة الإرادة، وتولّد الإرادة العمل، ويبرر العمل الوصول للهدف. الغيرة نارٌ مشتعلة تشيح النظر عن ساكن العلياء، هي تنهد الأنفة وإذلال النفس، الغيرة فساد كافة المشاعر ونفاق مكشوف أمام كل الجموع، فيها مساندة الضاد القديم لمجابهة الوهج الجديد، الغيرة دعوة ذاتية للانسحاب بلا سبب فرغبة جامحة لإيجاد أتفه سبب من قبل صاحب أمرض ذات.

ورغم قساوة حال أيوب تلك وجدها دليلاً دامغاً على استقامة طريقه وأهميتها، فلولا وجود ما هو مختلف عنده لما آلت الحال لما آلت إليه حينها، قرأت في كتاب *فجّر طاقتك الكامنة* والذي أعُدّه أكثر الكتب التي حوّلت من مجرى حياتي وأضاف الكثير الكثير لشخصيتي (وربما لكونه أول ما كان قرأت) سبباً قد يفسر بعض الأحداث غير المتوقعة من أصدقائه، إذ وجدت فيه: *لا تنس أنك في النهاية إنسان، إنك تريد لأصدقائك النجاح، ولكنهم عندما ينجحون في حياتهم بينما لا تزال غير واثق من نجاحك، فإنك تخشى أن تظهر تخلّفك عنهم.*

عندما تكون نظرتك لذاتك نظرة متدنية، حينئذ يصبح تحمل السماع عن إخفاقات أصدقائك أسهل عليك من تحمل نجاحاتهم.

ولأنّ أصدقاءك هم أقرب الناس شبهاً لك، فإن نجاحهم يجعلك تتساءل: "ولماذا لا أنجح أنا؟" إننا جميعاً ينتابنا ذلك الإحساس، لا شيء يجعل الناس يتنافرون مثل النجاح. عندما ينجح الناس، فإنهم يكتشفون حقيقة مؤلمة وغير متوقعة وهي: شعور الإنسان بالعزلة عندما يعتلي القمة.

أيوب: إلا أنه لديّ من الأقارب والأصدقاء الحق ما يكفيني، فعصام وبراء كمثال لا للحصر لا يزالان إلى جانبي وبهما اكتفي،

وكما قيل إنّ "الصديق وطن"، أقول: حقاً وطـــن، عصـــام وبـــراء كالوطن تماماً، فالصديق الحق مـــن كـــان ليـــدعمك في فكرتـــك ويصادقك على خطتك ويعيش معك في قصتك ويسري بها وإيـــاك بين الجموع.

هو من يدسّ ماله في جيبك خفيةً عند حاجتك، ويستلّ دمعتك من وجهك علانية، الصديق وتد عميق في أرض النجاح وحبال إنقاذٍ من آبار القلق، الصديق من يبذل من كينونته ليسدّ ما في كينونـــات أصدقائه من الفراغ، إنه مرآة الحقيقة لا مرآة الجمال.

إنه من كان بالخلف إن تعثرت وسقطت ومـــن في الأمـــام إن أسرعت واندفعت، الصديق من كان معك ليطوّقك ويحميك ومن ثم يرفعك ويتباهى بك، من فرط تطويقه هذا قد قيل: "الصديق وطن".

براء: إنّي موقنٌ بأن الصديق ليس بتلك الروح المجّانيـــة الـــتي تسقط إسقاطاً على الإنسان هبةً من الخالق فحسب، بل هي نتـــاج سعيٍ وبحثٍ ومن ثم بذلٍ وجهد ومعهما دوماً التوفيق من الـــرحمن. صدقاً النية أصل الصداقة وروحها، وعلينا بـــذل الكـــثير للوصـــول للأصدقاء الحقّ.

كما إنّ علينا أن نعي أنّ على الصداقة الحفاظ على الاستمرارية في طقوس الشدة أيضاً لا في طقوس اللين فقط، فهي الدرع والتـــرس في الدفاع عنا عمّا سنواجه، والسكين والرمح في الهجوم لـــدينا لمـــا سنجابه.

الصديق من يسند قوسك ويصوّب سهمك ومن يصطاد وإياك، إنه من تعدّ له الطعام وتجلب له الشراب وتقتسم معه ما اصـــطدت وروحكما الاثنتان في تراضٍ، تراضٍ تام، إنه ما تحتاج إليه أنت، إنك

من تكون إن هو أراد. الصداقة حياةٌ مناخها دوماً الزراعة لا مجـــرد مواسم للحصاد.

أيوب: ولا زمان ولا مكان بقادرٍ علـــى إطاحـــة الصـــداقة، فالصداقة في البعد نيرانٌ للشوق تندلع وفي القـــرب أحـــداثٌ جمّـــة تنبعث، هي في الماضي الحميمُ من الذكريات وفي المستقبل العظيمُ من الأحداث.

كما أنّ الصداقة ليست بحالٍ ثابتة فأشرعة مراكبها عرضة لريح الطبائع البشرية والتي تهبّ حيناً بالحب وحيناً آخر بالغيرة أو الشفقة. وما كبح الغيرة بأسهل من إخفاء الشفقة، إلاّ أنّ رياح الغيرة والشفقة هاتين لا تتعديان فكرة كونهما نزوات عابرة في أجواء الصداقة.

براء: لذا كم بذلت في تحذيره بحقيقة أنه لن يشـــاهد جـــدران غرف (البعض المقرب) ممن أهداهم من لوحاته الأولى مزدانةً بها، إلاّ أنني وعدته أيضاً بأنهم لن يصمدوا طويلاً ولسوف يتفاخرون بها يوماً ما أشدّ التفاخر، يوم يصل هو حين تحقيقه لمراده.

كثيراً ما كان يتساءل أيوب؛ لم كان عليه أن يهديهم من لوحاتـــه الخاصة؟ خصوصاً وهم من لن يهتدوا لإبرازها أمام الملأ ولا حتى أمـــام أنفسهم؟ إلاّ أني كنت أجيبه بأنها للإمعان في إيلامهم، إيـــلام الـــنفس المنجرة بلا أحلام، فلعل اللوحات المعزولة تلك تُـــبرز عنـــدهم أجمـــل الأحلام يوماً ما، فوقوف المرء فارغ الفيه أمام الحلم يولّد الحنق.

أيوب: رحل الكثيرون عني. وإنّ أقـــبح أنـــواع الرحيـــل ذاك الرحيل غير المنوط بسبب، من فرط قبحه يشيح بنظرنا عـــن مـــرآة الحقيقة، الرحيل هذا قارس كالبرد، غير ملموس ولكنـــه محســـوس، حارق كالجمر، كالنار الهامدة، إنه أشدّ غلظة من غلظة الموت!

إلاّ أنه الرحيل الأعظم منفعة، ففي الرحيل هذا توثيق لارتقائنا ارتقاءة وإن صغرت، فالراحلون هؤلاء لم يخلقوا ليكونوا رجالات هذه المرحلة من حياتنا، ولن يصلحوا لهذه المرحلة قط! إنهم فشلوا بالبقاء بالقرب، جبنوا أمام الإحاطة بتحولات شخوصنا، أخفقوا باستيعاب تحويل مجرى أفكارنا، ملّوا مجاراة التجدد في عروق أيامنا.

براء: أقول لك يا صديقي، عندما يرحل أحدهم رحيلاً كهذا الرحيل، بل حتى عندما يهمّ أحدهم به، استبقه الباب فاتحاً إياه له، ادعه ليسرع أكثر، لا ضير في ذلك، وإياك أن تغلق الباب خلفه وانتظر، هناك من سيأتيك من الرجالات الجدد.

ابتسم قبل مجيء الجديد القادم فإنه قادم لا محالة، إنها مسألة وقت لا أكثر، اشكر الله بعد توديعك لذاك الراحل، واشكره قبيل لقاءك بذاك القادم.

ارحلوا، فسكة حلم الحالم لا تزال طويلة، وتطول باطراد كما يتسع الكون، وهمته عالية علوّ الشمس عن الأرض، عجّلوا الرحيل! اتركوه وشأنه.

يا صديقي كن مغروراً كما قالت *مستغانمي* في كتابها: *أنا مغرور لكي لا أكون محقوراً، فنحن لا نملك الخيار يا صاحبي. إننا ننتمي إلى أمة لا تحترم مبدعيها وإذا فقدنا غرورنا وكبرياءنا، فستدوسنا أقدام الأميين والجهلة*، فانطلق يا صديقي ولا تلتفت للخلف فالالتفاتة للخلف في مجتمعاتنا بمعنى الاتجاه للأسفل والتقهقر عن الهدف.

أيوب: براء قريب صديق، وعصام صديق قريب، حتى الوقت كعملة ينهار بتداوله في حضرتهما، إذ يفقد قيمته بانكساره

انكسارات مفجعة، لا الدقيقة ولا الساعة ولا حتى اليوم بقيمته السابقة في سوق تبادل النظرات وإياهما، إذ ترتفع أسهم الكلمات وتنخفض حدّة الأصوات وتتعالى النداءات بإقفال الجلسات على كمّ أكبر من الوقت وأكبر.

فُرض براء عليّ كقريب لدواعٍ دموية، وفرض نفسه عليّ كصديق لدواعٍ نفسية نفيسة، استقبلته كقريب ورحّبت به أشد ترحيب كصديق، صدقاً إنّ براء نعم القريب والصديق، براء الذي أفضّل مناداته بقريبي رجل حاذق، رجل عملي بحت كان حلمه التفوق بتخصصه، حلمه باختصار هو التمكّن في هندسته (الاتصالات)، وبه كان وصوله لتخصصه في الجامعة الخطوة الأولى في مسيرته نحو حلمه، لطالما تحقق براء من إمكانياته وسعى ضمن حدودها (وحدودها جدّ مرتفعة)، كان يفكر بالاقتناص وأساليبه قبيل تفكيره بمبتغاه وآثاره، إنه كيّس لبيب فطن، أجمل ما فيه قدرته على إحرازه لهدفه من أول فرصة سانحة (وإن كانت ضيقة)، كان يتفكر ويتعقّل كثيراً قبيل الانطلاق، كان يحسب الخطوات ويعدّها، يقيس المسافات وينتبه لعدّاد الزمن، لذا كان كالرّحال من نجاح لنجاح آخر.

رفض براء كلّ المساومات والإغراءات من التخصصات الأخرى لضمّه بداعي استغلالهم لتفوقه، ولاحقاً رفض كل فرص العمل التي لم تتطابق تطابقاً تاماً مع ما أراد، كان يؤمن بأنّ على المتسابق إكمال مضماره حتى نهايته وإن خسر! فالفوز نسبي بين البشر، ومسألة المتابعة وفكرة الوصول ليستا بالأمرين الهيّنين إطلاقاً!

أما عصام (من عائلة الجار الشامي كما يطلق سكان حيّنا على أهله، والذي يسكن في المنزل المجاور لمنزل والديّ تماماً)، الذي كان

للأيادي الدكتاتورية المستبدة في بلاده الدور الأبرز لتقاطع مساري مع مساره في أحد أحياء عمّان أجمل تقاطع، فكان يحلم في احتراف السباحة، كان ينفق من وقته بسخاء على رياضته النافعة هذه، رياضته التي تربّى عليها في الساحل الغربي من بلاد الشام (ساحل البحر الأبيض المتوسط سواء أكان ساحل اللاذقية أو ساحل بانياس).

إلاّ أنه ضحّى بحلمه ليلتحق بطموحه الأكاديمي الأجدى "دراسة الطب"، وبالرغم من صعوبة مناله هذا أهدر من الزمن ما كان كافياً ليستثمر في الوصول لدراسته. وقد كافأه الله على ما أراد بعد سنتين من المحاولة ودخل تخصّصه، عصام نموذج مثالي للإصرار على الهدف، ولاحقاً أظهر إمكانياته الهائلة في تخصصه فبرّر لنفسه وللجميع سبب إضاعته لسنتيه، إذ إنه أبهر وأبدع وتفوّق.

أما أنا فقبيل دخولي للجامعة، وقبيل فرصة اتخاذي قرار اختيار المسار الجامعي الذي أرغب أو الذي يناسبني أو الذي يفضله ويرغب به الناس، انتابتني حالة من التردد (وهي تجربتي الأولى مع التردد)، إذ كنت دائماً ما أتساءل: "أين يكمن المسار الأفضل لي"؟ ألا إنّ التردد آفة تشبه إلى حدّ كبير التأتأة، إلاّ أنّ التأتأة تتمخض عن الكلمة المقصودة في نهاية المطاف ولا أهمية تذكر للزمن عندها، على عكس التردد الذي حتى إن ولّد القرار (سواء أكان صائباً أم لا) فسيلده حتماً في الزمن الخاطئ.

فلم أكن هنا و لم أكن هناك، لا بالرسم ولا بالإخراج، كنت في المنتصف من كل شيء تماماً، عجزت عن الوصول لحلمي مباشرةً وفشلت بالمقاومة للحصول عليه، فبينا كان قريبي يبذل في حلمه وبينما كان صديقي في طريقه لطموحه، كنت أنا في مكان ما، أبعد

ما يكون عن حلمي وأبعد ما يكون عن هوايتي، كنت في الجامعة في كلّية الهندسة، في المكان الصحيح ظاهرياً بالنسبة للمجتمع والخاطئ كلياً بالنسبة لي، كنت طوال الوقت أتألّم جراء إهداري لأحلامي.

براء: والله إنه ليخيّل إليّ أنّ أيوب وطموحاته كما حادي الإبل وإبله، تراه يسوسهم تارة أمامه وخلفه تارة، يتجاذبون حيناً ويتباعدون حيناً. يقول *باولو كويلو: هناك دائماً مسافة بين النية والفعل.* وكانت مسافة أيوب كبيرة للغاية (آنذاك)، ورغم كونه الأكثر طموحاً بيننا كان الأكثر خمولاً أيضاً، لم يكن يدرك وقتها أنّ الطموح المفرط كالخمول تماماً، دعوة للبقاء في القعر، إلاّ أنّ في المفرط ألم اشتمام رائحة منصات التتويج.

كان أيوب أول من تخرج من ثلاثتنا في الجامعة، وبالتالي كان أول من تلقى صدمتها. وما أشبه التخرج في الجامعة أو في أيّ معهد أكاديمي أو تأهيلي لسوق العمل بخروج سمكة صغيرة وحيدة من رافد نهر ضئيل لمحيط هائل الأبعاد.

في هذا المحيط صورة أوضح لمفهوم القَدَر وبه تستشعر أكثر بمفهوم تيسيرك من قبل الرحمن، وهذا ما يدعى في مجتمعاتنا بالنصيب، فلعلّك تندمج مع سربٍ قديم في المحيط هذا، أو تنادي بقيام سرب جديد، أو أنّ تتناقل بنفسك ما بين الأسراب، أو لعلك تقف على الحياد بانتظار الحظ أو بانتظار الممات!

أيوب: كان انتقالي لمرحلة ما بعد الجامعة بالنسبة لي كالسقوط من أعلى برج كنت أصعده على مدار سنوات وسنوات، وبتخرجي هذا كنت على موعد مع تجربتي الأخيرة مع التردد.

كان ترددي باختيار المكان المناسب للعمل حماقة، إذ إنّ أماكن العمل الشاغرة في البلاد جدّ ضئيلة وجلها بحاجة لتوصيات من قبل أصحاب نفوذ ما، أو بالأحرى لا مكان شاغر لمن لا يملك طرفاً ما لشخص مهمّ ما في مجال ما.

رفضت أول فرصة عمل سنحت لي، إذ كانت فرصة جدّ فقيرة، فقيرة الخبرة والمادّة والعلم والوسط الاجتماعي المحيط، فقيرة لكل شيء يمكن لطالب الخبرة التضحية بها ولو لمجرد فترةٍ قصيرة، و لم ولن أندم على رفضها أبداً، وأدعو الجميع أن يحذوا حذوي.

جلست في منزلي بعدها أعُدّ الأشهر، أتحسر على حال الشباب العربي (فكلهم على نفس الحال تقريباً) وأتحسّر على آبائهم الذين ينتظرون لحظات تخرج أبنائهم بتلهف مشروعٍ وآمال كبيرة وامتنانٍ عظيمٍ لله.

ثم كان وابتسمت لي الحياة ابتسامة كبرى والتحقت بشركة هندسية من الشركات الرائدة في الأردن عن طريق سلسلة مصادفات عجيبة لا داعي الآن لذكرها، إلاّ أنّ الأمر لم يدم طويلاً فبعد مرور سنتين، سنتين فقط! وجدتها فترةً كافيةً لأقول من بعدها لا، أريد أن أدرس الإخراج!

براء: قرّر أيوب دراسة الإخراج، واختار الشام محطةً ليدرسه فيها، فهي من الأفضل محلياً في هذا المجال، والأقرب جغرافياً إلى وطنه، فكان السفر للشام هو الدواء الأنجع لحالته، فقطع على نفسه العهد بالانتساب لجامعة دمشق، وكان قراره هذا قراراً لا رجعة فيه أبداً، إذ إن جميع المحاولات لصدّه مدّته بالإرادة الأصلب ليستمر في أمره، بل ليعجل فيه أيضاً.

أيوب: أذكر أنّ أبـــي سألني عندما أعلمته بقراري: "أتستهين بالسفر؟ ما أدراك أنت ما السفر؟ حذاري يا بني ما السفرُ إلاّ مرافقة الجسد للوقت صوب مكان جديد، وترك الروح مع ما معهـــا مـــن ذكرياتها في المكان القديم، ما السفر إلاّ انفجار ألمٍ مدوٍّ من أرضٍ قد فرغت، لعودة من سبق أن ملأها فترةً من الزمن انقضت، فينجم عنه تأليب مشاعر القلوب المسافرة كالإدام في القدور". إلاّ أنّ والـــديّ رضخا لأمري بعد فترة من الزمن. وأذكر أنه قال لي يـــوم ســـفري أيضاً: "يا بنيّ، لكل طريق في الحياة صعوباته وعقباته الخاصة، لعمري لم تخلق العقبات عبثاً! قطعاً أوجدها الله لإيجاد مفهوم القرار فالمقاومة فالنجاح في النفوس، فالنفوس إن نجحت صارت مُشـــعةً بالإنجـــاز ومنيرةً لروحه في منطقة الجوار.

أسألك يا بنيّ النجاح، إذ تطفح وجـــوه النـــاجحين بالرضـــا، فالنجاح نشوةٌ في القلب وازدهارٌ في الطموح، النجاح طاقةٌ للجسد وسيفٌ قاطعٌ في وجه الوقت المهدور.

في النجاح مداواةٌ لنفوسٍ منكسرة ودعمٌ لأخرى قلقـــة، فيـــه تدعيم لنفوسٍ منتصبة على منصّات الانطلاق وفيه تحفيـــزٌ لنفـــوسٍ ناجحة نحو المزيد من الانتصارات، فيه بثٌ لروح المجد وإثبات علـــى قدرات الإنسان، كم هو جميل أن يتجاوز المرء توقعاته، وكـــم هـــو جميل أن يندهش بالإمكانات الخارقة لجسده الخارق".

براء: آمن أيوب بأنّ من النجاح ما يقاس نسبة للنفس وأنّ منه ما يتناسب ومراد الناس، فما كان تحدياً للنفس يقبع في أقاصي جبال النجاح، وما كان مع مراد الناس يكون بمعيار، ولا جرم أنّ الجميـــع بقادرٍ على تجاوزه من معيار.

وآمن أيضاً بأنّ من النجاح ما يُصنع ليتم عرضه أمام أهل الأرض، ومنه ما ينجز ليتم عرضه أمام أهل السماء، أجمل أقواله عن النجاح كانت: "اركض برجلك للنجاح أمام أهل السماء لا أمام أهل الأرض، فما أشقى من قصد أهل الأرضِ فقد فقد عرضه (نجاحه) قيمته أمام أهل السماء".

أيوب: وإني أؤمن أيضاً بأنّ التوقف على منصة نجاح ما هو إلا نوعٌ من أنواع الفشل، فإن تَوَقَفَ قطار النجاح في محطةٍ ما بات عرضةً للصدأ ضمن ظروف الزمن، فقطار النجاح خلق ليسري من عقبة لعقبة عابراً الجسور فوق محكّات العوائق، قاطعاً كل إشارات المحن.

كما أن النجاح ليس بفقاعةٍ تبرز نتيجة اضطرابات الأحداث ضمن روتين الحياةِ كما يحدث للغاز في الماء كضربٍ من ضروب الحظ! بل هو جبل بركان المجد الشامخ نتيجة ثوران حمم القدرات على سطوح الطموحات، ولولا الله لما نجح أحد ولا فاز أحد ولا تقدم أحد ولا سبق أحد ولا أفلح أحد، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

براء: قرأت في رواية *مم و زين*، تلك الرواية الكردية التي ترجمها *محمد سعيد البوطي* قولاً جميلاً في الصداقة إذ قال: *الصديق؟ ألا ما أثمن الصديق الذي يتسع قلبه المحروم للابتهاج بسعادتك، ويقيم وراء صدره المكلوم عرساً يوم فرحك. هذا الصديق الذي منحتك الدنيا مثله فافده بسائر مظاهرها ومن فيها، فإنما هو سراجٌ من أجلك في الظلماء وهو أملٌ لقلبك عند اليأس.* وهذا أيوب سراجٌ من أجلنا وأملٌ لقلوبنا.

كان يوم الأربعاء من كل أسبوع منذ بداية طفولتنا حكراً على ثلاثتنا، أنا وأيوب وعصام، أما الآن فالمعادلة اختلفت تماماً، ففي طيات غياب أيوب عني قسوة فظيعة، حسرة على الماضي المنصرم، وأخرى على المستقبل القادم من دونه، ووالله كأن الله انتزع مني روحي برحيله، باتت أيامي شحيحة معه، تُبقي على ظمئي حتى حين لقائي به، باتت الكآبة محور شخصيتي الجديدة، والتي تتبلور على انتظار إجازاته لأتمكن من رؤيته، لا أزال أعشق إطلالاته، ومصادفات لقائي به في الشارع، لن أنسى سعادتي حينما يتفقدني بهدية ما، أو زيارة ما أو اتصال ما، أو حتى بنظرة ما.

بحث صديقنا عصام في ذاكرته الشامية و لم يجد أفضل من صديقه موسى لمهمة احتواء أيوب في غربته الدمشقية، موسى صديقه والذي تشارك معه لاحقاً بالنسب، كان وقتها طالباً جامعياً في كلية الطب في جامعة دمشق، منذ البداية كان عصام جازماً بأنّ موسى سيقوم بواجب أيوب على أكمل وجهٍ ممكنٍ ولو على حساب واجباته.

كان موسى في العاصمة التركية إسطنبول (وإسطنبول المدينة الأحب إلى قلبه، والتي كان يحلم بالمعيشة فيها منذ صغره) يوم سفر أيوب للشام، واستمرت رحلته حتى بعد وصول أيوب بعدة أيام، وبعد عودته وبعد أن قام بإنهاء بعض ترتيباته لما بعد سفره التقى بأيوب.

اتخذ أيوب من غرفة صغيرة سكناً مؤقتاً في حيّ المالكي الذي يسكنه موسى في الفترة التي سبقت عودة غائبنا لأرض وطنه، كانت فكرة اختيار السكن هذا تعود إلى عصام، فما هي إلاّ مجرد أيام حتى يعود موسى من رحلته.

إنه لمن العَجب أن يكون أيوب هو أول من التقى من بينهما بالآخر، إذ إنه لحِظ وجوده في مسجد الحيّ دون أن يعلم بأنه موسى المنشود، سيخبركم يوماً ما عما جرى بذهنه حينها، ومن بعد واقعة الملاحظة القدرية هذه بيومين التقيا للمرة الأولى.

أيوب: طبيعة هذا الشاب (موسى) طبيعة سامية، ما بين الملائكية والبشرية تقبع طبيعته هناك! وصدقاً إنه يميل للملائكيّة أكثر، كان لقائي به هبة إلهيّة عظيمة لا تقدّر بثمن، كان لقاءً مع كل ما افتقدته نفسي سابقاً، وجدت فيه ما أطمح أن أكون وأكثر، احتوى بلا قصد على أجوبةٍ عن معظم تساؤلاتي الأزلية، عثرت فيه منبهراً على إحقاقات لمفاهيم متنوعة درجت على استصعابها أشد استصعاب.

كانت نفسي تلتمس السعادة فور رؤيته ويبيت عقلي متشوقاً لأتتبع أثره إثر مغادرته، يحيّيني دوماً بابتسامته البيضاء الجميلة مع إمالة بسيطة من رأسه، وكم كنت أتوق أن أكون كاتباً لأكتب عنها، يصافحني بمودّة بالغة ويربّت على كتفي من بعد كل سلام، أعدكم بأني سأخبركم عنه لاحقاً فوالله لا يتسع كلامي بحقه حتى في كتاب.

إلاّ أنّ ارتباطي الزوجي، ومن بعده انتقالي للأردن كانا من أعتى أسباب وصولي للمحطة الأخيرة برحلة مشاركتي السكن معه.

بالتأكيد داومت على التواصل معه عن بعد (وأحياناً أقلّ عن قرب)، رغم كونه يكره التواصل عن بعد ويعتبره تواصلاً ميتاً، لدرجة أنه كان يفضّل التخاطر الذهني على التواصل الميت هذا. على فكرة قد تكون هذه الفكرة بالنسبة لي الأقل إيجابية ما بين أفكاره.

"وانتهت رحلتنا (أنا وموسى)، ولا أدري أأحزن على ما مات من الوقت معه؟ أم أسأل الله المزيد منه بعد قليلٍ من الزمن؟ أأسعد بما أنجزت

جانبه بقلبـــي؟ أم فرح بما قدمت معه بروحي راغباً بجوار ربـــي؟

كانت رحلتي وإياه ضرباً من سحر أجواء الجنان، أسقاني بـــلا قصدٍ سعادة بلا قَدْر، إنه ملهم السعادة ومُلقم الرضا.

والله لقد تبعثرت أيام رحلتنا كأوراقٍ لأزهارٍ يانعة، ازدانـــت حياتي باصطفافها ككلمات على سجلاّت قدري الأبدية، ســـقطت مدويةً في قلبـــي كأحداث، وفي عقلي كأفكار، وفي دمائي كتاريخ، وفي روحي كمستقبلٍ جميل، لا أدري كيف للزمن المنغمس بحضوره قدرةٌ على الحصر! ألا إني قد عببت منه ملء يدي سنداً وملء روحي مساندة وملء قلبـــي سروراً وملء حياتي فخراً.

كان نزيف عمر رحلتي معه لحن قيثارة جميلاً، ووالله إنها لبصمة على خريطة أحداث العمر، ألا إني بدقائقها بُعِثتُ لأجدَ الســـعادة، وبساعاتها وجِدت لأحظى بالمباركة، وبأيامها عشت مـــن العمـــر الأعمار، وبشهورها العديد من الأحلام.

لا تزال تعلق بذاكرتي بدايتها، إذ سألته عن الفجر، فدائماً مـــا كان التزامه بالفجر مصدراً للحيرة لدي! ما باله؟ إنه لا يواظب عليها فقط! بل ويعجز عن إهدارها! ولو لمرة واحدة! سألته مستلهماً بمـــا سيبوح به من الإجابة: "ما هو سحر الفجر الذي عُقد قلبك عليـــه؟ وهُندس جسدك إليه؟".

وكان جوابه: "كان مني ذات فجرٍ أن زُرت بيتاً من بيوت الله، آخَرَ غير ما اعتدت زيارته من بيت، وعند بابه أصابتني الريبة بســـهم نافذ "ما باله بأبواب مؤصدة"؟ وإذا بمؤذنه يمر بجانبـــــي ويقـــول: "وكأنك فقدت الفجر منذ أمد. الباب الآن من الجهـــة الأخـــرى، الباب هذا مغلقٌ منذ زمن!".

وقع قلبـــي على الأرض كوعاء زجاجيّ تكسرت منه بلوراتـــه بتبعثر، كيف للعتاب من البشر أن يكون بهذه القسوة! كيـــف وإن كان العتاب من ملائكة الرحمة؟ كيف وإن كان العتـــاب مـــن رب العباد؟".

وكأنه بجوابه طرق على رأسي بمطرقة فكرية أطرقـــت إليهـــا بمقتطفة كانت بالنسبة لي مقتطفة سحرية بميتها **سحر الفجر**"(*).

(*) يقال إن الصفحة هذه هي الصفحة ذاتها المفقودة من كتاب مقتطفـــات من الورد 108.

أول أيام الصيف

أيوب: لم يكن حُسنها (وإن كان حسنها بالنسبة لي جدّ عظيم) بل حضورها هو أول ما أمال قلبي صوبها لأعيرها انتباهي، نظرت ناحيتها وكانت نظرتي تلك نظرة قدرية! فاجعة النظرات! كانت ترتاد الجامعة نفسها التي كنت أرتادها، واكتشفت لاحقاً أنها كانت تسكن الحيّ نفسه الذي كنت أسكنه، يا لها من مصادفة!

صدقاً إنها المرة الأولى التي أتدبر فيها وبسببها تلك المعادلة الاجتماعية الأزلية (معادلة الرجل والمرأة) وأمنحها هذا الاهتمام كله، فرغم أنّ المقادير المطروحة لعملية الإضافة معلومة للجميع ومحدودة فإنّ نتائجها غير معلومة ولا محدودة البتة.

فكيف تكون محدودة وهي تعبّر لنا عن فكرة اللانهاية؟ فنتاج المعادلة هذه لن ينتهي أبداً. إنه كائنٌ في الآخرة كما شيء له أن يكون في هذه الدنيا.

في إضافة المرأة للرجل مسحة من الكمال القلبي، فهي وحدها من تكون الأم تارة والابنة تارة أخرى، تتقلب من دور الزوجة للأخت الكبرى ومن الأخت الصغرى للحُلم الأكبر، وتتقن لعب دور الصديقة أيضاً!

كيف لا أميل وقلبي صوبها (صوب فداء)؟ المعاكسة لواقع قسم كبير من الإناث، القيادية، الحيية، الذكية، الجميلة، الجريئة في الحق والتي أحسبها متدينة عن قناعة، من تمشي باتزان مقصود وينضبط مستوى صوتها بنغمٍ محتشم، أحسبها من تقدر على الحياة وحدها إن فاجأها القدر يوماً ما وانتزع منها نصفها المحظوظ! وإن ترك لها المحظوظ هذا من صلبه ما قد يترك! إنها من اكتشفت عنها لاحقاً أنها غنيةٌ أيضاً بنت نسب رفيع وذات حسب متجذر القدم.

أكثر ما أبغض في بعض الإناث انقيادهنّ نحو العبودية تحت سلطة الرجل، فترى بعضهنّ من يقتلن أحلامهنّ ومواهبهنّ وطموحاتهنّ في انتظاره، ولا يكتفين بذلك بل ويبنين على قدومه صوامع عشقية ليمارسن فيها الحياة النموذجية المثلى حصراً وإياه، مكتفين برجل عن كلّ ما سواه في هذا الكون الفسيح، أتساءل: كيف إن فشلن بإقامة خيالهنّ هذا واقعاً؟ وسيفشلن! وكيف وإن لم يكن هناك من رجلٍ لهنّ أصلاً؟".

أيتها المرأة! لن تجدي من يعيدك لعصرك الذهبي كما في ظل الإسلام إلا نفسك، فأنت لست مجرد وعاءٍ حاملٍ للبذور الذكرية، ولا حاضنة للأجنّة البشرية، ولا خادمة في ظل العبودية، بل أنت النصف الموجد والنصف المربي، أنت من تخلق فيها الحياة ومن تهب الحياة للآخر، تهبينها للطفل أولاً ومن ثم للزوج فرحاً ببنيه ومن ثم لأهله طرباً بمن جاءهم من الولدان الجدد!

أيتها المرأة أنت طموح الرجل في الفطرة، إلاّ أنّ الرجل وللأسف بات طموحك بسبب التغيير الحاصل في بيئتك، تملكين

صورة من صور الخلق وصورة من صور الرزق وصورة من صور التدبير للحياة، انهضي ففيك أنتِ صورة من صور صناعة القدر!

نعم خلق الله التفاوت بيننا (بين الرجل والمرأة) إلاّ أن التفاوت هذا في طبيعة الشخصية لا في كفاءة القدرات، فقد أنزل الله الكتاب للزوجين الذكر والأنثى، وأوجد لهما الجنة والنار على حدٍ سواء، *إنما النساء شقائق الرجال ما أكرمهنّ إلاّ كريم وما أهانهنّ إلاّ لئيم*، من حقك الحياة حتى الممات، لا الممات من أجل الحياة، انفضي عنك خرافات الشرق واطردي عنك رذائل الغرب.

في كتاب *الأحلام* للدكتور *مصطفى محمود*، وجدت ما لفت تفكيري إذ قرأت فيه: *والرجل منذ الأزل يحسد المرأة حسداً أكّالاً لأنها قادرة على الخلق ولأنها تستطيع أن تحمل وتلد وتجدد نفسها بنفسها، وهو بجانبها ضئيل، دوره ثانوي، مجرد متفرج، والمرأة هي الأم لكل الذكور والإناث، والرجل دوره تافه.*

ماذا يفعل الرجل ليثبت أنه خالق مثل المرأة ومبدع مثلها؟ ليس أمام الرجل إلاّ أن يبدع الكلمة ويخلق الفن والفلسفة والفكر والقانون والدين، وهذا هو ما حدث بالفعل! أنت عظيمة أيتها المرأة، أفيقي!

أذكر أنّ موسى أخرج لي من أوراق أحد أصدقائه المفضّلين لديه الذي طالما تغنى به أمامي عندما سألته ذات مرة عن الزوجة الحق؟ قائلاً: "هي الحاضنة لحلمه ومُحدثة الأمل فيه، هي المختلفة لأجلها فلأجله، المبتسمة إذ عبس والضحوكة إن ابتسم، هي المقدرة للنعمة والمدبرة حين حلول النقمة، إنها للزوج كالسدّ المنيع عن ظروف الكون، هي ملاكه البشري والمخلوق الأقوى على وجه هذه الأرض".

فداء: سألت جدتي ذات يوم: "من هو الزوج الحق؟" فنقلت لي مما كتب جدي قائلةً: "هو من يسمعها بقلبه ويتكلم معها من عقله، هو من ينظر لقلبها لجماله، ومن يستمع لوجهها لإرهاقه، هو العطوف كما يعطف الأب، والمحب كما تحب الأم، هو الممازح كما يمازح الجد، والمتباهي بها كما يتباهى بها الابن، هو من يعشق روحها قبل جسدها، هو من يدفعه قلبه كل يوم ليقول لها: أنتِ اليوم أجمل يا أنا".

إنني أرى من المرأة للرجل عطف الأم، ومنه لها العطف البشري الأجلّ، أرى الرجل يستجدي الحنان منها كأنها الابنة الصغرى وهو لها في الواقع الحنان الأكبر، هو للمرأة الحماية والحماية عندها أمرٌ جلل، الرجل للمرأة إغداق عاطفيّ فهو لها الأب والابن والأخ والصديق والمستقر.

وأستميحكم عذراً أيها الرجال! خُلق التفاوت بيننا (بين الرجل والمرأة) لإتمام حياتنا معاً، لا للاستعلائكم علينا ولا لتمتّعكم بقلوبنا ولا لتختلقوا الذرائع للتجريح بأهالينا. وعليكم أن تعوا أنّ التفاوت الموجود هذا في العقلية لا في كمّ العقل، في شكل الجسد لا في طاقته وقدرته على العطاء.

واعلموا أنّ قلب المرأة عظيم، ولاستشعار العظمة في قلب المرأة مفتاح ومفتاح العظمة هو الحب! فلن يشعر الابن بأمه الأنثى ولن يأبه بأخته الأنثى ولن يفهم زوجته الأنثى ولن يحظى بمتعة أبوّة طفلته الأنثى إن لم يمارس فنون الحب.

الحب فكر وترقّي، وينبع أصل فكر الحب من مساواة الرجلِ الأنثى بنفسه في حقوق الحياة، في الرغبات والشهوات، في التطلعات والآمال، في كون نظرته لوجودهنّ كما نظرته للحصول عليهنّ!

وللحب صناعة كما لكل الموادّ الخام صناعة، ومصنعه القلب، ويروّج له في سوق نفيسة متخصصة جداً، هي سوق القلوب، فالحب لا يسكن في الغرف المغلقة ولا في الأوعية الدموية المعقدة، إنما يسكن في القلب ولن يصله من معبر سوى من معبر العقل! القلب البشري بلا حبّ كالأرض البور القابعة في الظلام، أرض خصبة بلا أي سواعد للبناء.

أيوب: تبدأ أعراض الحب حينما نحاول التكتم عن تعابير وجوهنا أمام أي أحد، عندما نفرض حصاراً إعلامياً عليه، عندما نتحرى أخباره بملامح غير المكترث، عندما نتجنب الحديث عنه أمام أحد إلاّ أمام أنفسنا، عندما نُغَيِّبه عن محيطنا المشترك مع العامة ونبرزه في أحلامنا الخاصة، حينها يبدأ الحب!

وإن حدث حقاً يتجرأ القلب فجأة للبوح عنه في العلن من بعد ما يتمادى في الاعتراف به في السر.

فداء: كتب جدي في الحب فقال: "أطوار الحب.. كما للقمرِ، للحب أطوارٌ أيضاً! يبدأ الحب بأول أطواره والمعروف بحب البدر (في كناية عن أحد أطوار القمر)، وفي مثل هذا الطور يقع الحب الأكثر ضحالة بين العشاق، إذ يكاد يكون سطحياً لو لم تمسسه فكرة الاستدامة، حيث يكمن الحب هذا بين عاشقين اثنين غرّين يريان في حبهما الحالي ذاك الحب الأسطوري المخلد في سجلاّت الأرض وأمام أهل السماء، يريان الحب كلمةً تطلق على كلّ ثنائي اجتمع على مسرح الحياة.

إذ ينحصر بين تلك الفتاة الجميلة الرشيقة ذات الوجه الحسن، بنت الحسب والنسب، ذات الصوت الدافئ الحنون، تلك الفتاة

السعيدة القنوعة المدللة، ذات الضحكة الرقيقة والدموع الصادقة العذبة (هذا إن تطابق الوصف ما بين عين العاشق وعين الحقيقة) والتي اكتفت بذاك الفتى العاشق الواقع في الهيام.

أما فتاها؛ ذاك الفتى الرشيق الوسيم الهادئ الرزين المحب المتحضر، المتفهم لرغبات المرأة ومتطلباتها، صاحب الابتسامة الدائمة والملامح العاشقة، صاحب اللسان المعسول والعضل المفتول، المتفرغ دائماً لأداء مشاهد الحب معها ليغذّي بها وإياها سينما العشاق، المغدق أمام مرأى عيون الحب بكرم، والمقطوع من كل شجرة لا تمتّ لها بجذور، (هذا إن تطابق الوصف ما بين عين العاشقة وعين الحقيقة، وكل هذا يتم بسبب العيون، لذا يقال عن حب البدر (حب العيون)".

أيوب: الحب معركةُ شطرنج كبرى أمام النفوس، لذا ترى الحب بحاجة للذكاء أيضاً، وعلى مبتغي النصر فيها التطويق عبر دهاليز المبادرة، والمباغتة بحنكة ضد وقائع القدر. ألا إنّ المنتصرين فيها قد دونوا في سجلاّت أساطير الحب والقتلى على أرضها قد سقطوا في العشق شهداء، الأسرى فيها مكبّلون بالأشواق والفارّون منها من هم بلا رغبة في معرفة أعظم اللذات في الحياة.

فداء: أكمل جدي قائلاً عبر كلماته: "ثم يأتي طور الحب المعروف بحب الهلال، (في كناية عن طور القمر الذي يلي طور البدر)، وفي مثل هذا الطور يبدأ الحب باستشعار حرارة المحيط والشعور بتغيراته طبقاً لتغيرات أحوال سكانه، إذ ترهق الفتاة يوماً ويُشغل عنها فتاها يوماً آخر، تزور أقرباءها ويتسامر هو مع أصدقائه، يلتقيان أحياناً بالقلوب وعقلاهما مع عقارب الساعة يترقبان

ويدوران، انشغلت هي! تأخر هو! انزعجت هي وأُرهق هو!

لكن الحب لا يزال موجوداً إلاّ أنّ إسقاطات الواقع بدأت تنضج وتظهر بوضوح أكثر وأكبر، إذ إنّ الزمن أهدأ حرارة الحب التي نجمت عن الخدر العقليّ المؤقت المعنون بكلمة الحب! أجمل ما في هذا الطور أننا باجتيازه نعي أنّه لا رجاء من محاولة العودة للماضي فقد غرس جنين الحب في رحم المشاعر والذي بات من الصعب إسقاطه، وكل هذا يتم بسبب القلوب، لذا يقال عن حب الهلال (حب القلوب)".

أيوب: الحب كذاك المرض الخبيث! إلاّ أنه لم يُخترع حتى اللحظة فحص ليكشف عنه في حالاته المبكرة كذاك المرض، يتسلّل رويداً رويداً في أنسجة القلب، بكل خباثة دون أدنى علم من العقل أو من صاحبه، عن سبق إصرار وترصد، يستتر بداخل حجراته حجرة حجرة ويتوارى في جنباته، وإذا ما افتضح أمره قلب قوالب التخفي مبرزاً نفسه للعلن فيتفشى بكل شراسة.

لا شفاء منه، لا شفاء من الحب! وإذا قصدت الخلاص منه يقيناً فلا سبيل لك سوى اجتثاثه! اجتثاث القلب، وقد يعود الخبيث هذا يوماً ماً رغم اجتثاث حاويه!

فداء: وتابع جدي بكلماته أيضاً قائلاً: "ثم يأتي طور الحب المعروف بحب المحاق، (في كناية عن الطور الأخير في دورة ظهور القمر)، وبه تنزل بالحب أعتى النوائب، من فقرٍ حيناً ومن أحداث موت حيناً آخر، اكتئاب ولادة عندها، ملل روتين الحياة عنده، تيأس هي، ويقنط هو، يزداد وزنها ويهرم هو، تتكاثر مسؤولياتهما باطّراد وتزول مسرّات حياتهما أحياناً والمبهجات.

إلاّ أنّ استمرار الحب فوق جثمان ملذات الحياة السابقة كفيل بمنح لقب العشاق للناجين من طور المحاق، وكل هذا يتم بسبب العقول، لذا يقال عن حب المحاق (حب العقول).

وإنّ في أطوار الحب لتداخل على عكس ما في أطوار القمر من تلاحق، وتتلاعب على تسلسل الزمن على عكس ما في أطوار القمر من ثبات، إذ إنّ طور المحاق قد يكون سويعة وطور البدر ساعات وساعات، قد يأتي الهلال الآن ومن بعده البدر، وقد يأتي البدر ومن بعده المحاق، قد تتداخل معاً، تعجن معاً فتخبز طبقاً للحب الكامل الذي اعتقد البشر بأنه فقط من أطباق أهل الجنان".

أيوب: قرأت في المكتبة الموجودة لدى جدة فداء للكاتبة *إميلي نوثومب* مما قرأت: *حينما يتحابّ شخصان فلا بد أن يختفي أحدهما لإعادة تشكيل الفرد الأحد*. إلاّ أنني أرى أنه من الأفضل التفشي لا الاكتفاء بالاختفاء، فالاختفاء هنا صيغة للتوحّد مع طريق الآخر بداعي التعلّق فقط، أما التفشّي فهو التوجيه من الداخل بكل حنكة بداعي الحب حفاظاً على النفسين معاً، التفشي أبلغ وإن لم يكن فلا بأس بالاختفاء، إنّ في التفشي هذا صناعة للسعادة وحياكة لمسبّباتها.

أجمل ما في فداء أنها وعت أننا نحن من نخلق السعادة بأيدينا، بلين النظرة وباستمرار البسمة، فها هي تعبّر دوماً عن السعادة بحلو الكلام المنثور، وبحسن الظن المنشود، إنّ السعادة كما أيقنتها فداء بأنها ثقة البشر بالخالق وقراءة رسائله على سكك الواقع، إنّ من أجمل ما فيها إيمانها بأنّ السعادة في نشر نزعة الخير وفي إفشاء كرم الجيب، وإيمانها بأنّ السعادة هي لهفة الإسعاد، وأنّ السعادة في المدخلات لا في النتائج، إرسال لا استقبال، إنها حقيقة لا مجرد ضرب من الخيال.

فداء كالكتاب، في فصولها جاذبية وفي أحداثها أفخاخ للفضول، تتبّعت صفحاتها بنهم عشقي فاستنفدت مني قوّتي من وجودي اللاحصري معها، إنها كتاب حب، إنها للحب كتاب، كيف لي أن أرى حياتي قبلها؟ يقيناً كانت بكمٍ هائل من الفراغ!

أتدرون؟ لا حدود قصوى للمشاعر! إنّ قياس المشاعر بحاجة لمقياس يحاكي مقياس رختر الذي تتذبذب شدة الزلازل ما بين درجاته، إذ تتذبذب إلى حدّ معين ثم من بعده يكون المقياس مفتوحاً إبّان ما هو نادر أو غير مألوف، نظراً لاحتمال قدوم زلزال لا مثيل له من قبل في تاريخ البشرية المسجّل كله. كذلك المشاعر فعلاقاتنا تتذبذب ما بين درجات محدودة إلى أن نصل إلى هناك. هناك في مكان ما بسبب علاقة ما، نجد شدّة مختلفة، إمكانية قصوى، أرضاً جديدة لم يحاول قلب بشرٍ المران عليها من قبل، قطعاً هناك الشعور كشعور الفاتح العظيم بالفتح الهائل الكبير.

فداء: كنت أشهد وجوده (وجود أيوب) في كل مكان أقصده في الجامعة، في البداية كنت أراها مصادفات تتكرر بغرابة مريبة ما ألبث قليلاً فأنساها، إلى أن بدأت أشاهده في الحي مرةً تلو المرة، بدأت تقاطعات مداراتنا تتكرر باطّراد وهنا أيقنت أنّ القدر يجمع بيني وبينه لسبب ما.

إنه مختلف، قيل لي في الجامعة من قبل بأنّ أيوب جاء من الأردن أيضاً، إنه جامعيّ مسبقاً، كان قد تخرّج من كلية الهندسة بدرجة جيد جداً، إلاّ أنه رفض واقعه من أجل حلمه في الإخراج، إنه جريء وشجاع وفكره مختلف، كانت قصته تتداول في الجامعة كما وكأنها كتاب من كتب مكتباتها، حقاً قد أحببت فيه اختلافه كثيراً، إنّ

وجود شخصية بهذه الجرأة تستحقّ أن يقال عنها بأنها أنموذج للشخصية النفيسة.

أيوب: منذ ذلك اليوم الذي أبدت فيه فداء نزاهتها، عندما أخبرت المحاضر في مادّة التربية الوطنية بأنه أخطأ بمنحها التقدير الكامل على حساب صديقتها المجتهدة التي كان قد شبهها بها خطأً. منذ ذلك اليوم وأنا أحبّ مشاهدتها، نعم أعجبت بها من وقتها، بتّ ألاحقها من مكان لمكان، أرقب الزمان المشترك معها، باتت مادّة التربية الوطنية عندي هي التربية القلبية التي تطفئ جيشان قلبي المتلهّف، وباتت هذه الفتاة مسلسلي اليومي الذي أسعى لتحريفه ليتماشى مع خط مسيرها اليومي، وأسعى لتصويره ليتسنى لي التدقيق فيه عن كثب والإشراف الكامل عليه بكامل تفاصيله، كم كنت أتوق لإبداء تدخلاتي على مشاهد حياتها، حامياً ومنبهاً، وإن قبلت برأيي كمحب موجهٍ أيضاً وقتها.

فداء: رضيت به زوجاً بلا تردد، إذ قدِم لجدتي قبيل تخرجه (وتخرجي كان بفصل تخرجه) وطلب يدي منها، ومن بعد العديد من الإجراءات ما بين العواصم عمّان ودمشق ومن بعد العديد من التحضيرات أيضاً قابلته باسم الزواج بتسترٍ فضوليٍ من عامل الحب، وكان ما كان من حديث جميلٍ معه في لقائنا الأول والذي لا مجال لذكره الآن.

أجزم لكم بأنّ أيوب سيرويه لكم بطريقته يوماً ما، وبلقائي الأول بأيوب (الزوج) وجدت أنّ الله استجاب لأمنيتي السابقة التي تمنيتها بصحبة جدتي "أتمنى أن أتزوج رجلاً كجدي تماماً".

أيوب: "ها أنا الآن أَذكُر تفاصيل لقائنا الأول، وكأنها رصفت بكمالها الأنثوي مشاعري أرضيةً اعتلتها مستوطنةً لا عابرة، جَعلت

منها جسراً واصلاً بين قلبـــي وقبرها لا يهدمه إلاّ موتي أو فقـــداني لبصيرتي بفقداني لها، إذ جَنَدَت من حبـــها حراســـاً علـــى أطرافـــه فحصروه مَعبراً لها، جاعلةً من نورها هالةً على حوافه، فلا أحد ينفذ إليه منها.

رغم كون روحها روحاً خشبية كانت بصلابة المعـــدن علـــى القادم من الزمان، إذ طَفَت على بحار قلبـــي مطلقةً العنـــان لريـــاح الحب مُوجهةً لها، جعلت من نفسها مركبةً احتوتني، أغرقتني الحـــب سقاءً وألبستني من الغرام طوقاً للنجاة، تكاد تحتـــرق شـــوقاً وإن لم تمسسها نارها.

كانت تدعو زوّارها لأرجوحة قلبها الرقيقة ذات الحنان، تلقيت منها دعوةً ذات مرّةٍ، عفواً بل ذات قَدَر! وإذا بـــي وأنا أتأرجحهـــا أشرَق بالحب فأبتلعه زارعاً في كبدي بذرةَ البقاء، لعلـــها تنبـــت في جسدي جذوراً تتشرب المكان بتشعب كالشريان، وتخرج مني ثماراً يُستطعم منها من هم مني في الجوار، عجبـــي! كيف لأرجوحةٍ بهذه الرقة والجمال أن تفي بالوفاء والاحتواء كما تفي سلاســـل حديـــد بفكرة البقاء؟

ووالله إنها لتمتهن السحر امتهاناً! فكبدايةٍ مَرّت مـــن قلبـــــي مروراً كعابرة سبيل، فأبديت لها من قلبـــي مســـكناً كمـــا يبـــدي الفارس النبيل، سكنت منه حجرةً مُبديةً وحدةً كعصـــفورٍ حـــزين، فقلت آسفاً: صبراً صبراً آل العشق إن المكان لَصَغير.

واقتنعت بحجرةٍ منه لها قناعةَ طفلٍ بالحلوى "القليلَ منه القليل"، فرَشّت في حجرتها من سحرها الأنثوي عَبيراً أخرجت علـــى إثـــره جموع قلبـــي هائمين، باحثين عن هيامٍ شبيه لعله يكون على حـــبٍ

كهذا بكفيل، أَفرَغَت قلبـــي فأصبح لها حصراً كخاتمٍ بديعٍ صـــغير، فجلستُ أستسقي من سِحرها كأساً أذهبت لي عَقلَ قَلبـــي الوديع، أليس هذا السحر بالسحر المميت؟

قسماً سأردّ صاع الحب عليها بثلاثة وأكثر، من قلبـــي وعقلي وروحي ومن أراد مني من خاطرٍ وشاردٍ وواردٍ، سأزرع دروب قلبها بألغام الهوى، سأحرق بنيران شوقها لي كل ما حال بيننا، ســـأقذف من قلبـــي أعيرةً عشقية مباغتةً لها، سأقصف بلساني ما يهدم ما بقي من شَقَاءٍ سَبَّبته الحياة لها، أقسم لكم أني سأستنزف بعشقي قلبـــها، وسأتشربّ بقلبـــي ما بقي فيه من مشاعر نحوها"(*).

فداء: دائماً ما كان يقول لي أيوب "يقولون: الجمال نسبـــي، إلاّ جمالك فهو الجمال المطلق، إذ يملك بين جنباته قوةً دافعةً مرصعةً بالحب. في جمالك كما في حبك عبودية حتى عند الملوك، عطاء حتى عند المانعين، إسراف حتى عند البخلاء، مظلة أمومة حتى عند الأيتام، تغذية حتى أثناء فترة الصيام".

أيوب: فداء ذات شعر أسود مموج كثيف مجنون يكاد ينطـــق بالحياة وحبها مثله، كانت فداء وبكل جدٍ بلا كلل وبلا أي ملـــل تغوص في قلبها منتقيةً مما فيه من المقتنيات العشقية ما هو غير مسبوق لتهبني إياه، بينما كنت أسعى جاهداً للغوص في ذكرياتي لإيجاد مـــا يماثل سخاء حبها لي، لعلّي أوازن حيل غرامها وألاعيب هيامها.

أتدرون؟ كما لكل المذاهب والطرائق مرجعيّاتها الخاصة، للحب من المرجعيات الخاصة كما لهم أيضاً، وهم ندرة في هذا الزمن علـــى

(*) يقال إن الصفحة هذه هي الصفحة ذاتها المفقودة من كتاب مقتطفـــات من الورد 59.

غرار ندرتهم في كل الأزمان، هم رجال ونساء نذروا حيواتهم للحب وبذلوا الأرواح في السير على صراطه، آمنوا به وأتموا فروضه، عشقوا أكثر مما يكون العشق، وبرهنوا بشتى أساليب الإثبات حدوده وإمكانياته، إنهم سكان القلوب وشاغلو العقول ومحركو الحواسّ، إنهم موردو السعادة وسالبو الهموم وقاتلو لحظات يأس الذات، وفداء من هؤلاء.

فداء: دخلت عالمه السري، أراه كما يرى نفسه يومياً في المرآة بملابس عمله تارةً وبملابس نومه تارة أخرى، أعشقه! أعشق نظراته الناطقة نحوي.

دائماً ما أتساءل كيف له أن يتلاعب هكذا بحاجبيه كخاتم بين أصابعه؟ كيف يطوقني بشفتيه حين نشره لابتساماته الآسرة نحوي وكأنها من حباله؟ كيف لا أقبل دعوته للنوم بجانبه (وإن كانت مبكرة) فأستلقي على جنبي الأيمن وأنا التي لا أنام ناظرةً إليه. كيف تباغتني قبلات قلبه؟ كيف تسندني يداه؟ كيف تطوّقني ذراعاه؟ كيف تهمس روحه بالحب في أذني؟ كيف لا أعشقه! كيف؟

يومياً (إلاّ ما ندر) كنت أودعه على رصيف قطار النوم حتى يمتطي متنه مغادراً لأباشر في طقوسي (طقوس ما قبل نومي)، فأبدأ مسرعةً لاستثمار الوقت قبل أن يباشر بالعودة بمداعبة شفتيه بسبابتي اليسرى أؤكد على رسمتهما كقوسين، إحداهما للأعلى يوجه الحمد لله لما لي من النعم وإياه، والآخر للأسفل أطالب الأرض باحتوائي بثبات من شدة أعاصير فرحي معه. ما بين جبهته وأنفه في المنتصف تماماً أنقر نقرةً واحدة بهدوء وأطلق سهمين مقوسين؛ الأول باتجاه أذنه اليسرى والآخر باتجاه اليمنى كاشفةً عن نقشة نورس أسود من

رسمة حاجبيه الاثنين. ثم أنتقل لصدغه الأيمن بكفي فأتحسسه بروّية وأحيي تلك الشعيرات القصيرة القابعة هناك وأبجّل البيضاء منها، أتدرّج للأسفل صوب لحيته درجةً درجة أحصي ما شاب منها وأكنيها بأسماء النجوم، أحييها نجمةً نجمة وأعمّد من بها من مواليد جدد.

أيوب: رغم أنّ الصمت كان موسيقى رقصاتها الليلية هذه، ورغم أنّ عتمة المساء كانت نورها، كانت نقراتها توقظني، إلاّ أني لم أكن أبدي يقظتي لها قط لئلا أغتال نشوتها بإطباق يدها على جذعي، فأدعها تطوّق جسدي كما أرادت خِفيةً كما دعتني لأقبض على قلبها علانية أمام البشر.

فداء: عجزت مصاعب الحياة عن ممارسة دور الشيطان في قصتنا الغرامية، فها نحن قد اصطففنا معاً في فريق واحد ضدّ الكون بأكمله لنمارس أروع أساليب الفن العشقي المشابه للفنّ الكروي المعروف بالتيكي تاكا.

بكرة الحب! ها نحن تبادلناها بقلوبنا تارةً وبعقولنا تارة أخرى، تلاقفناها ما بين أيادينا ودحرجناها ما بين أقدامنا.

يقال إنّ لكرة القدم كلمة في النهاية إلاّ أنّ كرة الحب أخفقت أمام جودتنا فلم تنبس بخلاف ولا بكلمة قط أمامنا، لله درنا من لاعبين!

لم نكتفِ من إحراز الإهمال في مرمى مَكائِد الحياة، وذدنا عن غرامنا أمام هجمات الروتين، اخترقنا أوساط المجتمع وتخطينا هجمات نوازل القدر. فلا عجب أن نحرز كؤوس السعادة من ملاعب الحياة.

أيوب: كنا نشكل من كل حدثٍ أوجده القدر بيننا فلسفة حياة، فنتداولها في ما بيننا عُملةً فكرية، وكنا دوماً ما نميل إلى رأي ما، إلاّ أن في الشوق كان اختلافنا الأول (وهو ذاته اختلافنا ما قبل الأخير إذ لم يكن هناك من اختلاف غيره).

فقلب فداء كما الثلج الجافّ يتجمد من الوداع ويؤول لسحب الحب من أثر نيران الأشواق، إذ كانت تستعر شوقاً أثناء توديعي في كل موقعة وداعٍ مهما صَغُرَت، بينما كنت أبدو لاهثاً حباً شوقاً للقياها في كل موقعة لقاء، ما بين شوقها بعد الوداع وشوقي قبل اللقاء كان كل منّا على موعد مع الشوق ذاته، إنه الشوق!

عادةً ما تكون النساء أكثر حرصاً على ديمومة الحال، فيصدّرن أرواحهنّ عرضةً لنيران الشوق، فيبدأن بالآلام على عجل، على عكس الرجال فالقليل من ماء اللقاء قادر على سدّ ظمأ الشوق في أرواحهن، لذا تراهنّ بعد نفاده على بسط الرياح يستسقين من الله اللقاء. وحذاري قد يجدوهنّ قد اعتدن حرارته من فراق!

الشوق تَعَلُّق! نبض متسارع دائم للقلب، ترقب سرمدي للحواسّ، ألم الانقطاع ولهفة اللقاء، الشوق مواظبة الانتظار وإدمان الترصد، هو انتصاب الروح بثبات وشلل الفكر الكلّي أمام ذاك المجرم الآسر السفاك.

نعم، المجرم الآسر السفاك! فجرمه أنه قبض بيمينه على قلوبنا بلا رأفة، بلا ندم، بل وبخبث الابتسامة أيضاً! يا للعجب! إنه الشوق، أحد أشد الأسلحة فتكاً في العالم، ألا ليت الدول التي تدّعي العظمة أن تتطلع بعطفٍ علينا لحظره!

في ملاقاة المجرم هذا دعوة للرقص، ترقص أرواحنا في حفلات الشوق أيها البشر، الرقص هنا فضيلة، لا تشهده الجماهير، إلاّ أنّ الأرواح تستشعر به دوماً.

في الملاقاة هذه احتضانٌ من العيون واقتتال مع الوقت المتهالك، ألا تدرك أيها المجرم كيف نبيت كل يومٍ حالمين بما سنقوله لك بعيوننا في الغد؟

فداء: كتب جدي قصة عن الشوق سأشارككم إياها:

مدينة الأشواق..

كنت على خلافٍ مع نفسي ذات يومٍ، خلافِ عقلٍ لمبادئ قلب، فنبذتني خارج جسدي نبذَ محتلٍ للاجئ، فحملت ما معي من متاع القلب حَمل كتابٍ لمبادئ هائماً في الخيال هيام معشوقٍ عاشقٍ بعاشق وكان أن التقيتها.

كانت مدينةً ذات أسوارٍ شاهقةٍ داكنة، بأبواب شاحبةٍ شامخة، تكتنف أجواءها سحب الأكدار وتتصاعد على جدرانها شجيرات الأشجان، يسقيها نهرٌ استسقيت منه وكان بماء بارد، لعلّ برودته هذه لتوازن ما فيها من حرارة الأحزان، كُتب على مطلع دربها من هنا طريق اللاعودة، كانت العديد من الأرواح الفاترة تسعى صوبها، فسعيت سعيهم ودنوت من مدنهم، وإذ على بابها العملاق قد زخرف من حديثي هذا العنوان "مدينة الأشواق".

دخلتها ببسالة، لم أعهد بمثلها قط في نفسي، تساءلت: "أيصيب الجزع الجسد منّا نحن البشر أم الروح؟" الروح! الروح لا تعرف المنيع من الحدود ولا الخوف مما وراءها من المجهول، الروح لا تَستَطعِم بالكلل ولا يوقِفها أيّ مَلل، ما يبقيها إلا الله ولا ينفيها إلاّ هو سبحانه.

كانت مشفىً كبيراً لدرجةٍ أنها باتت تعرف للبشر كمدينة، مشفىً للأشواق، مدينةً للأرواح، دخلتها حاملاً في جعبتي العديد من علامات التعجب والاستفهام، كانت من دون قصدٍ تتناثر مني على أثري تدلّ على ما كان منّي من المسير، وتفضح ما كان عندي من السؤال المريب، تنسلّ سائلةً حصوات الطريق أنّه ما يكون هذا المكان العجيب؟

سَألتُ أحدهم ممن كانوا على أرصفة الطرق مترامين: "ما معك من مرض؟" وفي رواية أخرى: "ما معك من شوق؟".

ردّ المُبتلى مذعناً لقلبه: "معي من الشوق المؤذي ما كان فيه كفاية لقتلي، إلاّ أنه آثر الإكثار بجرحي بتركه عن قتلي، فشوقي كشوق من عضّت جفونه على نظره قاطعةً إياه بكل رمشةٍ مفتعلة وغير مفتعلة، أتراه يكنّ هذا الشوق؟ ثم ألقى بجسده على الأرض مفترشاً إياها".

وسألت آخر فأجاب: "شوقي كشوق من أحب قمراً يروح نصف يوم ويعود بآخر، ويتقلب به قلبي على النار كتقلب أطواره على الشهر، أتراه يستقر هذا الشوق؟".

وسألت أُخرى فقالت: "شوقي كشوق من كَمَنَت بمكانها تنتظر عبور قطرة ماء كانت قد أحبتها عندما التقتها في نهرٍ ما ومرّت من أمامها صوب منحدر شلال وأفضت إلى مصبّه، أتراه يُسد ظمأ هذا الشوق؟".

كانت الإجابات في مخيلتي تتلاطم كأمواجٍ تأجّجت لطوفانٍ بحرارة بركان، أفضت إليّ بأن عدت مسرعاً إلى نفسي بقلب شجيّ مسكين، ضارباً بخلافي معها عرض الحائط سائلاً إياها متشوقاً

الإجابة فمن لي غيرها من مجيب: "ما الشوق؟ ما هذا الداء؟ أما لـــه من الدواء؟".

قالت: "الشوق! الشوق أن تضع حلم لقائك بأحدهم في جيبك اليسرى لتحميها من يديك، فمهما تعددت المهامّ عليك أؤكـــد أن تقوم بها من أجله يدك اليمنى.

الشوق أن تضع هي حلم لقائها بأحـــدهم في حقيبـــة يـــدها تؤرجحها يمنةً ويساراً ويتأرجح بالتأرجح هذا منها قلبها.

ما الشوق إلاّ أن تجعل من حياتك محكاً للصدف المفتعلة وغـــير المفتعلة لتحسن استغلالها بنظرة أو لتبـــدع باســـتغلالها بمحادثـــة أو لتتجلى قدراتك باستغلالها بمجالسة، وإن قَصُرَت! الشوق حربٌ على الزمن المقرون بالعزلة عن أحدهم فتسعى بها للإجهاز عليـــه طامعـــاً بزمنٍ آخر خيراً وأطول منه، الشوق جدالاتٌ مع الزمن المصـــحوب بالمشتاق إليه لعلك بها تكثر منه راغباً بإطالة وجوده مع كلتا عينيك.

الشوق أن تُجلس قلبك مَجلس عقلك فيجلسك مكانـــاً بـــلا مكان، فتكون روحك هناك تسير على أثره، وجسدك هنـــا وحيـــد شجي مسكين هزيل.

الشوق كما الرقّ وجهان لقلبٍ مملوك واحد، بكليهما تُكبَّـــل القلوب، فبالشوق تكبّل القلوب بحبٍ وحيد فقط كما يكبّل جســـد الرقّ بحبل واحد فقط، إلاّ أنّ الرقيق بقدرةٍ على الانتفاض، وصاحب الشوق قدره الاحتراق، لا محالة.. الاحتراق، ألست أنت بالشـــوق رقًّا من الرقيق؟".

ثم أطرقت رأسها وقالت: "قلَّ من ينجو مـــن هـــذا الشـــوق! أتدري أقول لك وبكل غلظة: لا يفتكك من براثن الشـــوق هـــذا

ويبرئك منه إلاّ موته، موت هذا المشتاق إليه، إذ بموته تموت فكـــرة البعد، وتتقطع فكرة مشاركته الناس إياك.

فبالموت تُقفل على ما بقي منه في ذاكرتك وما ترك في قلبـــك بقفل الحسرات، مستأثراً بها تركةً ثمينة في صندوق ذكرياتك، فلعلك تستنسخ من حرفه القديم الجديد من الكلمات، ومن صوته الوســـيم الحديث من الأغنيات، ومن نظراته الكريمة القويم من المـــرآة لعلّهـــا تعكس لك حركاته بما فيها من الذكريات.

لعلك بما بقي منه من أثرٍ قد تركه فيك تبني له معك مســـتقبلاً غير ما انتهى له من موت، فيعيش تحت سقفٍ من قلبك تحمله راحتا يديك، تطعمه ما اشتهيت من غذاء وتسقيه ما تنتشي به من شراب، تلبسه ألواناً من طيف ما تُسحر به عيناك، فتزوره في الليالي الحالمـــة، وتستعين به في كل نازلة.

لا جرم أن الشوق قاتلٌ لمن يبيت باشتياق، فسلاحه غفلة مـــن نحن إليه باشتياق، وميدانه التقاطع بأفلاك الحياة، ونهايته وفاته أو أن تحدث لنا نحن الوفاة".

آخر أيام الصيف

عصام: عشق أيوب فكرة الحب منذ زمن طويل، كان يتفكّر فيه بدأب لا نظير له، إنه من المسلّمات لدى أيوب بأنّ على كل إنسان التفكر والتدبر مسبقاً بكل أمر سيقحم به نفسه، فتجربتَيْ تردّده السابقتين كشفتا له عن أفق فكرٍ أشمل وأوسع.

أحبّ أيوب مكانة فداء القلبية كحبيبة قبل أن يحبّها لذاتها، وهذا ليس بانتقاصٍ لحبه لها أبداً. إذ كان منه أن خلق حباً للمحيط الحاضن الحاوي لحبّها منذ سنين، وهذا واقعٌ قد يكون مؤذياً لها نوعاً ما، إلاّ أنه عليها أن تُسلّم به، فحب المكانة لا ينتقص من حب سكّانه أيّ شيء بل هو إضافة لا محدودة لما هو لا محدود أيضاً، تماماً كما نحبّ بيوتنا التي عشنا فيها مع عوائلنا الممتدة أو الصغيرة، فحب البيوت يعود بالرفادة لحبّ سكانها، وحبّ مكانة فداء كان توقاً لاستقبالها، وتجهيزاً لعرشها.

أحبّها بصدق منذ أولى نظراته التي سقطت صوبها، فبدأ بهمة المزارع بزرع حقول الهوى لها لتستنشقه، فاجأها أيوب بمقدار حبه وتسارعه لها، وبمدى تمرسه بالحب (من وجهة نظرها التي صرحت بها لاحقاً)، كان يعتنق مذهباً عشقياً مغايراً لمذاهب العشاق في كل الأقاليم المحيطة، إذ كانت المفاجأةُ عمود سنام حبه وأما المادّة فأفقر أدواتها.

إنك قد تعتقد في حال صادفت أيوب العاشق بأنك أمام رسول عشقٍ بليغ ضليع، ليس بساحر ولا بكاهن ولا بمجنون، إنه عاشق محبٌّ كريم، كان أيوب على أشد الثقة بخالقه بأنه سيرزقه العاشقة التي تناسبه، ويكون هو لها ما يناسبها، لم يتمنَ الأمثل ولم يطالب بالأفضل، طالب بالأقرب لذاته ولطبيعته ولبيئته، وهذا لا ينفي أنها المثلى والفضلى كما لا يثبت ذلك أيضاً.

كانت الثقة المطلقة بالخالق أسمى معتقداته، إذ دائماً ما كان يكرر القول المعروف *لو اطّلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.*

رنا: لا، لم يكونا ثنائياً عادياً أبداً، كانا زوجين مثاليّين لأبعد الحدود، أقاما زواجاً منبسط الأسارير بأسس نادرة، فبالنسبة للزواج عموماً على الرجال ادعاء الحب فيه ابتداء، نعم على الرجال ممارسة الكذب! (هذا إن لم يجدوا فتاةً كصديقتي فداء، التي تفرض الحب على الجميع بعنوة غير مقصودة، وقطعاً إنه لمن النادر أن يجدوا مثلها) فإنه من الصعوبة بمكان أن يبدأ الحب الظاهر الطاهر من الفتاة.

والرجل كما تعلمون غير قادر على حب روح امرأة بالسرعة الكافية (لا جسدها) ليتجنب الكذب هذا، هناك منهم من هم قادرون إلاّ أنهم قلة حقاً، وأستطيع أن أقول بأن أيوب منهم.

وبذلك يكون تمثيل الرجل مدعاة لطمأنينة قلب المرأة، وبطمأنينتها تبدأ سلوك مسالك العشاق (إن استحق ذلك) فتستشعر بالحب أولاً ثم تبديه، وعندما يجد "الرجل المدعي" الحبّ الخالص من محبوبته سينصاع له حتماً فيعشقها (إن استحقت هي ذلك أيضاً).

أما فداء فهي من النساء اللواتي خلقن ليكنّ سيدات القلوب، هنّ ملكات على رؤوسهنّ تيجان لامعة ترد ولعةً على من يتولع بهنّ،

وبيدهنّ تَعَلَّقت صولجانات التعلق الذي تتعلّق على رأسه قلوب الحب الكريمة المحبة لهنّ.

إن صادفتم فداء ذات تقاطع حياة صادفتم فردوساً أرضياً، خلف أسوار أدبها وحيائها وتديّنها كون حبٍ عظيم، تؤول للكمال كلما اقتربت من قلبها، وتراها تدنو من الشمولية الأقصى كلما تزاحمت الأقدار أكثر على بابها، لذا أقول لكم بأنهما ثنائيٌّ عظيم، فكلاهما كانا على أهبة الاستعداد للحب ولتلقّيه، للبذل من أجله ولتحمل العقبات بسببه وللأكدار الكامنة في الدروب الساعية إليه.

عصام: عذراً لم أعرفكم برنا، إنها صديقة فداء الأقرب وتكاد تكون الوحيدة لها، كان وتجاورتا في السكن منذ طفولتهما في منطقة جبل عمّان، كانتا معاً روحاً واحدة لتوأم بشريّ من النوع غير المتطابق، تفوّقت فداء أكاديمياً وبرعت رنا اجتماعياً، دائماً ما كانت رنا على الموعد مع فضفضة قلب فداء بلا نداء، كما كانت فداء على الموعد ذاته لكي تستقبل منها ما ألّم بها وبنفسيتها جرّاء أحداث الزمن، من شدة صداقتهما لم تفوّت رنا أية فرصة للسفر للشام للقياها، كانت ترافق أية قريبة من قريباتها وتدفع والدتها وتشجع إخوتها لزيارة الشام باستمرار، كانت تبذل أكثر لكونها أكثر ثراءً، بارك لها الله.

رنا: يعدّ يوم زفاف فداء وأيوب أجمل أيام حياتي، كيف لا وبه كانت بداية قصتي مع عصام، عصام الطبيب الشامي صديق أيوب المخلص وأحد أضلاع مثلّث صداقتهما المتين، أدّى أيوب وفداء دوراً عظيماً محموداً لإتمام زفافنا.

لن أطيل عليكم كثيراً، إلاّ أنني سأخبركم بأمر كثيراً ما يجول بخاطري؛ إنه ليس بالضرورة أن يكون المكتوب أجمل وأعظم من اللامكتوب في ذهن الكاتب، والمرسوم من اللامرسوم في عينيْ الرسام. أقصد أن أقول لكم بأنّ القصص الفرعية في الروايات قد تكون أكثر جماليةً ومثاليةً من القصص الرئيسية، إلاّ أنّ ذكرها يعدّ أحياناً ضرباً من ضروب سماع ما لا جدوى منه بالنسبة للبعض.

بالتأكيد لست أقول هذا الكلام لكم من باب الغيرة، إلاّ أنني معنية بأن أقول بأنّه من يدري لعلّ قصتي مع عصام تفرض نفسها على أحدهم يوماً ما فتصل إليكم، ربما رغماً عن تدفّقات إلهامه وقلمه! وربما بالطريقة نفسها التي أتحدث بها معكم الآن!

بعد بضعة أسابيع من زواجهما (أيوب وفداء) شاءت الأقدار أن نعلن خطوبتنا أنا وعصام على الملأ، وبعد مرور سنة واحدة عليها بالضبط تم زواجنا، وبعد مرور سنة وستة أشهر من يوم زفافنا رزقنا بمولودنا الأول وأسميناه زيداً، اقتداءً بالصحابي الجليل زيد بن ثابت رضي الله عنه، أحد كتاب الوحي، كانت ولادتي تلك جد خطيرة وقد سلّم الله لنا طفلنا حفظه الله، لم تتسع الدنيا لفرحة عصام بتاتاً، إنه مولوده الأول! والحفيد الأول من الإخوة الذكور لدى عائلته.

كذلك كان أيوب وفداء على موعد مع سعادة عظيمة من أجلنا، قلق أيوب أكثر من زوجي بكثير فبكى بقلقلة أكثر مما بكى زوجي، صدقاً لم أرَ صديقاً يحبّ صديقه ويفرح لفرحه كما كان أيوب، و لم أجد من تذرف الدموع خوفاً عليّ وعلى طفلي كما ذرفت صديقتي فداء ولن أجد.

آه كم أنّ هذه الأحداث حدثت منذ زمن بعيد! كيف للزمن أن يجري بهذه الوتيرة الحثيثة؟ ألا إنّ الزمن هو العدّاء الأسرع.

بالنسبة لي لم أكن أعلم عن عصام أيّ شيء من قبل، إلاّ أنّ اسمه كان يذكر كثيراً وبشكل دوري في حياة صديقتي فداء، لذا يعدّ يوم تعارفنا قبيل خطوبتنا أوّل ما جمع بيني وبينه، ووالله إني أرى بفضله كل أيامي هانئة ساحرة كأيام زفافي، وحتى الآن وأظنه هكذا للأبد، عصام إنسان رائع، كريم وودود، زوج مخلص وأب عظيم، قيادي مبادر وطبيب ماهر، كثيراً ما يداعب أطفال أخته الكبيرة، وإنني أؤمن بما آمنت كاتبة رواية *أحببتك أكثر مما كان ينبغي*، وأشعر كمثل ما شعرت وأتفق معها تماماً، إذ *دائماً ما يجذبني الرجل اللطيف مع الأطفال، أحب الرجال الذين يحبون الأطفال، أشعر دائماً بأنهم أصدق من غيرهم*. إلاّ أنّ عصام ليس بأصدق من غيره بل هو الأصدق على الإطلاق.

عصام: بعد قدوم زيد علينا بسنتين ونصف كنا على موعد مع ولادة طفلنا الثاني حمزة، وبعده بسنتين كنا على موعد آخر وأخير (حتى الآن) مع ولادة طفلتنا الأولى مريم، والتي أسميناها بهذا الاسم اقتداءً بإحدى أفضل نساء الأرض والوحيدة التي سميت سورة من سور القرآن الكريم باسمها، مريم عليها السلام الوحيدة التي حملت وولدت وهي عذراء.

رنا: إنه أيوب من اقترح الاسم الكريم هذا علينا، كم كان يتوق لتسمية ابنته بهذا الاسم، إلاّ أن الله لم يشأ له بذلك، فأشار به على عصام فوافق بلا تردد طمعاً بمنح أيوب سعادة اختيار اسم

إحداهنّ، لم يكن يائساً من رؤية ابنة له بقدر ما كان متعجلاً لـــيرى الاسم على فتاة صغيرة، فكان الاسم هذا من حظ صغيرتنا.

عصام: صدقاً أقول لكم إنّ كنوز العالم بأجمعهـــا لا تكـــافئ احتضانك لطفلك، خصوصاً احتضانك الأول له، إنه من صلبك، من أحشاء محبوبتك، واهب الفرحة لكليّة أهلها وأهلك، في احتضانه هذا رعشة لقلبك تماثل الرجفة التي تنتاب كلتا يديك، تخال صوت بكاء نَفسك مسموعاً لدى العلن، إلاّ أنه في الواقع صوت تنفسك الهائج لا أكثر، ألا إنّ العيون لتدمع ألذّ الدمع، والشفاه تتبسم أوسم التبســـم، والجفون ترمش بأعظم هناء. اللهم ارزق الجميع هذه الهبة، وجنّبـــهم محنة فقدان هذه المنحة.

كانت ولادة مريم نقطة انعطاف في حياة صديقي أيـــوب، إذ أيقظت هذه الولادة نار الحسرة في قلب زوجته الصـــابرة المشـــتعلة أصلاً أشد إيقاظ، وبشكل سريع ومتسارع وصلت الأمـــور معهـــا لطريق مسدود، وطلبت الطلاق! كان طلبها للطـــلاق ضـــرباً مـــن الجنون، كان في طلبها هذا انطلاقة رصاصةٍ أصابت كبد أيوب فترنح قلبه وسقط على الفور مغشياً عليه.

بالرغم من أنّ كليهما لم يعانيا أية معوّقات جسدية، ورغم قيامهما بكل المحاولات الطبية المتاحة، لم يشأ الله لهما بأيّ مولود، لم يكونا على موعد مع العقم الجسدي إلاّ أنّ حالتهما معاً كانت حالة عاقر.

إنّ في العقم شكلاً من أشكال الموت، ففيه رائحة من رائحـــة الفناء المترقّب، فيه نهاية لحكاية ما لبثت أن بدأت على عجل، فحالما تثبت حالة العقم (أو عندما تطول الحالة العاقر) يبدأ عـــدّاد النهايـــة باللمعان أكثر فأكثر.

وإني لأتساءل كيف صمد صديقي أمام اليأس وتقبّل الحسرة من بعد التطلع والترقب على باب كل دورة قمرية لقرابة السنوات السبع! ربنا لا تذر منا فرداً وحيداً وأنت خير الوارثين.

لم تنتقص حالة أيوب القاسية من مستويات إيمانه بمعتقداته، بل و لم تبقها على حالها إذ زادت أكثر وأكثر، إنه من المؤمنين بأن الله دائماً ما يختار لنا الأفضل، لم يقنط بل كان يسعد بأن الله الذي كافأه بالعديد من النعم اختار أن يصيبه بنوع من أنواع البلاء، فقد قال عليه السلام: *إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ، وإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ، رواه الترمذي.*

رنا: بالنسبة لموضوع اليأس. إنه الأمل، إن الأمل هو الحاضن الأحنّ والأدفأ في حربنا على اليأس، فالأمل قوس ألوان الإيمان الناجم عن انكسار كوارث القدر على أعتاب الرضا، الأمل مطرٌ يُنبت براعم المحبة من رمال النفوس الحزنة فتنمو وتطول كل الوجوه المارّة صبراً.

عصام: اللهم ارأف بحال قلب تعلق بحلمٍ تعلّق برجاء تعلق بطموح تعلّق بالقلب تارةً أخرى لخلق دورة جديدة للتعلّق بأمل. ما أشقى من لا يعرف أملاً! ما أشقى من لا يملك بقلبه أملاً! ما أشقى من لم يمسك بعينيه طرف أي أمل!

رنا: كتب جَدُّ فداء عن الأمل ما أثار إعجابي ودفعني لأدوّن نسخة منه لأحتفظ بها لعلي أحفظها يوماً ما، إذ قال: "ها هي تربة القلوب المكروبة تجفّ رويداً رويداً فتشقى، تتشقق أغشيتها جراء أجواء الحزن فتذبل بواطنها بموجب موجات القلق، هلمّ يا بني قومي

نستسقي الله الأمل، ثم دعونا نعجّ إلى ربنا بالدعاء لبقائه، بقاء الأمل، فالأمل إسقاطٌ من الجنة على جثمان قلبٍ متجمد فيذيب عنه ما عليه باعثاً فيه الحياة. إنّ في الأمل ثقةً بالخالق وتدعيماً لأسس الإيمان، بـــه تطهيرٌ للنفس من شرور الشيطان وتعزيزٌ للـــنفس نحـــو خطـــوات الإحسان.

ولحبال الآمال طرفان لا ثالث لهما، أملٌ من بعد المحن وأملٌ من بعد الهناء، فلنتعلق بأحدها تبعاً لما نحن فيه من الظروف، وما الأمـــل من بعد المحن إلا كقطارٍ خُلق من رماد الأحـــداث الســـلبية لينقـــل القلوب الكدرة من الأراضي المُمتحنة بالبلاء للأراضي المُتأمل فيهـــا البقاء بهناء، وبه يُنسي الإنسان نفسه فكرة الشقاء القائم ليذيقها من نعم الرحمن القادمة عبر الزمان.

حتى وإن أُسقطت عن متن قطار الأمل هذا بسهام الواقع، فقد قَدِر قطارنا على قطع قَدَرٍ من مسافة الحـــزن وتغطيـــة مســـاحات ومساحات كعلاجٍ وتخفيفٍ من الآلام.

وما الأمل من بعد الهناء إلاّ كمصعد يَصل الإنسان إليه ليرتقـــي به هنيئاً لهناء أجلّ وأكبر، ففيه إشراق قلب فرحٍ على أوجهٍ كُتب لها مشاهدة الفرح أو مشاركته أو التبارك فيه، فيه صـــمودٌ في الشـــدة وطلبٌ من الله اللين في الحياة، فيه رضا عن مكنونات النوازل، وفيـــه سؤالٌ للخالق المزيد من النعم".

للمعلومة لم أكن أعلم بأنّ لدى فداء جداً عظيماً من قبل (مـــن أيام سكنها بجواري في جبل عمان)، وأجزم بأنها لم تكن تعلم هـــي أيضاً، وفي زيارتي الأولى لفداء في دمشق، حين إقامتها عند جـــدّتها بالتحديد، أوصلتني لكل ما خطه جدها رحمه الله.

بالمناسبة أنا لا أتخذ من القراءة هواية لي إلاّ أنني أنتقي بحرص ما أسرف عليه من وقتي، ووجدت أنّ ما خطه جدها رحمه الله يستحق أعلى الاستحقاق أن أسرف وقتي عليه، فقرأت بنهم لم أعهد نفسي تمتلك كمثله من النهم كل ما خطه في غضون ثلاثة أيام، ثلاثة أيـــام فقط! أحفظ منه بعضه وأدوّن بعضه وأسعى لقراءة ما بقي من كلامه بين الفينة والأخرى مرةً بعد مرة.

أما بالنسبة لما قاله عصام عن فداء فلا وكلاّ! لم تكن ولادة مريم السبب مطلقاً لما حدث كما قال، سأخبركم عن حياتها مع أيـــوب والحكم لكم من بعد سماعكم قصتهما.

مع مرور الزمن بات أيوب منهمكاً في طموحة أشد انهمـــاك، كان يعمل في مجال الهندسة صباحاً وفي الإخراج مساءً ويسعى للرسم في أوقات فراغه شبه المعدومة والمحاولة بالكتابة أحياناً أخرى، إن هذا ما كان ينقصه أيضاً "الكتابة"! كانت فداء وحيدةً وحدةً قاسيةً نوعاً ما.

عصام: بالله عن أية وحدة تتكلمون؟ أحقاً تعتقدون أنّ وحدة فداء كانت أشد حالاً من وحدة أيوب؟ إن أشدّ أنواع الوحدة هـــي وحدة الموهوب، فبالرغم من أنّ فداء سعت دائماً لاحتوائه واحتـــواء انشغالاته، إلا إنها لم تدخل معه في عالمه الخاص المعزول بفضل فطرة الموهبة، فعالم المواهب عالم محكم العزلة.

رغم أنّ المواهب على خطوط متفاوتة من العزلة، شاءت الأقدار أن يكون أيوب على موعد مع أشدّ أنواعها، فعلى سبيل المثال تـــرى عزلة المواهب الجسدية أخف وطئاً مما سواها من مواهب الابتداع من الصفر. فالرياضي مثلاً يصرخ بأعلى طاقة جسده ليسمع الكون عن

مكنونات موهبته، فتبذل الجماهير من ترقّبها على قدر ما يبذل من الإرهاق والتعب وتصبّبه للعرق.

وترى المطرب يصدح بأجمل ما ينجم عن حنجرته أمام العلن فيسلطن بنفسه وبالمستمعين ساعياً لإيصالهم لأبعد مدى، فكلما أجاد اتسع مدى سلطنتهم أكثر وأكثر، كذلك الراقص يبرمج من تداعيات جسده ما يجذب أنظار عشّاق رقصاته صوب عوالم أخرى.

ولما ذكرت من الأمثلة سبلٌ للتمرن الدوري على طول خطوط الاستمتاع والسعي نحو الاحتراف أيضاً، أما الرسم والنحت والكتابة فلا سبل للتمرن عليها لزيادة الإتقان، فهي مواهب خام، لا تُسيّر ولا تُصيّر، لا يتوقع منها شيء كما لا تعتمد على تفاسير واضحة.

وأما عن عزلة المواهب الخام هذه، فهي لا تنبس ببنت شفة طوال الوقت اللازم لإنجاز تجسيد الموهبة، فتطول العزلة بطول تأخر الإلهام تارةً، وتارةً تطول بضعف الموهبة. أحياناً تطول بسبب تذمر المحيطين، وأحياناً أكثر تطول بسبب يأس الموهوبين، الرسم والنحت وبدرجة أكبر الكتابة هوايات معزولة مؤلمة لقلب صاحبها وعقله.

حتى في التنفيس عن حالة الغضب، فأهل المواهب ليسوا على قدر سواء، فإن غضب لاعب الكرة سدّدها بلا رحمة، وإن حنق المطرب من حالٍ صرخ بملء صوته، وإن احتدّ الراقص يمكنه الدخول في رقصة هستيرية تطيح همه أرضاً.

أما النحات فما له إلاّ أن يكسر منحوتته، والرسام أن يثقب لوحته، والكاتب أن يمزق أوراقه! أتعدّون هذه الأفعال تفريغاً للغضب! صدقاً إنهم مكبلون بمواهبهم. لذا نجد أنّ أيوب هو من عانى أعظم أنواع العزلة لا من سواه.

رنا: عجبـــي ما كان في بال ذاك الرجل! كان يبذل الساعات الطوال بين رسومه وأفكاره تاركاً إياها في الحاضر وحدها لتصـــارع بالتدبير للحياة والتخطيط والتحضير للمستقبل، فإذ بها يومياً من بعد إنهائها لأعمالها كموظفة تباشر بأعمالها كزوجة تزور السوق أحيانـــاً لتتبضع وأحياناً أخرى لتكسوه وتكسو نفسها، تغسل سيارته وتقلّم حديقة بيتهما، تصلح أعطال المنزل وترتّب له أوراقه.

ومن ثم، ومن بعد كل هذا تخلع عن نفســـها ثـــوب الزوجـــة لترتدي ثوب العاملة فتنتقل لملاعب المطابخ وأرضيات الغرف، تزور أسطح الموائد وتلمّع المرايا والزجاجيات، وكل هذا لم يمنعها مـــن أن تقدم نفسها بالهيئة الأبهى دوماً كزوجة، أجمل زوجة.

كانت سعيدة لمقدرتها على إراحته، إذ كانت تنجز عنـــه كـــل مهامّه، كان طموحه هو كل ما شغل ولا يزال يشغل بالها، أتمنى أنه كان ممن يقدّرون تضحيات زوجاتهم لما كانت توفر له من الوقـــت للتفكر والاستجمام على حساب حبّها وحساب حياتها المتشـــاركة معه، لم تفكر قط بأنها لا تستحق كمثل هذه الحياة.

بالنسبة لي، إن أصعب اللحظات على المرء تلك التي يقف بهـــا مضرجاً بعرقه قائلاً أنا لا أستحق معاملة كهذه المعاملة ثمناً لما أبذلـــه من العطاء، إلاّ أنها كانت تسعد أكثر بإرهاقها من أجله كانت تُبجّل كل ما فيه حتى صوته!

لا أزال أذكر كلامها لي عن صوته، صوته الـــذي يصـــل في الحقيقة لمستوى عالٍ من الحدّة المزعجة، على الأقل بالنســـبة لي! إذ كانت تقول (وإني أعتقد أن هذا القول يعـــود لجـــدها رحمـــه الله وأسقطته هي على عزيز قلبها): "إن أجمل صوت هو صوت الحبيب،

فهو الصوت الذي لا يحتاج للغناء ليثبت مدى جماله وعمق أصالته وشدة ندرته، كيف لا وهو الصوت المسموع من القلب والمَتَلَقّى من العين والمُتَذَوق من داخل الروح؟

نجد في سماعه نشوة مجهولة النوع، وإثارة أحاسيس لا محدودة الكم، ورغبة جامحة في الإطباق عليه حتى الموت".

ومع مرور الوقت اعتاد الراحة المتاحة كما اعتادت البقاء بالوحدة والتأهب للبذل وتقديم الخدمة، لم يكونا على علم بأن القدر يهيئ لها المقدرة على المتابعة من دونه. أتراهما كانا يعلمان وقتها بأنّ أول صدام بينهما كان كفيلاً للوصول للمعلومة المجهولة هذه من كليهما؟

أصدقائي، مخطئ من اعتقد أنّ الشمس التي تكتفي بالسطوع على سطوح المشاعر المستقرة والظروف الهانئة بأنها شمس الحب الحقيقية، عذراً فهذا هراء! فالشمس المذكورة هذه تعود لمجرّة المشاعر الأنانية، كيف لا وهي التي تستمدّ نورها من قلب ذاك المحب الذي يرغب بالحب لإشباع تضرّع قلبه للعشق فقط، لا ليعيش به حياةً كحياة أساطير الحب العربية كعروة والعفراء، جميل وبثينة، قيس وليلى.

لفرط أنانيته يرى الحب مهمةً أرستقراطية يتجمل بأدائها أمام العالم وأمام نفسه! يرى فيه رصيداً عاطفياً زائداً عن حاجته اليومية فيستعمله بترف في أوقات فراغه، يتعامل معه كما يتعامل مع حيوانه الأليف إذ يداعبه عند وقت رغبته ويمتعض منه ويتعثر به أثناء أوقاته الاعتيادية.

حتى الحب من طرف واحد يرتقي عن حبّ كمثل هذا الحب، فذاك الذي من طرف واحد يَخدع به القلب صاحبه فيُسقطه في

مستنقعات الأمل ليستنجد حينها بحبال غرام الآخر، غرام الآخر فقط! وليس صاحب القلب من يضحك على قلبه بنفسه فيلصقه على خيوطٍ من الحب الوهنة المصنّعة من فكرة التحصيل الحاصل كما يفعل أرستقراطيو الحب! مخطئٌ من ظن يوماً أنّ لأرستقراطيي الحب حباً.

أيها الأنانيون يا أرستقراطيي الحب في العالم! شمس الحب تلك الشمس التي يخترق نورها سطوح بحيرات النفوس الكدرة أيضاً فتتمكن من مشاعرها جميعها فتسقطهم أرضاً في القعر ليرتقي عليها الحب فيبيت ماؤها بنقاء.

لا مشاعر تعتلي الحب، لا مصائب تقوى عليه، لا نوازل تقدر على الحب، فالحب حالة دائمة تعتري القلب، وقطعاً ليس الحب تحصيلاً للكمال النفسي، فالحب هو من لأجله نفرح ونفرح بسعينا إليه، ومن لأجله نغضب ونغضب بانحرافنا عن طريقنا إليه، وبه نحيا ونحيا باستقرارنا مع أحدهم عليه.

عصام: لا تزال رنا متحاملة على أيوب أشد التحامل حتى هذه اللحظة، لا تزال مؤمنة بأنه السبب في كل ما حصل له ولصديقتها، مرت سنون زواجهما بسعادة نفيسة، وكانا فيها أشهر ثنائيات السعادة في نطاق معارفنا على الإطلاق، ووالله لكأنّ الحب كان يُبثّ في الأثير الكوني من منزلهما، لم ينحنيا أمام صعاب المشاركة بقدر ما كانا يراوغانها بالذكاء ويتمايلان عنها بالألفة والمحبة، كانا مثالاً للتنازلات في سبيل الحب، وأنموذجاً للمجاراة في قنواته وشعابه.

أضف إلى ذلك أنّ الحياة مع أيوب آمنة جميلة ومستقرة، فهو من كان يعشق ليعشق لا ليُخدم ولا ليتكاثر، تزوج لنفسه لا لأهله ولا لمجتمعه، كان الزواج عنده لزام المرحلة النفسية لا المرحلة العمرية

أو الوقتية، إذ لم يشكُ قبله من أي فراغٍ أو ملل، كان الحب هو كل مبتغاه، ومبتغاه هذا وإن كان لوحده مبتغى عظيماً.

كان من أيوب أن ألزم نفسه بفكرة الإنجاز وهذا ما تتحامل عليه به زوجتي، إنها أرادت منه أن يحيا حياته كمثلنا جميعاً بين اللعب والجدّ، بين العمل والرخاء، بين الإنجاز والفراغ، إلاّ أنّ أيوب طالب نفسه بأقصى درجات الإنجاز، كان يكره عدادات الوقت، كان يرى الموت يكمن له في أوقات فراغه، لذا كان بين أشغاله يسعى للإنجاز، وكل هذا لم يكن على حساب حب زوجته، إلاّ أنه كان بلا شك على حساب إثباته لها.

كان يعود لها في كل يوم ليلقمها من حبه، وهي التي كانت تقبع في عشّها ترقد منتظرةً عودته انتظار الجياع، أجزم أنها كانت ترقد على قلبه. كان عليّ أن أحذركِ من كسر عشه يا فداء! فإن كَسْرَ عشّه يدعوه للاغتراب واختيار الفناء في أيّ مكان يبعد مكانه السابق. إن أيوب من النوع الذي يستصعب العودة دائماً.

آه كم أن الشوق كان حارقاً لقلبه! فأنّى له بهدهد ليمكث عندك غير بعيد ليأتيه منك حينها بخبر يقين؟ ليتني حذّرتك من قبل، وها إنّ تحذيري تأخر بما فيه الكفاية لئلاّ يجدي في يوم ما نفعاً أبداً.

لم تكن فكرة الانفصال بسبب الطفل المنشود مقنعة لأيوب بتاتاً، لذا أضحى شاكاً في كل مرتكزات شخصه، اهتزت فيه قيمه وأسلوب تفكيره ووجد الريبة في دروب حبه، كره طموحه وكره كل أحلامه من بعد فراقها.

بالنسبة لأيوب ما كان منه إلاّ أن فقد إحساسه بالواقع حينما تركته فداء، إذ كان في فترة فراقهما يجلس وعقله وحيدين، أما هو

فيمسك بقلبه ويربّت عليه وكأنه طفله المنشود، وأما عقله فيمسك بأفكار خياله كأنها سُبحة يمر عليها فكرة فكرة متسائلاً: "ماذا تراها تفعل الآن؟ تراها مع من تتكلم؟ تأكل أم أنها منقطعة عن الأكل؟ أتنام أم أنها تحاول ذلك؟ تستيقظ مبتسمة كعادتها أم أنّ البسمة باتت صعبة على محيّاها؟ أتراها لا تزال تؤمن بالحب أم أنه فقد من قاموس قلبها؟".

كان مني أن قرأت في رواية *الجحيم* ما طابق حالته، إذ إن *أسوأ أشكال الوحدة هو العزلة التي تنجم عن سوء الفهم. بإمكان هذا الشعور أن يجعل الناس يفقدون إحساسهم بالواقع.* بالله عليكم أجيبوني: أيكون وجود الوليد من عدمه سبباً كافياً لإنهاء حياة هانئة كحياتهما!

رنا: رغم وجود العديد من المبررات من وجهة نظري لطلب انفصالها عنه كانت فداء تراها مدعاةً لوجودها الأقرب منه، ممن تحب. عاشت من أجله وعشقته حتى بات عشقها داءً، كان أيوب لها أرضاً وسماءً، ماءً وهواءً، كان وجودها ومركز كونها، لم تكن ترى من خلاله بل كانت ترى كما يرى، ولم تسمع من خلاله بل كانت تسمع من مسمعه، وثقت فيه لأبعد الحدود، سلّمت كل ما احتوى كيانها له ليتصرف به على هواه. وأعترف لكم إنّ هواه لعظيم، إنني أعلم بكرم روحه وبسخاء قلبه، وإنني أعلم أنّ فداء كانت المعشوقة العظمى في عصرنا الحالي بلا منازع، إنني لست متحاملةً عليه كما يعتقد عصام بل إنني حزينة أعظم الحزن على ما ألمّ بهذا الثنائي الأخّاذ، إن السبب الحقيقي لما آلت إليه الأمور بينهما هو ما واجهته فداء في ليلة حالكة، إذ واجهت حلماً أسود انهارت أمامه وأي انهيار كان انهيارها!

أفادها حلمها المقيت بموت عزيزها، لم يصدّق قلبها الحلم هذا حتى الآن ولن يصدقه يوماً ما أبداً، إلاّ أنّ عقلها بهت حينما أذعن وسلّم بالأمر، لذا بدأت فداء بالهجوم على ذاتها، وقررت مباغتة الموت بإنهاء حياتها عن طريق الهروب، الهروب قبيل وقوع المحظور، لم تقصد استخدام سلاح الطوارئ البديلة، بل ارتأت أن تختار الانتحار العشقي قبل أن يغتالها الموت بسحبه لحبيبها، لذا اندفعت للحجج الواهية (بنظري وبنظرها) لتختار الأعتى منها لتجهز بها على قلبها المنفطر.

عصام: إني لأتساءل؛ كيف للإنسان أن يجبر نفسه على نسيان إنسان كان لفترة من الزمن كريماً معه، بصداقته، بضحكاته وبسعادته، بأمجاده وبإخفاقاته، بأسراره، بمشاكله وبأحزانه؟ كيف له أن يشيح نظره عن مرآه؟ ألم يكن مَرآه أحد أصناف طموحه؟ كيف له أن يسدّ أُذنيه عن دبيب أخباره؟ ألم يكن سرب أخباره أحد المبهجات يوماً ما لجوارحه؟ كيف له أن يتناسى يوم ميلاده رغم أنّ إعلانه يدق جرس ذاكرته سنوياً على الميعاد الموقوت؟ كيف له أن يتناسى معزوفة أقدامه المعروفة مع أرضية الديار المعهودة؟ إلا سلاماً على ذكرى ذاك الإنسان.

مع انسحابها المفجع تواطأت معها موجودات محيط أيوب، فباتت على حد رأيه تزدريه، تزدري وجوده!

إنه لم يتخيل كم دفعت لهم من الذكريات لينكروا عليه حقّه في وجوده الأحادي بدونها! أما أنا وبرأيي فلا يهم، فعند جمع الأشلاء لا يهم سيناريو الجريمة! لا يهم أبداً.

رغم معرفة أيوب بموجودات حياته حق المعرفة، ورغم علاقاته مع سكان الحي القديمة أمسى ومحيطه معاً في شيزوفرينيا غير مبررة بتاتاً! أتكون وجوههم قد أمست أكثر جفافاً، أم أن عيونهم باتت أكثر

ذبولاً؟ أتكون زهور الحيّ قد شاخت، أم أن نظره لها هو الذي شـــاخ؟ هي وطنه هي حيّه هي بيته، من أين له بجانٍ لإعادتها إليه قبل أن يرتـــد إليه طرفه (حينها)؟ ألم تعلم أنه حتى في مشاركتها الهواء الذي تستنشقه لذة عظيمة له؟ ألا إنّ في انسحاب المقرب غربة عنيفة، فلا يمسي البيت ولا الحيّ ولا الوطن كما كانوا عليه بالأمس قبيل الانسحاب.

رنا: *إنه لشيء فظيع أن تظل مرتبطًا بشخص من الناحية العقلية والعاطفية بعد أن تكون قد انفصلت عنه جسديًا*، هذا الاقتباس يعـــد إسقاطاً مثالياً على حياة فداء من اللحظة التي خرجت بها من منزلها، أقتبسه لكم من رواية *لقيطة إسطنبول*.

يا ليتها حفرت لذكراه قبراً يليق به كما كتب جدها رحمه الله، إذ كتب: "عندما يقرر أحدهم الرحيل أو عندما تقرر أنت عنه ذلك، احفر لذكراه قبراً في مكان يليق به في أرض ذاكرتك، أودعه القـــبر وواره بالمحبة واقرأ له الدعاء بالتوفيق في الجديد من حياته".

ويا ليتها بكته فهي لم تبكه حتى الآن! فمما قاله جدها أيضاً: "ولا بأس أن تبكيه فالرحيل شكل من أشكال الوفاة وبه يستحق مـــن أثـــره علينا من بكاءٍ وحداد، لا تترك على قبره شاهداً، فالشاهد هنـــا بمعـــنى التعلق بالعودة المشكوك في حقيقة وجودها في عقلـــك وقلبـــك. واري الشاهد التراب أيضاً، ستنطلق بدونه من جديد وسترزق بمن يحلّ محلـــه، وسينسيك الزمن ألم ذكراه وإن طالت عليك عمليات التناسي".

ومن باب أن أتمّ لكم ما خط جدها رحمه الله أتابع كلامه إذ قال: "وأنت أيها الراحل ارحل بطيب وحافظ على كرامة ماضينا المشـــترك، فإن أنت عدت.. عدنا نحن أيضاً. نعم لا بأس، فأنت عندنا في القلـــب جديد، وفي العقل تجربةٌ آخرها بائس ولعلّها تصلح لنا من جديد".

إلاّ الحبيب أيها الجد، إلاّ الحبيب! ففي رحيل الحبيب نزوح أبدي، إجلاء كإجلاء الولادة، طلقة رصاص لا تستردّ، وذوبان ثلج والذي إن عاد عاد كالجليد!

بعد مرور أقل من شهرين على حادثة انفصالهما الشكلية المؤلمة وجدت فداء نفسها في موقف تشهده لمرة الأولى في حياتها، رغم شدة شوقها لهذا الموقف عجزت عن التنبؤ به، فهو من جاءها ليزورها وهي على المحكّ.

كيف لها أن لا تنتبه لكلام جسدها وتعابيره؟ كاد جسدها أن ينطق صارخاً أن انتظري إنّ في أحشائك طفلاً!

وفور علمها، انطلقت فداء مسرعة لمنزلها (منزلها وزوجها) وفي الطريق المؤدي لبيتها شاهدت قطة بيضاء صغيرة، ذكّرتها بقطتها التي وجدتها مدهوسةً على مدخل بيتها قبل قرابة العشر سنوات، كان الجوّ حاراً شديد الحرارة، ينبع من شمس هائجة تكاد أشعتها تحرق كلّ ما تتمكن من أن تطاله، وكأنها تعهدت للأرض بمنع التجوال على أديمها وأجادت الإيفاء بعهدها هذا، وكان من الواضح أنّ العرق يتصبب من جلّ المارّة، فترى الجميع سكارى وما هم بسكارى، يتمايلون وكأنهم يتراقصون، يحاربون الشمس كلٌ بما ملك من الأسلحة، فمنهم من يواجهها بمظلة ومنهم بكتاب وآخرون بأوراق وبملفات، ومنهن من بحقيبة أو بوشاح، إلاّ أنّ الأكثرية كانت تحاربها بالأكفّ الخالية الوفاض.

كانت الساعة تشير للواحدة ظهراً، طرقت الباب المعدنيّ ثلاث طرقات متتالية ما بين كلّ طرقة وطرقة ثانية أو في أكثر تقدير ثانيتان على حسب كلامها، بالتأكيد لم يعتد أن يزوره أحد في مثل هذا

الوقت، تباً للأبواب التي لا تملك عيناً سحرية، سمعت صوت جلبة في الداخل تبعه صوت اصطدام بمقعد خشبـــي.

فتح لها الباب منكسراً بينما فتحت عليه كلتا عينيها متلهفة، بدا مرهقاً كما بدت متشوقة، ترك لها الباب مواراباً ودخل غرفته مغلقـــاً عليه بابها، لا أدري أيكون الباب قد أُغلق عليه أم عليها! أليست هي من جاءت لإدلاع خبر ما! ألم تأتِ ليقطف منها جواباً ما! قد قُتـــل فضوله كما قَتلت برحيلها رغبته بالحياة، كانت ترتدي الأسود الذي يمقت وكان يرتدي الأبيض الذي تُكِنّ له كل البغض من الألوان.

دخلت البيت دون إذن! بل وبدون استئذان! قامـــت تتأمـــل عشّها الذي بنته قشة قشة، تتحسّس المائدة الخشبية المربعة، وكـــوب قهوته الصلصالي البنّي المحبب له، تضع يدها مكان شفتيه، تمرر كفها اليسرى على أظهر الكنبات المخملية، تستشعر جنـــون ســـجادتهما البيضاء بحذائها الرياضي الذي بذل في إقناعها بـــه لترتديـــه ثـــلاث ساعات من عمرهما، ومن خلف الباب قالت له: "أنا حبلى.. حبلى يا أيوب".

سمعت صوت ارتطام! اقتحمت عليه الغرفة مستنجدة الجرأة من قلبها، فكان صدمتها الأخيرة في حياتها (حتى الآن).. قد مات..

وبهذا نالت فداء كل الألقاب من ابنه؛ حفيدة، صديقة، حبيبة، زوجة، شبه مطلّقة، أرملة وأخيراً أماً. ونال يحيى فوراً لقبـــه الأول.. يتيم.

وسلاماً على آل أيوب

تمت بحمد الله

النهاية

وها أنا الآن أقيم في مضارب أرض الكآبة، لا أدري لم أُسكن نفسي الحزن داراً بعد توضيبي لما بقي من كلماتي في حقائبي وبقايا أفكاري ما بين أمتعتي عقب وصولي لهذه المرحلة من هذا الكتاب.

لا جرم أنّ السبب يكمن في كوني من أواري أبطالها الغلاف نفسه الذي كشفته عنهم منذ زمن، لا أدري كيف لي أن قتلت منهم من شئت! وأن أسدلت الغلاف على من بقي منهم على قيد الحياة! ومنهم من لا يزالون هناك قابعين على الأوراق بلا أيّ نهايات!

لا أدري كيف لي أن مارست فنون الدكتاتورية التي اكتسبتها كعربيّ من ممثلي السياسات المترامين في بلاد المشارق والمغارب العربية! وأمام من! أمام من أنا على أشد القناعة بأنهم خُلقوا ليعيشوا بسلام.

عذراً منكم أيها القراء، صدقاً إنني لا أستطيع أن أتحامل على نفسي أكثر مما تحاملت عليها في تكملة هذه الرواية، فلا يزال القلم الذي قتل بطلي ينغز في صدري مراراً وتكراراً في كل ذكرى بدايةٍ فصلية من بعد واقعة الجريمة، تلك الجريمة التي أسفرت عن قتل الكاتبِ لابنه الورقيّ بسلاحٍ نزيفُه سوادٌ هو القلم، قسماً ليس بقلمٍ بل برمح يجيد إبلاغ الألم.

أتراني أعود لكتابي هذا يوماً ما؟

"ما كُل طريق تنتهي نهاية سعيدة، وما كل كتاب يكون ناجحاً. مع بزوغ الفجر الجديد سأبدأ كتاباً جديداً، وسأتهيأ للانطلاق في طريق جديدة.

أما الآن فقد تعبت. سألف نفسي بعباءتي وأنام. ليلة سعيدة أيها الناس الطيبون، بالسلام بدأت وبالسلام أنهي".

وأنا أيضاً بدأت برسول وأنهي به..

رسول حمزاتوف.. بلدي

كلمة أخيرة

كذلك الأمر أصدقائي، أودّ أن أخبركم بأنّ كل ما كُتـــب في هذا الكتاب يعد أنموذجاً على ما وددت إيصاله لكم بإيجادي لفكرة البعد الخامس، إنكم وجدتم بالتأكيد كيف أنّ عنوان الرواية "حافلـــة حيفا" يشير إلى حدث جزئي لا يجعل منه واجهةً تلائم كل أحداثها، وهو لا يعبر عنها ككل، حتى إن الرواية لم تكلّف نفسها أن تتشـــبع بتفاصيله كفايةً، وبالرغم من أهمية حادثة الحافلة بالنسبة لي وبالرغم من أهمية مضمونها أيضاً، لم تكن يوماً الأمر الأهم الذي سعيت لأن أبوح لكم به!

وكذلك الأمر بما يخصّ غلاف الكتاب، فها هو يعبّر عن جـــزء من أجزاء الكتاب لا أكثر، ولا أظنه الجزء الذي يستحقّ أن يعبّر عن الكتاب ككل ليعتلي أولى صفحاته فيبرز على هيئة غلاف!

أصدقائي إنني أعترف لكم بأنّ اسم الرواية هذا لا يعبر قطعـــاً عن حقيقتها الأبرز، إلاّ أن تدخل رغبتي الشخصية أسقط على حادثة الحافلة بانتقائها كعنوان لمحتويات الكتاب سمة الأهمية، وبالتالي أعتقد أنها باتت أهم ما تنتظرونه أنتم من مضمون المكتوب، وفي هذا كان تحريفي المقصود للحقيقة المرجوّة من كتابـــي.

في البعد الخامس قد لا تكون الحقيقة أمامنا لا كعنوان ولا حتى كغلاف! البعد الخامس أو لنقل بشكل جليّ الآن "الحقيقة" أنّ كـــل

ما أعرفه هو أنني خدعت بعنواني هذا توقعات بعض أو معظم القراء، وأنني خدعت بها أبطال روايتي وتسلسل أهميـــة أحـــداثها، وأنـــني خدعت بها نفسي وإمكانياتها وحوّلت خـــاطري القـــديم الأول لأن يرسو بـــي هنا!

لعل نفسي وإمكانياتها خدعتني لأن أمرّ من هناك وأن أصل إلى هنا؟ لربما؟ ولربما؟ إنني لم أعد أعلم شيئاً سوى أنّ كل ما كان هنا أو هناك كان بمشيئة الله، ولله الحمد.

هل كررت قصص الحب في روايتي؟

لا، كل طرق الحب تؤدي بنا لأقصى درجاته وصولاً لفردوسه، سواء أكان تقليدياً أم مسبقاً أو غيرهما إن استحققنا نحن مبتغى الحب ذلك.

سائق الحافلة/أيوب